كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

متشابهات.. متناقضات

في منتصف الستينات، حين كنّا ما نزال طلاباً نتلمس طريقنا -متسلحين بشعلة الفضول، ومهتدين بمنارة المعرفة- عبر دروب التراجيديا الإغريقية والشكسبيرية، محاولين الانتقال بين كتاب أرسطو «فن الشعر» وبين تفسيرات المحدثين من النقاد، كان معنا آنذاك زميل كثير السؤال والنقاش، لا يكل ولا يمل عن الجدل مع الأساتذة، طارحاً وجهات نظر مناقضة للنزعة المدرسية التقليدية، حتى أطلقنا عليه لقب «الأمريكي الغاضب»، ربما تيمناً بمسرحية البريطاني جون أوزبورن الشهيرة «انظر خلفك في غضب». ولم تكن تربط ذلك الشاب الغاضب أية علاقة بأمريكا من قريب أو بعيد، ولكن تمرده، الوجودي في طابعه، ضد كل ما هو مألوف وسائد، كان منسجماً مع صورة ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية في حقبة ارتبطت بأذهاننا بالرئيس الأسبق المغتال في ظروف غامضة، جون كينيدي.

كانت الصورة الأمريكية – قبل برنامج حرب النجوم، وقبل ٩/ ١١، وقبل غزو أفغانستان واحتلال العراق، وقبل الكيل بمعيارين في الشأن الفلسطيني، وقبل التذرع بشعار الحرب ضد الإرهاب، وبالتأكيد قبل فظائع سجنيّ أبو غريب وغوانتانامو- صورةً قوامها التبشير بالآمال الكبيرة للديمقراطية والحرية، أي بالحلم الأمريكي، قبل أن تنسفه أقلام بعض كبار الكتّاب الأمريكيين الصادقين مع ذواتهم ومجتمعاتهم، مثل إدوارد أولبي.

آنذاك، طلع علينا زميلنا الغاضب بنظرية مفادها: «إن التراجيديا بمجملها تتلخص في المثل الشعبي القائل: كل شيء زاد عن حده، انقلب ضده». بالتأكيد، أخذ عديد منّا ذلك التفسير على أنه مزحة. ولكن، مع مرور الأيام، لمست أن في رأي صاحبنا الذي غادر الدنيا منتحراً لأسباب غامضة قدراً جديراً بالاعتبار من الصحة. وبما أن اللغة العربية من أغنى لغات العالم قاطبة بمفرداتها، سنلاحظ توضيحاً لهذه الفكرة في بعض كلماتها.

«كل شيء زاد عن حده، انقلب ضده». أية حكمة يلخصها هذا المثل الشعبي الرائع! وقبل أن نوغل في السياسة الدولية ومعاييرها المضطربة، ودون أن نمحص في مدى انسجام المبادئ الغربية في الآداب والفنون في القرن العشرين مع ممارسات السياسة العملية بناء على مصالح فئة مستفيدة محدودة على حساب دافعي الضرائب من المواطنين العاديين في الألفية الثالثة، فإن معظم النقائض في الحياة تنجم عن التطرف، أي عن إخلال التوازن والاعتدال في الموقف والسلوك، وهو ما يؤدي أحياناً كثيرة إلى نهايات مأساوية، أي إلى تراجيديا.

لننظر إلى كلمة «كبرياء»، فهي سمة إيجابية جداً، تشي بالحرص على الكرامة، والدفاع ضد كل ما هو مذل ومهين. إنها كلمة جدير بالإنسان أن يتشبث بها، بل ويفخر بامتلاكها. ولكن الإيغال في الكبرياء، يصل بالمرء إلى صفة «التكبر»، وهي صفة سلبية، تشير إلى التعالي والغرور واحتقار الآخرين واستغلال ضعفهم. وبالتالي، فالتكبر من الأخطاء التي تنهى عنها الأديان والقيم.

ولننظر إلى كلمة أخرى هي «التواضع»، فهي سمة إيجابية رائعة، تعبر عن لمسة إنسانية في التعامل مع الآخرين باحترام وإنكار للذات، ولكن الإسراف فيها يؤدي إلى نقيضها وهي سمة

«الضعة»، التي تمثل الذل والانحطاط والتزلف للآخرين، تحرياً للمنفعة الآنية ولو وصل الأمر إلى أن: يربح المرء الدنيا ويخسر نفسه. ومن يستطيع أن يزعم أن الضعة من أجل تحقيق مصلحة أو تجنب أذى، أي صفة الصغير من الناس، هي خير من التواضع، وهي صفة الكبير من الناس فعلاً، والواثق من نفسه وإمكانياته.

مثال آخر نجده في كلمة «الالتزام»، فالالتزام خيار حر، نابع عن قناعة، وعن مبادئ. ولكن المغالاة في فرض الالتزام من قبل أنظمة حكم شمولية، لا تعترف بالتعددية والتنوع واحترام الرأي الآخر، تصل إلى كلمة «إلزام»، وهي تشير إلى حرمان البشر من الحرية، وتغييب الإرادة الفردية، وإلغاء حق الإنسان في الاختيار. وكثيراً ما تصدى الكتّاب الوجوديون للفارق بين الالتزام والإلزام، مدافعين عن الحرية المسؤولة، وعن حق الإنسان في الاختيار الواعي، لأن في ذلك منح الوجود قيمته، وإلا فإننا نكون خاضعين لهيمنة العدم.

مثال آخر نجده في كلمة «سلام»، وهو نقيض الحرب ومطمح المجتمعات البشرية التي تريد أن تتخلص من العدوان والاغتصاب، ولكننا نجد نقيضها في كلمة «استسلام»، وهي تشير إلى فرض إرادة المعتدي على المعتدى عليه، أي سيادة شريعة الغاب، وانتصار الذئب على الحمل. ومن ذا الذي يمكن أن يخلط بين السلام والاستسلام، إلا لغاية في نفس يعقوب، كما يقول المثل.

آخر مثال أود أن أورده هو «الصبا»، تلك الصفة الطبيعية في عمر الربيع عند الإنسان، ولكن نقيض تلك الكلمة هو «التصابي»، أي محاولة التشبث بالربيع والرجل أو المرأة يخطو حثيثاً في خريف عمره، أو ربما في شتائه. ولكن هذين النقيضين غالباً ما كانا عماد المسرح الكوميدي، لا التراجيدي، سواء في بعض مسرحيات موليير عن المتصابين، الذين يودون الاقتران بمن هن في عمر حفيداتهم، أم في «الكوميديا- دي- لارتي».

خلاصة الكلام، إنه في كثير من الحالات تنقلب أفضل الصفات الإنسانية إلى نقائضها السلبية عندما تزيد عن حدها، أي عندما تصاب بالتضخم والانتفاخ. يبرهن هذا على أن التوازن هو سنة الحياة، والاعتدال هو دليل الصحة، وأن خير الأمور هو الوسط. بالتأكيد، سنجد بعضاً ممن يؤمن بأن الحياة اختيار حاسم، وموقف متطرف، ولكننا نقول إن الإيمان بمبدأ ما واتخاذ

موقف ما هو أمرٌ جيد، إلا أن على الإنسان أن يترك سبيلاً للحوار، إذ إن انعدام الأمل وهيمنة شعور الإحباط وخيبة الأمل، يقود المرء إلى العنف، أو إلى الانتحار. وأتمنى أن يعير أولئك المفكرون الغربيون في مؤسسات الأبحاث واستقراء المستقبل انتباههم لأسباب العنف الكامنة، وكيفية التصدي لنزع جذور الإرهاب، وذلك عن طريق الموضوعية وعدم الانحياز في التعامل، أي عدم التحامل، وتحري العدالة، وتطبيق القوانين سواسية على جميع أطراف الصراع.

أعتقد أن لجرس الكلمات المتشابه ظاهراً في اللغة العربية فائدة توضيح المثل الشعبي «كل شيء زاد عن حده، انقلب ضده». فهناك فارق شعرة بين الإيجابي والسلبي. وهذا ما يتجلى لنا في عديد من مسرحيات شكسبير، وبالأخص في تصويره لشخصياته التراجيدية، حيث الزلة هي في تطرف طبع أو عاطفة. ربما صح هنا أيضاً أن نذكر المثل الشعبي القائل: «لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك». أقول هذا لأن تصريحات بعض قادة الروح والفكر والمجتمعات الإنسانية في العالم هذه الأيام تتضمن قدراً كبيراً من تجاهل نظرية النقائض أو الأضداد، وهو ما يوقع عديداً منهم في تصريحات ناجمة عن المغالاة في الرأي أو الموقف، عندما يذهبون إلى أقصى هذا الطرف أو ذاك. لكنهم، لو اختاروا أن يرفعوا راية الاعتدال، لأقنعوا مؤيديهم، بل وكثيراً من معارضيهم على حدٍ سواء.

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

ثروت عكاشة، فارس الثقافة العربية

في آخر اتصال، منذ عدة أشهر، مع الأديب والمفكر والباحث ووزير الثقافة العربي المصري في عهد جمال عبد الناصر، الدكتور ثروت عكاشة، الذي رحل عن عالمنا في السابع والعشرين من شهر شباط الماضي (١٩٢١- ٢٠١٢م) قال لي: بأن صحته جيدة، ولم يصل إليه وهن العقل، وأن مشاريعه الكتابية كثيرة، وحمد الله، لأنه استطاع أن يرسم مسيرة الثقافة في مصر العربية، فقد جمع بين حفظ التراث الثقافي، والموروثات، وبين الفنون الرفيعة التي يحتاجها الناس للتواصل مع العالم.. وتابع قوله: لقد فكّرت في آثارنا، وكنّا وقتها بصدد مشروع السد العالي، وكانت درّة آثارنا، وهي معبد أبو سمبل، سوف تغرقها مياه بحيرة ناصر، وقلت لعبد الناصر، سيكون عاراً على الثورة المصرية غرق هذه المعابد الرائعة، فقال لي: (عايز كام)؟ قلت له: (حتديني كام؟) قال: (أديك ٣٠ ألف جنيه)، قلت له: (أنا عاوز أكثر بكثير).. وسعيت في العالم كله وفي منظمة «اليونسكو» العالمية، وأنقذت المعبد وآثار «النوبة»، وكان الاحتفال الكبير، الذي ما زال يحمل معجزة مستمرة، ومازالت السياحة في مصر بخير..

قلت له: إنقاذ آثار معبدي «أبو سمبل» و«آثار النوبة» منحك الميدالية الذهبية لمنظمة «اليونسكو».. قال: إنني أعتز بذلك إضافة إلى وسام الفنون والآداب الفرنسي، ووسام جوقة

الشرف بدرجة قائد، قلت: ونحن نعتز بأنك صاحب الفضل في تأسيس وزارة الثقافة في سورية، زمن الوحدة بين القطرين الشقيقين (مصر وسورية)، ولك الباع الطويل في إنشاء قصور الثقافة في جميع أنحاء مصر، وإنشاء فرقة الموسيقى العربية، وإنشاء الفرقة القومية للفنون الشعبية، وفريق «باليه القاهرة»، وفريق «أوبرا القاهرة» وإنشاء السيرك القومي، وغير ذلك من الإنجازات الكبيرة التي غيّرت وطوّرت وجه الثقافة في مصر الشقيقة..

قال: لقد أنشأت قاعة سيد درويش كرمز للموسيقى العربية الأصيلة، وأسسنا هيئة الكتاب لتكون شرياناً يغذي نهم القراءة، وأعلم ولع المصريين بها.. دعمت ثقافة العين، وثقافة الأذن..

قلت: لقد ذكرتنا بموسوعتك الرائدة «العين تسمع والأذن ترى» التي جعلتنا من خلالها نغوص معك في أغوار التاريخ وأعماق الموسيقى والحضارات والأساطير القديمة، وأنت بحق كنت ومازلت، كما قال عنك الفنان الكبير الراحل حسين بيكار: «ثروت عكاشة مايسترو ثقافة العين والأذن».

قال: لقد شغفت بآداب وحضارات وفنون الشرق والغرب، وأتيحت لي الفرصة للاطلاع والمشاهدة على متاحف ومواقع ومخطوطات ولوحات وكنوز عالمية قديمة، وحضرت العروض المسرحية والموسيقية في قاعات عالميّة شهيرة.. لقد أخذتني النشوة، وحلّقت في آفاق رائعة من الأحلام، ودخلت في دنيا الخيال، فحرضتني تساؤلات الذهن المتحفّز إلى المعرفة في إصرار لا حدود لآفاقه، وحتى لا ينفرط حبل النشوة، ونعيم المتعة، كانت رحلاتي الكتابية في آفاق الفن وتاريخ الحضارة، وأعمال جبران خليل جبران و«أوفيد» و«مسخ الكائنات» و«فن الهوى» والمسرح المصري القديم و«فاغنر» والفن المصري القديم، والفن العراقي القديم، والتصوير الإسلامي الديني والعربي، والفارسي والتركي، وفن الواسطي، والإغريق بين الأسطورة والإبداع، والزمن ونسيج النغم..

قلت: ما أكثر ما أثرى الكتّاب الأقدمون والمحدثون لغة الأدب والفن والحضارة، وفي كل حديث كان يدور حول تنمية الثقافة والفنون، في مصر والوطن العربي، كانت صورتك تتراءى في خيالي..

قال: أشكرك.. لقد حرصت حينما اختارني جمال عبد الناصر وزيراً للثقافة في زمن الوحدة بين مصر وسورية، أن أوصل للناس، مقولة فيلسوف الحضارة «ول ديورانت» إن الدولة خلقت من أجل الإنسان لا الإنسان من أجل الدولة.

❁ ❁ ❁

لقد كانت حياة ثروت عكاشة، حافلة بالعطاءات، فقد أنجز أكثر من /٢٥/ كتاباً مهماً في تاريخ الحضارة والفنون القديمة والآداب والموسيقى والثقافة الموسوعية العامة، وكانت حياته أيضاً حافلة بالأحداث، بسبب الفترة الزمنية الحسّاسة التي تولى فيها مناصبه ومسؤولياته في عهد جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢م، كسفير أو وزير أو صحفي وكاتب ومفكّر.. لقد كان عندما قامت الثورة في سلاح الفرسان، وشغل بعد ذلك منصب الملحق العسكري في باريس، وكانت فرصته للإحساس بأهمية الثقافة في تكوين شخصية الإنسان، فتوجّه لتدعيم مصر ثقافيّاً، مما لفت الأنظار إليه، ودفع جمال عبد الناصر، لتكليفه بمهمة (وزير الثقافة) بعد أن قال له: «إن مهمتك هي تمهيد المناخ اللازم لإعادة صياغة الوجدان المصري، ولا أخفي عنك أن كل حديث كان يدور حول تنمية الثقافة والفنون في مصر، كان يجعل صورتك ترتسم في خيالي»..

عن هذا اللقاء المهم مع عبد الناصر، يقول الدكتور عكاشة: قلت له أمهلني يومين لأفكر، ولم يمهلني، بل أصدر القرار وأحسست بالمسؤولية الكبيرة، لقد دار في ذهني هموم الوزارة ومسؤوليتها، وأنا لديّ اهتمامات ثقافية، لتدعيم نفسي بها ليس بالثقافة العربية فقط، ولكن ثقافة العالم من التراث العالمي، خصوصاً الشرق الأقصى.. وبدأت العمل في رسم خريطة ثقافية لمصر، تجمع بين حفظ التراث الثقافي والموروثات، وبين الفنون الرفيعة التي نحتاجها لنتواصل مع العالم.. فكّرت كثيراً في آثارنا وضرورة ترميمها وصيانتها وإنشاء المتاحف للتعريف بها، وقمت ما استطعت القيام به في هذا المجال، وأنقذت معبد (أبو سمبل) وآثار النوبة، ومعابد فيلة عند إنشاء السد العالي، وقمت بإنشاء أكاديمية الفنون، وقصور الثقافة في جميع أنحاء مصر وهيئة الكتاب».

ثروت عكاشة في كتبه ودراساته ومؤلفاته الفنيّة، كان يدعو إلى التفكير والتأمل في إنجازات

الإنسان الرائعة عبر العصور- لم يكتب تاريخاً، ولم يهتم برواية الأحداث، بل عرض ظواهر واضحة، مثيرة للدهشة، بأسلوب جذاب وسلس.. لقد كان أعزّ ماحرص عليه في حياته الوظيفيّة، ومسؤولياته الكبيرة أن يحافظ على آثار بلاده ويصونها للأجيال القادمة، فليس ثمة شيء يجمع بين الناس، كما تجمع الثقافة، وليس ثمة شيء يؤلف بينهم كما يؤلف العلم والفن، ففي ظل المحافظة على الثقافة، وفي ظل المحافظة على العلم والفن، تنبعث الغرائز الفاضلة الكامنة، لتتلاقى تحت لواء واحد..

لقد جعل ثروت عكاشة من الثقافة ميداناً خصباً للعمل المشترك بين الناس من أجل الارتقاء بالوعي والفكر والفنون والمعارف إلى مستوى الحضارة التي تركها أجدادنا في عصورهم القديمة، وحاول بكل ما لديه من معرفة وخبرة أن يجعل من الثقافة حقيقة وعقيدة وإيماناً، ويؤكد الثقة في تعاون الإنسان، ويحرص على اتصال المدنيات والحضارات، وإن تباينت البيئات، واختلفت العصور..

نعم، لقد جعل من قضية إنقاذ آثار (أبو سمبل) والنوبة وفيلة، قضية العالم كله.. قضية الفكر والعلم والثقافة والفن، ومن أسهم فيها بشيء فقد أسهم في حفظ تراث قديم له، فيه صوت الماضي، يملي على الحاضر والمستقبل وفيه علمه، وفيه ثقافته، وفيه فنه، وفيه حفظ لجمال، وهو متعة للأجيال، مهما باعدت بينهم عوامل الأرض، وعوامل الزمن..

❁ ❁ ❁

في موسوعة «تاريخ الفن» التي أبدعها المفكر والأديب الكبير ثروت عكاشة، يفيض في رواية الأساطير التي تعقبها إشراقة المعرفة، ويصحبنا إلى حدائق الخيال والحب والبطولة والجمال التي أبدعها علماء وأدباء وعظماء الإغريق وبلاد الرافدين وبلاد وادي النيل وبلاد فارس وحضارتنا العربية الإسلامية، الذين تركوا لنا زاداً من متع الفكر والحسّ والروح، لنرشف منه ما يعيننا على تحمّل قسوة الحياة المعاصرة التي حجبت عنّا جمال الطبيعة وجلالها، فنتعرّف إلى تلك الينابيع الثرّة التي تركتها تلك الحضارات القديمة سلوى لنا ومفخرة للأجيال القادمة.. نطلّ من خلالها على قبس من وهج التراث الإنساني، ونتذوّق بدائع الإنجازات الفنية والأدبية..

الأمثلة كثيرة، نجدها في مجلد «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» الذي يبين فيه أن العبقرية هي الأمر الشائع في اليونان، فلم يحظ شعب بعباقرة بمثل ما حظي به الشعب اليوناني برغم ضآلة عدده، وحسبه أنه كان من العباقرة نحو خمسمئة في قرن واحد.. عاش سكان هذا العالم الصغير على وئام مع بيئتهم بعد أن عمّروها بآلهتهم الذين عاشوا معهم على ألفة مكينة.. إن الكون اليوناني هو أبلغ صورة لوحدة الفكر والعقل معاً..

لقد كان للغة اليونانية تاريخ يسبق الحضارة الهيلينية، ويمتد بعدها، فلقد وجدت اللغة قبل أن توجد تلك الحضارة التي عاشت ثم بادت وبقيت اللغة من بعدها، وحين تعايشتا اختلفتا بقاعاً، فكانت لكل منهما مواطنها.. وكان الرومان هم أعظم الشعوب قاطبة تأثراً بالحضارة الهيلينية، التي كان من أهم ما يميّزها تمجيدها للإنسانية، فرفعت الإنسان إلى مرتبة الآلهة..

في حديثه عن الإغريق يخبرنا ثروت عكاشة أن أوّل معبود دخل إلى اليونان هو زيوس إله السماء وظواهر الطبيعة من مطر وريح، وكان الهيلينيون هم الذين حملوه معهم في مقدمهم إلى اليونان، ثم كانت «ديميترا» إلهة القمح، وهي التي ولدت «كو» أي العذراء، وكانت تسمّى أيضاً «بيرسيفوني» ثم تتالت الآلهة إلهاً بعد إله فكان «بلوتون» أي (الغني) رب المحاصيل الزراعية، وهو الذي اتحدت شخصيته، بشخصيّة الإله «هاديس» أي (الخفي) وهو إله الموتى، ثم كان «هيلوس» الذي يمثّل الشمس وهو إلهها، واليونانيون الذين اتجهوا للشمس وجعلوا منها إلهاً، ولم يفعلوا ذلك مع القمر «سيلين» فلم نر في آثارهم ما يدل على أنهم عبدوه، والناظر إلى أسماء هذه الآلهة يجد أنها ليست يونانية، على العكس من أسماء الآلهة الأخرى مثل «كرونوس» و«أبولو» و«أثينا» التي كانت تحمي معاقل زعماء اليونان الوافدين في العصر «الموكني» السابق على العصر «الهيليني» ومثل «أرتيميس» إلهة الصيد والوضع، وإليها كان يعزى موت النساء فجأة دون أن يشعرن ألماً للموت، ويدل اشتقاق اسمها على ذلك فهو مأخوذ من كلمة «أرتاموس» ومعناها القاتل، والقائلون بأن اسم الإلهة «هيرا» يوناني الأصل، يجعلونه مؤنث كلمة «هيروس» أي (السيد النبيل) وتكون (هيرا) بمعنى السيدة النبيلة، واليونانيون يذهبون إلى أن «آريس» يرجع أصلاً إلى «طراقيا» كما أن اسم «أفروديتي» يمتّ إلى أصل شرقي،

وكذا يذهبون إلى أن «هيغايستوس» مردّه إلى المناطق البركانية في آسيا الصغرى، ومن المسلم به بأن «بان» اسم لإله قطعان الماعز، وأن «موزاي» أي (ربّات الفن) مشتق من كلمة بمعنى الحفز والتشجيع، وما من شك في أن اليونانيين سمّوا بعض آلهتهم بأسماء نقلوها عن ديانات البلاد التي فتحوها في الساحل السوري وغيرها، وكان للديانة السائدة في جزيرة كريت أثرها في معتقدات اليونانيين، من حيث تعدد الآلهة، وتعرضها لما تتعرض له الكائنات الحيّة من شيخوخة وفناء.. ولهذا كله كان ظهور هذه الآلهة التي تحمل أسماء غير يونانية..

ويتابع الدكتور عكاشة وصفه وتحليله الشيّق للديانة الإغريقية التي يراها دائمة التجدد بفضل استيعابها بعض الأفكار الحديثة التي لم تمس أصولها، ومما ساعد على هذا التجدد عدم استنادها إلى كتب مقدّسة، وأن فكرة سيادة القدرية الإلهية على كل شيء، هي الفكرة التي مهّدت الطريق أمام أفلاطون، وإن أنكر مفكرون آخرون وجود سلطة عليا للآلهة، وذهبوا إلى أن هناك سلطة تعلو سلطة الآلهة أطلق عليها اسم «الضرورة أو الحتم» وأطلق عليها «هيرودوت» اسم «القدر» وهي سلطة ليس في مقدور الآلهة نفسها أن تقاومها، أو أن تفلت منها، وقد جمع «أيسخيلوس» بين الضرورة والقدر عندما قال على لسان «بروميثيوس»: (إن زيوس لا يستطيع أن يغيّر من القدر شيئاً لأن القدر ينفّذ مشيئة الضرورة)، وبدأ الناس يخطون على طريق الإيمان بنظام أعلى يخضع له البشر والآلهة معاً، متخلّين عن فكرة اتسام الآلهة بالهوى، دون أن يقضي ذلك على الإيمان بوجود آلهة قريبة من الإنسان، وإن كان هذا الطريق قد أفسح المجال أمام أفكار ونظم جديدة كان لها أبلغ الأثر الدائر فيما بعد..

من يقرأ هذه الكتابات في مؤلفات ثروت عكاشة، يؤمن فعلاً بأن «العين تسمع، والأذن ترى» فلكل اسم عنده قصة وحكاية، ولكل فكرة تعليل واستقراء ودلالة، ولكل فلسفة قوامها المستقى من الواقع والتجربة والقيم الإنسانية.. إنه «مايسترو» الثقافة العربية، التي يراها ضرورة لاغنى عنها من أجل التطور وبناء المستقبل والإنسان..

الجذور اللغوية المشرقية والهندو-أوروبية

فايز مقدسي ✪

هل كل اللغات من أصل واحد ثم تفرعت إلى عدة فروع. أم أنها من أصول متعددة بتعدد اللغات والألسنة؟ هذا البحث يحاول الإجابة عن هذا السؤال إنما فقط فيما يخص لغات المشرق وأوروبة.

على نحو عام يقسم العلماء المختصون اللغات، وبشكل خاص لغات حوض المتوسط المشرقية واللغات الأوروبية، إلى مجموعتين أساسيتين هما: المجموعة المشرقية- المتوسطية التي تضم السومرية والبابلية القديمة (الأكادية والآشورية) والكنعانية - الفينيقية والآرامية والعربية. وهي المجموعة التي جرى العرف أن يُطلق عليها، باستثناء السومرية، اسم /السامية/.

أما المجموعة الثانية فيطلق عليها اسم الهندو- أوروبية. وقد تفرعت عنها في الماضي أكثر لغات أوروبة الحالية. إضافة إلى اللغة الحثية السورية القديمة بفرعيها الميتاني والحوري، حيث إن أكثر المختصين يعتبرها ذات جذور هندو-أوروبية. ومن ثم اللغة السنسكريتية، لغة الهند القديمة، إضافة طبعاً إلى اللغة اليونانية القديمة واللغة اللاتينية القديمة والجرمانية القديمة وبعض اللغات الأخرى.

وهذه اللغات الثلاث الأخيرة تركت أكبر الأثر في لغات أوروبة السائدة اليوم كالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والإنجليزية.

ويستند العلماء في هذا التقسيم إلى مجموعة من المفردات الأساسية المشتركة

✪ شاعر وباحث سوري. باريس.

الجذور. والتي تفرعت عنها فيما بعد مفردات وتراكيب وصيغ اللغات المختلفة التي ذكرناها، وإن اختلفت في اللفظ والكتابة مع الزمن وبسبب تباعد الأقوام الأولى إلى مناطق عديدة ومختلفة من العالم. وهو ما حدث أيضاً لمجموعة اللغات المشرقية -المتوسطية أيضاً التي احتفظت العربية الفصحى وكذلك لغات المخاطبة اليومية الحالية في بلاد الشام والعراق بالكثير من صيغها ومفرداتها واستعمالاتها وعباراتها المأثورة وأمثالها وأغانيها الشعبية كما سوف نرى.

غير أن هذا التقسيم يبقى مجرد احتمال مرجح، وليس موضع ثقة تامة. وهو يتغير مع تعدد الاكتشافات الأثرية- اللغوية التي تتزايد مع الزمن. فحتى النصف الأول من القرن الماضي، وعلى سبيل المثال، لم نكن نعرف شيئاً عن اللغة الكنعانية السورية وآدابها، قبل اكتشاف ألواح مملكة /ماري/ ومملكة /أوغاريت- رأس شمرة/ ومن ثم، وفي وقت لاحق، ألواح مملكة /إيبلا/ في سورية.

والذي يدرس ويبحث في المفردات الأساسية لكل هذه اللغات يجد عدداً ليس بالقليل من القواسم اللغوية المشتركة بين المجموعتين اللتين أشرنا إليهما في مطلع هذه الصفحات. وهو الأمر الذي لم ينتبه له أحد من العلماء الذين اعتبروا أنه ما من علاقة بين اللغات ذات الأصل -الهندو-أوروبي، ولغات منطقة الهلال الخصيب الجغرافية. وهو الأمر الذي سوف نركز عليه في هذا البحث. حيث سوف نرى عدداً لا بأس به من الجذور المشتركة بين المجموعتين. والواقع أن التبادل الذي حدث عبّر التاريخ يدل إما على أصول مشتركة قديمة جداً للمجموعتين. وإما على تبادل حصل عبّر التاريخ نتيجة الحروب والديانات والتجارة والتبادل الثقافي والأسفار، من دون أن ننسى قيام الإمبراطوريات. ومن ثم، وعلى نحو خاص، /العيش المشترك/ الذي صهر كل مجموعات المشرق السكانية في بوتقة ثقافية واحدة ومنذ تاريخ موغل في القدم.

وأكثر المناطق التي ظهرت وانتشرت فيها اللغات التي نتحدث عنها تقع عموماً حول حوض البحر المتوسط وعلى أراضيه الداخلية. أما التبادل الثقافي رغم بعد المناطق الجغرافية عن بعضها البعض فخير مثال عليه اللغة الهندية القديمة / السنسكريتية/ التي نعثر فيها على جذور قريبة من اللغات التي نتحدث عنها. وربما حدث ذلك بفضل انتشار اللغة /الحثية- الميتانية/ السورية القديمة التي يُعتقد

أنها من أصــل هندو-أوروبي من حيث أنها تتشارك مع /السنسكريتية/ ببعض الجذور وتشترك معها في بعض الأسماء الألوهية.

ولإلقــاء الضــوء علــى هــذا الموضوع فسوف نستعرض في الصفحات التالية بعض المفــردات الأساسية التــي تتشابه من حيث الصيغة والصــوت والدلالة في المجموعتين الأساسيتين المشرقية- المتوسطية والهندو-أوروبيــة. وذلك لنرى دقائق ذلــك التبادل اللغوي الذي تمّ عبر التاريخ.

وســوف نبدأ بكلمــة أساسيــة أو جذر هنــدو- أوروبــي قديم هــو: /ليغLEG/. (حرف الجيم وحرف الغين يلفظان كالجيم المصريــة). ويدل هذا الجــذر القديم على /الكلام/. ونعثر في اللغــة الحثية السورية القديمــة علــى صيغة مماثلة تــدل هي / LALA-لالا/. وهــذه الكلمة الحثية تعني لغــة أو كلامــاً. وتشترك مع الجــذر الذي نتحدث عنه بحرف /الــلام/. والمعتقد أن /الجيم/ سقطت من الاستعمال للتخفيف. كما يحدث دائماً عندما تنتقل كلمة من لغة إلى أخرى. أو لعلَّ /الجيم/ كانت تُلفظ ولا تُكتب. وربما كانت الأغنية الشعبية التراثية المعروفــة /عــالا ولا لا/ احتفظــت بهــذا الجذر.

ونشير أيضــاً إلى أن أكــثر الناس اليوم يلفظون /ال/ مكان فعل /قال/. وأن البعض يلفظ الفعل نفسه /قال/ في صيغة /جال/. مما يجعلنا ندور في دائرة الجذر /ليغ/.

كما أننا نعثر على صيغة مقاربة في اللغة المحكية تدل على كــثرة الكلام. فنقول عن شخــص (شو بيلعلع. أو حــاج تلعلع) أي أنه كثير الــكلام. خاصة أن حرف العين يتقابل مــع حرف الألف. مثل فعــل الأمر في اللغة المحكيــة: /تعا-تعال/ الذي يُلفظ في بعض المناطق /تــا/ بتأثير الآراميــة. ومن المثير للانتباه أن القديس السوري الشهير ومؤسس المسيحيــة والــذي نشرها في العــالم بولس الرســول، كان يختتم بعضــ رسائله بعبارة آراميــة هي /أباتا-تــا/ أي (فليأت ملكوت الآب) كمــا نستطيع أن نعــثر على الجذر/ LEG/ في فعل /لج/ في العربية الفصحى، أي، تعثر في الــكلام. وفي عبارة: لسان فيه لجة. أي، ثقل في لفظ الكلمات.

ولقد احتفظــت اللغة اليونانية القديمة بهذا الجذر /ليغ-LEG/ بمعنى الكلام. في عدة صيغ منها /لــوغ-LOG/. ثم حولته مع الزمن إلى صيغة /لوغوس LOGOS/ ودائماً بالمعنى نفسه.

ونرى هنا أن الجذر الأصلي بقي نفسه، بينمــا تنوّع تصويته نتيجة التداول وهو أمر

شائع، وفي كل اللغات وحتى في الأحرف الصحيحة.

وعلى سبيل المثال عندنا عبارة في المحكية السورية هي /شلونو/ والمقصود منها السؤال عن الحال. بينما الاحتمال الأكبر والصحيح أن تكون تحريفاً للعبارة الآرامية /شلومو/، والتي تعني /سلام/ يعني إلقاء التحية. ولقد تبدلت /الميم/ إلى /نون/. وكذلك الأمر في عبارة شائعة مثل / كيفكم/ تحولت الميم فيها إلى نون: كيفكن.

أما بالنسبة إلى السين والشين/ فهما يتبادلان القيمة الصوتية. فاسم السماء في العربية يُكتب وينطق بسين. بينما نراه في البابلية القديمة والكنعانية يُكتب بشين / شم-شامو/.

ونعود إلى الجذر الذي كنّا نتحدث عنه وقد أخذ صيغة /LOGOS/ في اليونانية. وهي صيغة اشتهرت على نحو خاص من خلال أنه تمَّ استعمالها للدلالة على المسيح/ على أنه /كلمة الله LOGOS/في إنجيل /يوحنا/ الذي يبدأ بعبارة «في البدء كانت الكلمة- LOGOS». والسين في اللفظة اليونانية هي لاحقة لا تمسّ شكل الكلمة الأصلي.

فيما بعد نعثر على هذه الكلمة مع سابقة هندو-أوروبية قديمة هي /ديس-DIS/. والتي أصبحت /Dia/ بعد سقوط السين باليونانية، وصارت تعني /التبادل/. فصار التركيب الجديد /DIA-LOG/ أو /ديالوغ-DIALOGE/ يدل على تبادل الكلام بين شخصين أو أكثر. أيّ وبمعنى أوضح: الحوار.

غير أننا لو نقبنا في العربية من حيث أنها ورثت كلّ أخواتها. ونحن نتحدث عن جذر /LEG-ليغ/ والذي يدل كما رأينا على الكلام، لعثرنا على لفظة مماثلة للمفردة الهندو-أوروبية /ليغ/ السالفة الذكر. وهي كلمة /لغة/ العربية التي تدل، وكما لا يجهل أحد، على الكلام، مع أن استعمال هذه المفردة بالعربية للدلالة على الكلام لم يكن شائعاً. وكانت مفردة /لسان/ للدلالة على اللغة هي السائدة. وهو أمر نلاحظه في أقدم لغاتنا القديمة، أيّ، /الأكادية أو الأمورية/ التي كانت تستعمل لفظة /لشانو/ أيّ /لسان/ للدلالة على اللغة. فنقول اللسان العربي واللسان اليوناني للدلالة على اللغة.

وهكذا نجد أن لفظة /ليج أو ليغ-LEG/ الهندو- أوروبية موجودة في العربية، وعلى الشكل اللغوي والصوتي نفسه وبذات الدلالة في جذر /لغ/ ثم /لغة/ مع تاء التأنيث. بينما نلاحظ أن فعل /لغى-يلغو/ الدال على عمل اللغة تحول إلى الدلالة على

من يتكلم من دون أن يوصل المعنى المطلوب. ولكن ربما كان في ماضٍ بعيد يحمل مدلولاً مختلفاً.

ولقد دخلت المفردة/LEG/، وبتصويت وإضافات منوعــة، إلى كل اللغات الأوروبية في شــكل /Lingua/ إلى اللاتينية، ومنها إلى أكــثر اللغات الأوروبية، لتــدل، وفي آن واحد، على اللغة وعلى اللسان.

ونعثر في المفردة اللاتينية على الأصوات الصحيحة الأساسية التي تتألف منها المفردة القديمة/LEG/ مع إضافة حرف النون غير الموجود في الأصل. فيكون الجذر العربي / لغة/ واليوناني /لوغ/ أقرب إلى الأصل. وهو الأصل الذي أعطى فيما بعد مصطلح علم المنطق في الفلسفــة /Logique-لوجيك/ نقلاً عن اليونانية القديمة /LOGIKE/. وأيضاً مصطلح علــم اللغات أو الألسنة: / Linguistique/.

إذا تابعنــا البحــث فســوف نعثر، وفي الدلالة اللغوية ذاتهــا ، على مفردة هندو-أوروبية أخرى في صيغة مختلفة صوتياً هي /فــا-FA/. وهي تدل أيضــاً على التلفظ بالكلام، وعلــى المخاطبة والحوار. ويقابلها في السومرية /كا-KA/. وتُصور في الخط المسمــاري على شكل فمٍ مفتوح للدلالة على الــكلام. ونستطيع أن نعتبر أنه حدث تبادل بين الفاء والكاف نتيجة الانتقال من لغة إلى أخرى. ومن مكان إلى آخــر. ولعلّ الصيغة السومريــة أعطت صيغاً مثل /كلم/ أو تكلم (فتح فمه/وكلام إلخ..) وهي تشترك بالجذر نفسه مع جذر /قلم أو كلم/ وهو اسم القلم بالسومرية ويدل على الكتابة أو اللغة دونما ضجة صوتية.

وقد احتفظت اللاتينية بالمفردة /FA/، وفي الصيغــة نفسها. ومنهــا جاءت كلمة / FABLE-حكاية خرافيــة/ التي كانت في الأصل تــدل على فعل /حكى-يحكي FA/ كمــا دونتهــا اللاتينية فيما بعــد. ومن ثم اشتقت منها صيغة /PARABOLA/ التي حملت المدلول نفسه. ثــم صارت تدل على الأمثال. وأعطــت إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية فعل /PARLER/ أيّ /تكلم/. وحــرف الفاء يقابل حــرف P. وهو المعنى الذي نجــده في الجــذر/FA/ الذي صار فيما بعــد يدل على الذي يحكي حكاية. ثمّ على حكاية خرافية أو أسطورية. ومنه أتت أيضاً الكلمة اللاتينية /FARI/ التي تعني تكلّــم. وربما كان لها علاقة بالكلمة العربية /فــرى/، ومنها فعل /افــترى/ الذي صار يدل علــى الكذب، أو على من يقص حكاية لا تُصدق. كما كان المعنى في الأصل.

كمـا أن اللاتينيـة استخدمت فيما بعد الجـذر نفسـه، وفي صيغة مخففـة، هي / FATUM/ للحصـول علـى الكلمة التي تعني /القدر/. أو المصير. أو ما هو مكتوب ومقدّر علـى الإنسان. وهـو معنى كلمة / مكتوب/ نفسـه في أكثر لغاتنا القديمة وفي العربيـة. أيّ مـا هو مقدّر علـى الإنسان. ونعـثر في البابليـة على لفظة لهـا الدلالة ذاتها وإن اختلفت صيغتها هي /مشيرو/ أي مسيرة الإنسان. المصـير والحكم أو القدر. ولعلّ لاسم /فاطمة/ علاقة باسم /القدر/ باللاتينية الذي ذكرناه /FATUM-فتوم أو فطـوم/، وهو اسم الدلع اليوم لمن اسمها فاطمة. خاصـة وإن اسم فاطمة قريب من صيغـة /تم/ أي اكتمـل. أو /طمّ/ يعني أغلق وانقضـى الأمر. وذلـك لتبادل التاء والطاء.وكلمـة /تم/ تـدل علـى أن ما هو مقدر أو مكتوب قد تمّ تدوينه. أو قد حدث وانقضى.

ولعـلّ اللفظة اللاتينية هـي من أصول مشرقيـة. خاصة وأن فكـرة /القدر/ هي فكرة راسخـة في الفكر المشرقـي القديم. ولعلها دخلت إلى اللاتينية عن طريق التجار السوريـين من مختلف أقطارهم الذين كانوا يسافرون دائمـاً إلى /روما/. والذين نقلوا معهم، وكما يذكر الكاتب الروماني الشهير / جوفينال-JOVUNAL/، عاداتهم ولغتهم وطقوسهـم الدينية إضافة إلى ثقافتهم بكل فروعهـا بحيـث أن الكاتـب المذكور يحتج قائـلاً: «إن نهـر العاصي السـوري أصبح يصب في نهر /التيبر/ في روما».

ولا ننسـى السلالـة السورية من مدينة /حمص/ التـي أعطت عدة أباطرة جلسوا على عرش الإمبراطوريـة الرومانية. وعلى رأس تلك السلالة /جوليا دومنا/ الشهيرة. وهي سلالة أدخلت معها إلى /روما/ الكثير من العبادات والطقوس السورية القديمة.

ثمّ إن سورية الطبيعية، فيما بعد، صارت جزءاً أساسياً مـن الإمبراطورية الرومانية، وعلـى مدى قرون عدة حدث خلالها الكثير من التبادل اللغوي.

ونعثر في المعاجم على لفظة /فطم/ التي تدل على الوقت المحـدد لحدوث شيء ما. أيّ /القدر المكتوب/. أما الدلالة على فطم الرضيـع، (أي إن الوقت المحدد قد حان أو تمّ)، فهـي تأتي في صيغة /فطيم ومفطوم/ وليس في صيغة /فاطمـة/ التي تدل لغوياً على المرأة المرضعـة التي تقرر متى تتوقف عن إرضـاع الرضيع. فكأنها هي التي تقرر قدره وتخطط مسيرة حياته بعد أن كفّ عن الرضاعة.

نلاحظ أن الـذي يكتب قـدر الإنسان

ويقــرر مصيره، أيّ يُطلق حكماً عليه، يطلق عليه في اللاتينية، ودائماً من الجذر القديم نفسه، اسـم /FATA-فاتا/ الذي كان له دلالــة إلهية. ونجد أنه مماثل لفعل /أفتى-يفتــي/ واسم/المفتــي/. أيّ رجـل الديـن (دلالــة علــى السماء) الذي يقــرر ويصدر الأحكام الشرعيــة الدينية. وهكذا نجد أن معنــى الجذر القديم لم يتغير وبقي نفسه في اللاتينية وفي العربية.

ولو نقبنــا قليلاً لوجدنا أن المفردة التي احتفظت بها العربيــة القديمة في صيغة / فاه-تفوه-يتفوه/ تشبه كثــيراً الجذر الذي نتحــدث عنه. وهــو يدل بــدوره على فتح الفم، كما في السومرية، وبالتالي على التفوه بالكلام. ونلاحــظ تشابه فعل /فاه/ تفوه/ وفعل /فتح/ والهاء والحاء يتبادلان في علم الأصوات.

جــذر هندو-أوروبي آخر مشترك هو / DE-دي/. ويــدل في الأصــل على معنى / أعطى/ وتحول في اليونانية إلى/DOSIS/. وفي اللاتينيــة إلى /DONUM/. ومنــه الفرنسية/DONNER/. وكل تلك الصيغ تعني /أعطى/. ونعثر عليه في العربية في فعل /أدى-يؤدي/. أيّ /أعطى/ ما يتوجب عليه. ونجد هــذا الجذر وبمعنى /أعطى/ في اللغة السنسكريتية-الهندوسية في صيغة مماثلــة هــي /DA-دا/.. ونلاحظ أن كل الكلمــات التي ذكرناها تشترك بجذر /D-د/ كما هو الأصل القديم.

ونشــير هنا إلى وجــود صيغة سومرية-بابلية قديمــة هــي /أده-ADE/ وتعني الالتــزام بتأدية ما هــو متوجب نحو المعبد والملك.

الجــذر الهندو-أوروبــي القــديــم / DIEW/ أو /DIW-ديو/ كان يدل أصلاً علــى السماء أو النــور /الشمس والقمر/. وتحــول في اللاتينيــة إلى /DEIVOS/. ومنه، وفيما بعد، اشتقــت اللاتينية صيغة /DEUS/ للدلالة على الاسم الإلهي.

ونعــثر في العربيــة على صيغــة مماثلة للجــذر القديــم /DIW/ هــي /ضوء/ التي تحمــل الدلالة الأولى نفسهــا /النور أو الضوء/. مــن دون أن ننسى تقابل الدال والضاد من الناحية الصوتية.

الجذر الهندو-أوروبي القديم /ECU-أيكو/. ويأتي أيضاً في صيغة /KU/ وكان يدل أصلاً على الحماية والمكان المغلق. ومنه أتت اللفظــة اللاتينية /OBSCURUS/ أي المــكان المغلق. ثم أخــذت اللفظة دلالة الظلام. ثم صارت تدل على ما لا يُرى.

ونجــد ما يقابلهــا في العربية في صيغة /وقــى/ أي حمــى ودافع عــن. وهو معنى

الجـذر الأول كمـا رأينـا. ولا يُعـول على اختلاف التصويـت. والقاف تتقابل صوتياً مع الكاف.

الجـذر الهندو-أوروبـي القـديم / STATO-ستاتـو/ يـدل في الأصل على ما هو منتصب وثابـت. أصبح في اليونانية /STATIKOS/ بالدلالـة نفسهـا. وفي اللاتينية /STATUS/. وأصبحت الدلالة /ما هو كائن وثابت/. ومنه جاء اسم الدولة في لغـات أوروبة من حيـث أن الدولة هي ركيزة ثبـات البلد والشعب. ونجد ما يماثل دلالته الأولى في العربية في صيغة /استوى/ أيّ انتصب واقفاً أو جالساً. أما دلالة الثبات ووجـود قوانـين لا تميز بـين المواطنين في الدولة فنجد ما يماثلها في تعبير /على حد سواء/ وفي صيغة /سواسية/.

الجـذر الهندو-أوروبـي القـديم / WADH-واده/ وكان يعنـي في الأصل / المرور من مكان إلى آخر/.

ومنـه اشتقـت اللاتينيـة فعـل / VADERE/، (حـرف V يقابـل صوتياً حـرفW)، الذي صار يعني مشى- يمشي، أو تنقـل. ونعثر على مـا يقابل هذا الجذر القديم في لغة المخاطبـة اليومية في صيغة تحمل الدلالة نفسها والتصويت نفسه. وهي /ودا-يـودي/ أي قاد شخصـاً أو شيئاً من مـكان إلى آخر. كما نقول اليوم /ودي ابنك عا المدرسة/.

الجـذر الهندو-أوروبـي القـديم / SWPNO-سوبنـو/ كان يـدل في الأصل على /النعاس والاستغراق في التفكير/. وقد دخل إلى اليونانية في صيغة /SUPNOS/ وتقريباً كما هو في الأصل وبالدلالة نفسها. ومنه تمّ اشتقاق مصطلح /HYPNOSE/ أي التنـويم المغناطيسي. ودخل هذا الجذر إلى اللاتينيـة في صيغـة مماثلـة هـي / SOPNUS/ وبالدلالة نفسها على النعاس أو النوم أو الاستغـراق. ومنه دخلت، وعلى سبيل المثـال، كلمة /حلم/ إلى الفرنسية في صيغة /SONGE/ التي تدل بدورها على التأمل في شيء أو في فكرة. ونعثر على ما يقابل هذا الجذر القديم في اللغة الكنعانية نصوص أوغاريت في فعـل /صفن/ ويدل، وكما هـو في المحكية، علـى: تأمل -فكّر- استغـرق. وأخذته الظنـون. فهو يبدو كمن أخذه الكرى أو النـوم. فنكون حصلنا على الصيغـة القديمة نفسها كصـوت ومعنى. وذلك لتبادل حـرفP وحرف الفاء في علم الأصوات.

ونصـل إلى الجـذر الهنـدو- أوروبـي القديم /DMA-دوما/. ويعني في الأصل /صرّ أو طوى أو أحاط/ ونعثر عليه في فعل

/ضَم/ في العربية بالتصويت والمعنى نفسه. والدال والضاد يتقابلان صوتياً. وهناك في السنسكريتية القديمة جذر مماثل هو /DAMA-داما/ ويدل روحياً على السيطرة على النفس. أيّ يضم نفسه ويصونها من التشتت أثناء التأمل الروحي.

الجذر الهندو- أوروبي القديم /ME-مه/، والذي كان يدل على المقياس والحجم. نجد أنه دخل إلى الحثية السورية عن طريق السومرية. ومن ثم إلى اللغات الأخرى. حيث أن صيغة /ME/ هي صيغة شهيرة وأساسية في اللغة السومرية الأسبق من الحثية في المنطقة. وهذه الصيغة تدل في السومرية على الأساس الذي يقوم عليه العمران. والأدب والثقافة والفنون الجميلة. هي المقياس الذي نعتمد عليه في الإنجاز. وهي الأنموذج الأول. وهذا هو معنى القياس. ولقد دخلت هذه الصيغة السومرية الأصل إلى اللاتينية في شكل /ME - NSUS/ من دون أن يتغير معناها. ومنها جاءت أكثر الكلمات الأوروبية التي تدل على القياس، وأشهرها كلمة /متر/ المستعملة حتى اليوم وحتى في العربية. ولتوضيح دلالة هذه الصيغة على القياس ينبغي أن نشير إلى أن كلمة / ME/ السومرية كانت تأتي في بعض الأحيان في صيغة / ME + N/. والكلمة مع حرف النون هنا تدل على /القمر/ أيّ مقياس أو حساب الشهر القمري والسنة القمرية. ومنها اسم القمر بالإنجليزية /MOON/.

ومن المثير للانتباه أن الصيغة التي نتحدث عنها أعطت مصطلحاً حديثاً في اللغات الأوروبية هو /SYMETRIE/ في الهندسة. أيّ التناظر والتقابل.

الجذر الهندو-أوروبي القديم /KL-كل/ يدل على المعبد. نعثر على أصوله في اللغة السومرية في صيغة /E/ وتعني بيت. و/GAL/ وتعني /كبير/.

والصيغة السومرية/E - GAL أيكال/ تعني البيت الكبير أو المعبد. والصيغة السومرية هي أصل كلمة /هيكل/ البابلية كما دخلت إلى العربية وبالمعنى نفسه.

عندنا أيضاً جذر هندو-أوروبي قديم هو في الأصل /WERأو WR- ور/ وهو في الأصل يدل على الكلام. ودخل إلى اليونانية ليدل على المتكلم في صورة /RHETOR/. ثم تحول إلى صيغة /RHETORIKOS/ بمعنى الفصاحة والبلاغة في الكلام.

ومن هذه الصيغة جاء اسم /الفعل-الكلمة/ في اللاتينية /VERBUM/ وفي الفرنسية /VERBE/ وفي الألمانية

/WORT/ وفي الإنجليزية /WORD/. من دون أن ننسى تبادل حرفي W و V.

وعندنا في العربية صيغة مماثلة هي فعل /أورد/. ونقول أورد الخبر. يعني نقل الكلام أو قص الحكاية. يعني تكلم. ونقول /أورد له رأياً/ أي كلمه ونصحه.

ومن المحتمل أن اللغة المحكية الشعبية احتفظت بهذا الجذر، وكما هو في الأصل، في صيغة /ور-ور/ أي تكلم. حيث نقول عن شخص كثير الكلام أنه /بضل بورور/. أو أنه دائماً /ور-ور-ور- ما بيسكت/.

الجذر الهندو- أوروبي القديم / GWIY أو GWYO -جوي/ يدل في الأصل على الحياة. ونرى أنه مشابه للصفة /قوي/. وإذا لفظنا حرف القاف على الطريقة البدوية فإننا نحصل على الكلمة كما هي /جوي/. و/قوي/ في هذه الحال تعني قائماً متماسكاً. أيّ، موجود وحيّ. والصيغة السومرية /GI-N/ التي تدل على الاستقرار والتماسك والوجود.

وهذا الجذر دخل إلى اللاتينية في صيغة /GWIY-TA/. واللاحقة TA التي أضيفت إلى الجذر جاءت من اسم / VITA/ الحياة في اللاتينية لتأكيد المعنى. وهي في هذه الحال تشبه صيغة /TI/ السومرية والتي تعني الحياة.

الجذر الهندو-أوروبي /GHORT- غورت-جورت/ يعني في الأصل /حفرة/ أو مكاناً مغلقاً. أو حظيرة أو حديقة. ومنه الكلمة الشائعة في أكثر اللغات الأوروبية التي تدل اليوم على الحديقة /GARDEN/ من جذر /GA/. وأيضاً كلمة /COUR/ التي تدل على مكان مغلق أو مكان المحكمة أو القصر الملكي. ولو نحن نقبنا لعثرنا على مقابل لهذا الجذر في كلمة /جوره/ التي تعني حفرة في اللغة المحكية. وأيضاً في كلمة /جاكورة/ التي كانت شائعة في المناطق الريفية للدلالة على الحقل- الحديقة. ونكون قد حصلنا على المعنى نفسه ومن دون تغيير يذكر في بنية الجذر. ويمكن أن نشير أيضاً إلى اسم مملكة /أوغاريت/ الذي يدل على الأرض مقابل البحر. وبشكل آخر /الحقل أو الغور/. وكذلك عندنا كلمة /مغارة/ وفعل /غار-يغور/ و/الأغوار/. وكلها تعطي المعنى السابق.

ونعثر في السنسكريتية على صيغة مقاربة هي /GHORA/ وهي تعني أصلاً ما هو مخيف. ولكن لنتذكر أن القبر هو /جورة/ أو حفرة. وهو مخيف.

على هذا النحو نرى أن التبادل الذي حصل عبر التاريخ الطويل بين المجموعتين اللغويتين الأساسيتين: المشرقية- المتوسطية،

والهندو-أوروبية كان كبيراً جداً وغطى مجالات مختلفة ولم يقتصر على سياق واحد.

يبقى أن نذكر أن اللغة الحثية السورية التي اعتبرها العلماء، وكما سبق، هندو أوروبية الأصول قد احتفظت في رأينا بأكثر تلك الأصول اللغوية التي، وكما رأينا، ما زالت قيد الاستعمال في العربية الفصحى وفي اللغة المحكية. ورأينا كيف أن الحثية استعارت مفردات من اللغة السومرية. كما أنها كانت على علاقة شبه يومية مع اللغة البابلية القديمة (الأكادية والآشورية) ومع الكنعانية عن طريق التجاور والتجارة.

ولاشك أن منطقة الفرات العليا (الجزيرة السورية)، حيث كانت عاصمة الإمبراطورية الحثية السورية، قد احتفظت بالكثير من مفردات اللغة الحثية في لغة المخاطبة اليومية وفي الشعر الفراتي.

لذلك فمن الصعب وضع مسافة بين لغة وأخرى. فعلى الرغم من التباعد فهناك الكثير من القواسم المشتركة التي غيّب الزمن أصولها وبدّل فيها ولكنها تدوم وتتنقل من لغة إلى أخرى، وبأسماء مختلفة. وسوف نختتم هذا البحث بإعطاء مثل هذه الديمومة اللغوية التي نتحدث عنها بذكر بعض الأمثلة السومرية التي تعود إلى الألف الثالث ق.م. والتي عثر عليها المنقبون مدونة على ألواح مسمارية. وسوف نرى أنها أمثال لا تزال سائرة، وإلى اليوم، على ألسنة الناس في بلادنا:

المثل السومري: بلا زواج لا نستطيع إنجاب الأولاد. ويقابله المثل الشعبي: اللي بيستحي من بنت عمو ما بيجيب أولاد.

المثل السومري: حتى إذا ألقيناه في الماء فإنه يجعله عكراً. ويقابله المثل الشعبي: حتى إذا راح عالبحر بنشفه.

المثل السومري: ولدتني أمي في يوم نحس. (ويدل على قلة الحظ). ويقابله المثل الشعبي: حظ عطيني وبالبحر رميني. وعكسه: حتى إذا رميته في البحر بيطلع وبإيدو سمكة (دلالة على المحظوظ).

المثل السومري: موت الفقير أفضل من حياته. ويقابله المثل الشعبي نفسه: موت الفقير ولا عيشته. أو: تجوّزوا يا فقرا تا يكتروا الشحادين.

المثل السومري: نهاية الحياة الموت، فاصرف. الحياة طويلة، فاقتصد. ويقابله المثل الشعبي: خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود.

وأخيراً المثل السومري: الذي يعتني بالبستان يعرف كيف يمشي فيه. ويقابله المثل الشعبي: دوسة البستاني ما بتئذي.

المراجع الأساسية بالفرنسية:

١- مغامرة الكتابات. L'aventure des écritures.

تأليف: عدة مختصين بإشراف A-BERTHER وA-ZALI.

٢- الكتابة ذاكرة البشرية. L'écriture mémoire des hommes

تأليف: G-JEAN

٣- الاشتقاق وغرائبه Les curiosités étymologiques.

تأليف: R-GARRVS

٤- مفردات الهندوسية Vocabulaire de l'Hindouisme.

تأليف: J-Varenne و J-Herbert

٥- الجذور اليونانية Les raciness greques

تأليف: A-M-deirieu. و J-Booffartigue

٦- أصل اللغات L'origine des langues.

تأليف: M-Ruhlen

٧- الأمثال الشعبية: الأب يوسف قوشاقجي.

٨- المترادف والمتوارد. الشيخ إبراهيم اليازجي.

٩- المعجم الوسيط.

المراجع الأساسية

1- Les curiosités étymologiques.
2- R. Garrus.

٣- عدة مؤلفون–ABC de L'écriture.

4- Vocabulaire de l'hindouisme.
5- J-Varenne.
6- J-Herbert.
7- Le langage.

٨- عدة مؤلفون، بإشراف: A.Martinet

٩- لسان العرب.

١٠-المعجم الوسيط.

شيء من حياتنا: مرحلة جديدة

د. ملكة أبيض ٭

في هـذه المرحلة الجديدة استمر الوهن العضلـي لدى الشاعـر سليمان في التقدم. ولكننـا تابعنا نشاطنـا في السير اليومي في مشـروع دمر حيـث يقع منزلنـا، مع توفير علاج فيزيائي وتدليك مستديم له لإبطائه. كما أنه انكب علـى العمل الفكري بحماس بالغ، فأصدر أناشيد للأطفال بعنوان «فرح للأطفـال»٢٠٠٦م، وديواناً بعنوان «همسات ريشة متعبة»٢٠٠٧م.

ونـزولاً عند رغبة وزارة الثقافة وجهات خاصـة أخـرى في طباعـة نتاجـه، تابعنا تصنيف مجموعاتـه، فأصدرنا «أنا وحلب»، و«أنـا وساحلنا العربي السـوري»، و«أوراق المشتى» و«أنا ومصر العربية» و«أنا وجزيرتنا العربيـة»، و«دمك الطريـق. عمر المختار» و«أنا والعروبة»، وموجزاً عن حياتنا بعنوان «رحلة كفاح».

إنه نشاط هائل إذا أخذنا بالحسبان أن الشاعر كان في أواخر الثمانينات من العمر، وأن العمل الكتابي لم يكـن النشاط الوحيد الذي يمارسه.

لقـد تمثلت الأنشطـة الثقافية الأخرى التي شارك فيها سليمـان في هذه المرحلة، في المهرجانـات، والاحتفـالات، والدعوات الخاصـة لتقـديم أمسيات شعريـة. وكان يشـارك فيها إمـا بحضـوره الشخصي- بمرافقتـي بالطبـع، أو بإرسـال كلمة إلى الحفل تلقـى بالنيابة عنه، وإمـا بتسجيل كلمة على قرص مدمج يعرض على شاشة أمام الجمهور.

٭ أديبة وأستاذة جامعية.

وأما مشاركاته بحضوره الشخصي، فأذكر منها:

- مشاركته في حفل التكريم الذي أقامته نقابة المعلمين في سورية له وللدكتور شاكر الفحام في ٢٠٠٧/٢/٣م خلال دورة تدريبية أقامتها بهدف التمكين للغة العربية عند المدرّسين.

في ذلك الحفل ألقى كلمة تحدث فيها عن اللغة العربية. ومما قاله فيها:

أعتقُ من الزمن..
وأقدمُ من القدم
لا يدري أحدٌ متى وُلدت
وكيف نشأتْ وترعرعتْ؟
حتى أصبحتْ لغةَ فنٍ وشعرٍ وبيان..
ثم لغةَ تنزيلٍ وقرآن..
ثم لغةَ حضارةٍ استوعبت الفكرَ البشري ذاتَ يوم..
وحملته نقياً، صافياً، عميقاً إلى العالم.
لم تغلق البابَ على نفسها
في يوم من الأيام..
بل أخذتْ وأعطتْ
ما شاءَ لها الأخذُ والعطاء..
تلك هي لغتنا العربية..

في مطلع شبابي هتفتُ هذا الهتاف، هذا البيت الذي تعرفونه:

أمةُ الفتح لن تموتَ..

والآن اسمحوا لي أغيّر العبارة الأولى فقط من البيت.. وأهتف كما هتفتُ في مطلع الشباب:

لغةُ الضاد.. لن تموتَ وإني
أتحداك باسمها يا فناءُ.

وهناك نشاط لا يمكن أن ننساه جرى في محافظة حمص. فقد قررتْ المحافظة في مهرجانها السنوي المسمى «مهرجان القلعة والوادي» تكريم الشاعر سليمان العيسى في دورته لعام ٢٠٠٧م، واختارت لهذا التكريم بلدة «رباح» الجبلية الجميلة، ولإقامتنا «فندق فرنسيس» في «عمار الحصن» لقربه منها وتوافر وسائل المتعة والاستجمام فيه.

ولن ننسى أبداً استقبالنا في البلدة حين وصولنا إليها، ولا سيما فرقة الكشافة التي راحت تعزف وتغني أناشيد وطنية بأصوات جميلة وألحان رائعة، على السطح الفسيح المشرف على وديان المنطقة من جهاته الأربع. فقد امتلأ المكان، لا بأهل البلدة فحسب، بل بأهالي القرى المجاورة الذين وفدوا إليها أيضاً، وراح الجميع يهتفون للشاعر ويرحبون به. ثم أُلقيت كلمات عديدة شارك فيها أساتذة من جامعة البعث، وممثلون عن المنطقة، واختتمها سليمان بقصيدة لطيفة قال فيها تحت عنوان، أمسية في رباح:

لم أزرها قبلُ.. هذي الحلوةَ الخضراء

سَمُّوها، رَبَاحْ..
لم تَزُرْها..
قال لي عِطْرُ الأقاحْ
أومأتْ لي
دفقةُ الشمسِ على خدِّ الصَّباحْ..

لم تَزُرْها قبلُ..
لكنكَ في أشواقِها، في بالِها
في زغاريدِ صباياها..
وفي أطفالِها..
قيل لي إنكَ من أطفالِها

عُدْ إلى جمرتِكَ الأولى
إلى فَجرِ الوَميضِ العربي..
وافتتحْ أمسيةَ الحُبِّ، وأنشِدْ في رباحْ

بعد ذلك، رأينا على التلفاز تعليقاً مفاده أن سليمان العيسى يواجه صعوبة في المشي، ولكنه يلقي الشعر بصوت هادر.

في اليوم التالي كنَّا على موعد مع **حفل تكريم آخر، أقيم في كنيسة «المشتى»**. كان شبان من هذا المصيف الجبلي الرائع قد جمعوا القصائد الفصحى والزجلية التي كتبها سليمان في بلدتهم، وطبعوها في كتاب بعنوان «أوراق المشتى»، وطلبوا منه توقيع هذا الكتاب خلال الحفل.

لقد ألقى رأس الكنيسة (الخوري) كلمة الترحيب، وذكَّر أحد متكلمي الحفل الشاعر بلقائه الأول معه منذ حوالي خمسة وأربعين عاماً، حين كان الشاعر يصطاف مع عائلته في المشتى. وصدف أنه كان يتنزه مع زوجته (أي معي) ذات مساء على الطريق العام بين المشتى والكفرون فصادف شباناً جالسين أمام منزلهم، كعادة أهل تلك المنطقة في أمسيات الصيف، وهم يغنون أغنية شعبية يعزفها أحدهم على العود، فجلس بينهم. هو وزوجته. وراح يغني معهم.

ثم سأله: هل تعرف الشخص الذي كان يعزف على العود آنذاك؟ إنه أنا! وأنا سعيد بأن ألتقيك اليوم، فأنت واحد منا.

هذا الحفل، وهذا الجو الودي الحميم الذي ساده يمثل تظاهرة فريدة تدل على أجواء الانفتاح والتسامح الذي يتميز به الشعب السوري، بحيث لا يُستغرب أن يجري فيه تكريم شاعر مسلم في كنيسة مسيحية، والترحيب به بهذه الحفاوة الاستثنائية.

وحين أراجع كتاب «كي أبقى مع الكلمة» لسليمان العيسى[1] أرى أنه شارك في تلك الفترة أيضاً في **حفل الذكرى الأربعينية الذي أقيم للشاعر محمود درويش في المكتبة** الوطنية بدمشق.

وقد اعتلى المنصة حينئذ مع كرسيه المتحرك، وألقى كلمة مُطلقاً على الشاعر

تسمية «سمفونية فلسطين»، ومُذكِّراً بعبارته الشهيرة «سَجِّل.. أنا عربي» التي قالها بعد أن فقد بيته، وقريته، وصدر أمه، وقهوة أمه.. كما ذكّر بأبيات له تقول:

«وطني يُعلِّمني حديدُ سَلاسلي

عنفَ النسور، ورقة المتفائل

ما كنتُ أعرف أن تحت جلودنا

ميلادَ عاصفة، وعُرسَ جداولِ،»

ثم أهداه قصيدة طويلة بعنوان: الفلسطيني الطائر.

كما أرى أن نحاتاً سورياً شاباً اسمه إياد البلال، صنع له تمثالاً وأهداه إياه. فما كان من الشاعر سليمان إلا أن كتب شعراً ونثراً مقطوعتين، عَنْوَنَ الشعرية منهما «قصيدة الحجر» وقال فيها:

أكتبُ شعراً ريشُهُ من كلامْ

يحملني فوق هضاب الغمامْ

أشعرُ أني قد عصرتُ السما

في قبضتي..

أصحو.. وكفي حُطامْ

يكتبُني قصيدةً من حَجَرْ

ما لامَسَتْ قَطُّ شفاهَ الوَتَرْ

لكنها..

أخلدُ من كلِّ ما

قلتُ فقد غرَّدَ فيها الحَجَرْ

ومن هذه المشاركات أيضاً مهرجان شوقي وحافظ في القاهرة في ت٢/٢٠٠٧م، ذلك المهرجان الذي كانت له فيه أكثر من مشاركة.

لقد كُلِّف إلقاء كلمة الافتتاح، كما ألقى كلمته الخاصة في جلسة أخرى. وحين انتقل الجميع إلى منزل شوقي «كرمة ابن هانئ» وألقوا قصائدهم هناك، وافق على إلقاء قصيدة؛ مع اتخاذ ترتيبات بسيطة بالطبع كوضع منضدة وكرسي لإلقاء الكلمتين، ومساعدته للوقوف أمام الميكروفون لإلقاء القصيدة.

ومن الطريف في هذا المهرجان أن بعض الشعراء الشبان انتقدوا هيمنة الشعراء المسنين (أصحاب الشعر الأبيض) على المهرجان، إلا أنهم أكدوا أن نجمه كان سليمان العيسى لمشاركاته العديدة، ووقوفه في حفل الختام مع شاعر مصر أحمد عبد المعطي حجازي يرددان مع الفرقة قصيدة:

وقف الناس ينظرون جميعاً

كيف أبني قواعد المجد وحدي

لحافظ إبراهيم.

كما أنه تابع نشاطه الفكري، فصنَّف كتابين هما «أنا والطبيعة»، «أنا ودمشق» بمناسبة إعلان دمشق عاصمة ثقافية للوطن العربي.

-٢-

في عام ٢٠٠٨م أحس سليمان تراجعاً في قدرته على الحركة حتى إنه قال في مطلعه أبياتاً للاعتذار عن عدم تمكنه من النهوض لتحية الضيوف الذين يأتون لزيارته:

أحُومُ في الآفاق شرقاً ومغربا
وأعطي خيالي في السماوات مَضربا
ويَعجزُ جسمي أن يقوم مُسلِّماً
على الضيف، إما زارني، ومُرَحِّبا
فأهلاً وسهلاً بالأحبة واعذروا
جَناحي إذا ثقلُ السنين به كَبا

على أنه عكف هذا العام على كتابة الكثير من الأناشيد للأطفال ولا سيما للمجلتين اللبنانيتين «أحمد» و«توتة» اللتين تصدران عن دار الحدائق ببيروت.

وبناء على طلب دار الحدائق، و«مجلة دبي الثقافية» صنَّف أناشيده التي كتبها لقصص الأطفال التي ترجمناها عن الفرنسية والإنجليزية في كتابين صدر الأول «حدائق الكلمات» عن دار الحدائق ببيروت ٢٠٠٩م، والثاني «أراجيح تغني للأطفال» عن مجلة دبي الثقافية، ووُزِّع مجاناً مع عدد تموز ٢٠٠٩م أيضاً.

كما أنه لم يتوقف عن المشاركة في النشاط الثقافي داخل سورية وخارجها.

ومن مشاركاته داخل سورية، تقديم أمسية شعرية بطرطوس، وإلقاء كلمة في جامعة البعث بحمص مع توقيع كتابه «همسات ريشة متعبة»، وحضور حفل تكريم بجبلة أقامه معهد النبراس الخاص فيها. ولابد من التنويه بأن هذا الحفل تضمن معرض رسوم للتلاميذ حول موضوعات أناشيد سليمان العيسى للأطفال.

وفي مهرجان لإحياء ذكرى الشاعر محمد حمدان الخيّر باللاذقية، شارك سليمان في الحفل الخطابي الذي أقيم في المركز الثقافي، وكتب كلمة في كازينو اللاذقية الذي نزل فيه تنويهاً بتاريخ هذا الفندق.

ثم توجَّه برفقتي لقضاء يومين في فندق «فرنسيس» في قرية عمار الحصن. ولهذا الفندق - بالمناسبة - مكانة خاصة في نفسنا، لأننا اعتدنا منذ فترة قضاء بعض الوقت فيه خلال الصيف، بعد أن أصبح من الصعب على سليمان السفر إلى أماكن بعيدة للاستجمام. وهو يمتاز بموقعه الرائع في أعلى جبال المنطقة، ويطل على سهولها وغاباتها الخضراء، وعلى البحيرة التي شكَّلها أحد السدود المقامة هناك.

أضف إلى ذلك أنه موقع متوسط يتيح لنا التنقل بين بلدات المنطقة:

المشتى التي كتب فيها سليمان ديواناً، بعنوان «أوراق المشتى»، والكفرون، ومرمريتا، ورباح؛ ومنتزهاتها، ولا سيما النبع الفوّار الذي قال فيه أكثر من قصيدة. وبهذه المناسبة أقامت له المنطقة حفل تكريم في بلدة «الزويتينة» شارك فيه عدد كبير من شعرائها، وألقى فيها قصيدة بعنوان «هذي الذرا»، يقول فيها:

أنا ضائعٌ بين الخمائلْ
بين العرائشِ والجداولْ
والنبعِ، أعني، نبعنا الفوّارِ، ألتهمُ الفتنْ
هذي الذُرا.. فرّت من الفردوسِ،
صارت لي وَطَنْ..
من ذروةِ «فرنسيس» يلقفُني الجمالُ براحتيهِ
ويَرُشُّني فوقَ الهضابِ
صوراً.. كأجنحةِ السحابِ
نَغَماً يضيعُ العودُ والعَوّادُ سحراً في يديهِ..
السندسُ المُوّارُ في عينيكَ
في السفحِ المجاورْ
وقصيدةُ الوادي
ويصدحُ ألفُ شاعرةٍ وشاعرْ
ويقول لي «الفوّار» أهلاً بالطفولةِ، أنتَ منّا،
أيُّ دنيا حالِمَةْ..
نزلتْ هنا..

-٣-

في ٢٠٠٩ و٢٠١٠م يتقدم الوهن العضلي خطوة أخرى وتضعف الحركة حتى نضطر إلى الاقتصار على السير داخل حديقة سكننا، مع استعمال المشاية ذات المقعد الصغير أو الكرسي المتحرك، وعلى ارتياد بعض المطاعم أو المقاهي المقامة على سطح الأرض من حين لآخر.

يقول سليمان في ذلك، تحت عنوان «هَدَّني العمر»:

أجل هَدَّني العمرُ، حتى ارتميتُ
حُطاماً على قَدَمٍ عاثرةْ
وما زلتُ أعطي بقايا حُطامي
لِكُلِّ يدٍ غضَّةٍ عابرةْ
وأحيا بنبضِ الشبابِ الذي
أرى فيه أحلاميَ الناضرةْ

ويقول تحت عنوان «والآن!»:

تقلّصت بانزياح العمرِ مملكتي..
حتى غدتْ عُشَّ عصفورٍ
ومتكأ.
وكنتُ أُطلِقُ خيلي في أعنَّتِها
والآن..
لا غُلَّةً أروي ولا ظمأ.

لقد كان لسليمان داخل المنزل مكان محدد «عشّ عصفور» على أريكة، تحدّه وسائد من الخلف والجانبين لإبقاء ظهره مستقيماً أثناء الجلوس. وكان يستطيع البقاء

بعض الوقت في هذا الوضع، يقرأ، أو يكتب، أو يشاركني لعبة ورق بسيطة تساعده على الاستمرار في تحريك أصابعه. كما كنت أخصِّص له وقتاً، نجلسه فيه على الكرسي المتحرك ونسير به في أرجاء المنزل.

وما كان يدخِلُ السرور إلى قلبي هو هذا التواصل المستمر بيني وبينه حين أدفع كرسيَّه، ونقوم معاً بمسيرة يومية عبر المساحات الفارغة في المنزل، ونحن نتحدث في مختلف الشؤون التي تهمُّنا، ونجلس أخيراً إلى التلفاز، نتابع الأخبار أو أحد البرامج الثقافية. فذهنه الحيّ المتوقد، وذاكرتُه الصافية، واستعداده الدائم للمشاركة والتفاعل مع الآخرين، وكل ما يكوِّن شخصية سليمان العيسى بقي هو.. هو.. لم يتغير.

وبقيَ يعبِّر عن كل ذلك بأسلوبه المعهود شعراً ونثراً، وإن كانت النصوص التي كان يقولها أو يكتبها أو يمليها أصبحت أقصر وأبسط من ذي قبل. حتى إنه أعطى ديوانه الأخير عنوان «قطرات»، وقال في مقدمته:

وهذه قَطَراتي
وكُنَّ قبلُ سيولا
أهدهدُ العمرَ فيها
أمُدُّ ظلّي قليلا
أحاوِرُ المتنبي
أرتدُّ عنه كليلا
لقد عصاني يراعٌ
غزا بيَ المستحيلا
سَكَتُّ لملمتُ جرحي
تمتمتُ: صبراً جميلا
ما دامَ في العرقِ نبضٌ
فلنْ أكونَ بخيلا
يا جمرةً حمّلتني
إلى النشيد رسولا
زال الزوال وعاشت
لم تستطعْ أن تزولا(٢)

ومع ذلك فقد صَدَرَ له في هذه الفترة ديوان «كي أبقى مع الكلمة» ٢٠٠٩م، وهو مجموعة من الشعر والنثر، وكتاب نثري بعنوان «مدن وأسفار» ٢٠٠٩م.

كما صنفنا معاً في هذه الفترة «أنا والقدس» ٢٠٠٩م، بمناسبة إعلان القدس عاصمة ثقافية للوطن العربي، و«ديوان العراق» ٢٠١٠م، و«أنا والأصدقاء» ٢٠١٠م وهو مجموعة من الذكريات المكتوبة حول الأصدقاء الغائبين والحاضرين.

ولماذا لا أذكر هنا الاحتفال الضخم الذي أقامه اتحاد الكتاب في لواء الإسكندرونة في قريته النعيرية، ومدينة أنطاكية في شباط ٢٠١٠م؟

كان هذا الاتحاد الذي يسمى «اتحاد الكتّاب الأتراك»، ولكنه يضم مجموعة كبيرة

من المثقفين العرب هناك، قد أقام في العام السابق احتفالاً في قرية النعيرية، دعا إليه وفوداً من عدد من الأقطار العربية لتكريم الشاعر سليمان العيسى في مسقط رأسه. ولكن سليمان اعتذر عن الحضور لظروفه الصحية. وقد سمح الأتراك بانعقاده يومئذ لأن العلاقات السورية- التركية كانت في أحسن أحوالها. ولابد من الإشارة إلى أن صحيفة ٢٦سبتمبر اليمنية عَنْوَنت تقريرها عن الاحتفال: سليمان العيسى سحابة تُظَلِّل لواء الإسكندرونة.

في العام الثاني أقيم الاحتفال -من جديد- في النعيرية وأنطاكية في الفترة نفسها، ودعي سليمان إليه. فاعتذر هذه المرّة أيضاً عن الحضور، ولكنه أرسل للمنظمين تسجيلاً تلفزيونياً يتحدث فيه عن قريته، وعن اللواء، وخَتَمه بقصيدة عنوانها باقون في أنطاكية، مهداة إلى صديقه الدكتور حيدر اليازجي- ابن البلد. الذي زار اللواء آنئذ، يقول فيها:

إسفحْ خيالَكَ.. في الذُّرا
في السهلِ..
أخضرَ.. أخضرا
اسفَحْهُ في أنطاكيةْ
أهلي وأهلُكَ يبدَؤون العُرسَ
في أنطاكيةْ..
هذي منابتُنا التي
حَفَرَتْ طُفولتَنا على خدِّ البنفسجِ..
والضفافِ الغاليةْ..

* * *

سَلِّمْ على أهلي...
وأهلِكَ.. يا صديقي!
كلُّهم باقونَ..
مثلَ جذورِ أشجارِ الصَّنوبرِ..
في الهضابِ العاليةْ
باقونَ في أنطاكيةْ

ظنَّ سليمان أنهم لن يَعْرِضوا الكلمة في الحفل، لأنها لا تعترف بالوجود التركي، ولكنهم سمحوا بها. ألم أقل إن العلاقات السورية- التركية كانت في أحسنِ أحوالها؟ وإن اتحاد الكتاب في أنطاكية يضم المثقفين العرب في اللواء، وعلى رأسه محمد قره صو، وهو من أهل اللواء العرب، ولكن الأتراك غيَّروا كنيته، كما فعلوا مع جميع العرب هناك لإحكام عملية التتريك. في رأيهم؟

أقيم الحفلان بشكل جميل، وألقيت كلماتٌ عديدة بالعربية بعد أن كان المحتلُّ التركي يحرِّم استخدامها تحريماً قاطعاً، وقرر المحتفلون جعل منزل سليمان العيسى في النعيرية مركزاً ثقافياً عربياً، يُمِدُّه اتحاد الكتاب العرب في دمشق بما يحتاج إليه من كتب ومجلات عربية؛ كما أخذ محمد

قره صو على عاتقه ترجمة كتاب لسليمان العيسى إلى التركية. وقد ترجم الكتاب فعلاً في العام نفسه، بمساعدة «سها قياق» الصبية اللوائية التي تتقن العربية والتركية، واحتوى مقدمة بقلم محمد قره صو، وعدداً من القصائد التي يضمها كتاب «النعيرية قريتي» لسليمان وفيها: وفاء لأبي، وداري، ودفنة، إضافة إلى مدرسة العفّان، ومقام الخضر، وقصة وائل يبحث عن وطنه الكبير، ورسالة سليمان إلى حفل النعيرية، وكلمات المشاركين في الحفل.

لقد أنجز الكتاب بمشاركة رابطة الثقافة بأنطاكية، ورابطة الثقافة الأنطاكية بمدينة «آلن» الألمانية، تكريماً للشاعر، وطبعت منه ٢٠٠٠ نسخة وزعت على نطاق واسع بين أبناء اللواء وغيرهم. وكانت هناك مشاريع لاحتفالات وكتب أخرى، ولكن الظروف تغيَّرت في العام التالي.

في هذه الفترة أيضاً، **أقام اتحاد الكتّاب في لبنان مهرجانه الأول للشعر العربي**، ووزّع نشاطه على ثلاثة أيام في مناطق ثلاث: الشمال، وبيروت، والجنوب، دعماً للوحدة الوطنية، ودعا سليمان العيسى بالحاح للمشاركة في هذا النشاط. الا أن سليمان طلب الاكتفاء بالحضور إلى بيروت للصعوبة التي يعانيها في الانتقال بالسيارة من مكان إلى آخر. ولكنه حين وصل إلى بيروت وحضر حفل التكريم الذي أقيم له، قرر الانتقال مع الوفود إلى الجنوب للتعرف إلى بقعة عزيزة من الوطن وقفت في وجه العدو الصهيوني وقفة رائعة. وقد ذهبنا فعلاً إلى الجنوب وألقى سليمان هناك بعضاً من شعره الذي قاله فيه، على الرغم من وعورة الطريق والصعوبات التي عاناها في الوصول إلى مكان الاحتفال والعودة إلى بيروت.

وفي هذا العام أيضاً، دُعي سليمان للمشاركة في النشاط الثقافي الذي أقيم بمناسبة معرض الكتاب في **مكتبة الأسد** بدمشق. فقدم أمسية شعرية بهذه المناسبة، ووقّع كتابه «فرح للأطفال» بحضور جماهيري واسع.

-٤-

ماذا أذكر عن العام ٢٠١٠م أيضاً؟

لابد أن أذكر أنه إلى جانب النشاط العارم الذي تميّز به، حَصَلتْ خلاله أحداث سعيدة: منها أن صديقه الفنان الدكتور حيدر يازجي رسم له لوحة رائعة. لقد بدأ الفنان عمله برسم مخطط أولي، ثم غاب مدة، فعاتبه سليمان بقصيدة مازحة يقول فيها:

هل كان وجهي مستحيلاً على
ريشتك المبدعة القادرة؟...
مكانها في بيتنا شاغرْ
متى نغطّي البقعة الشاغرة؟

فلم تتأخــر اللوحــة في الوصول. وكان الشاعر قد أعدَّ لها قصيدة أخرى تقول:

ريشةُ المُبدعِ هذي.. أم أنا؟
أم كلانا.. قد صَهَرْنا الزَّمنا؟..
أنا في ريشته.. قافيةٌ
أسكرتْ جيلاً وهزّتْ وطنا
وهو لوّنْ دقَّ حتى خِلْتُهُ
ينسجُ الروعةَ لي والفِتَنا..
هذه قُبّعتي..
هذي يدي
وكِتابي.. وحديثُ بيننا
شاليَ الأبيضُ ما أروعَهُ
شفّ حتى صارَ ضوءاً لَيِّنا..

ثم أردفها بمقطوعة أخرى، لأن اللوحة حازت على إعجاب شديد، وتغطية إعلامية واسعة.

وهنـاك حدث آخر شديـد الأهمية لنا وهـو الذكرى الستون لزواجنـا. لقد خلَّدها سليمان بمقطوعتين شعريتين كُتبتا في اليوم نفسه١٧/٩/٢٠١٠م. تقول الأولى:

ستّون من عمرنا مرّتْ
كوشوشة
من نسمة عَبَرتْ
من خاطر شردا
ستّون.. أرمي ورائي الطرفَ في دعة
فلا أرى غيرَ أشواقٍ ورجعِ صدى
كنا نغذُّ إلى المجهول خطوتنا
ولو تَهاوتْ رؤانا كلُّها بَدَدا
يا لحظةً..
أوجزتْ عمراً..
سأتركها
تمشي على ريشتي
أرجوحةً وندى

وبهـذه المناسبـة العزيـزة اجتمعنا مع أصدقائنـا المقربين في منتزه «ضوء القمر»، وقـرأ سليمـان في هذه الأمسيـة الحميمة مقطوعة بعنوان «في ضوء القمر»، تقول:

نتلاقى..
تحت أهداب القمرْ
تقفُ الستون في ضوء القمرْ
أيها العمرُ الذي مَرّ
ابتسمْ
كنتَ عمراً مَرّ أم حُلماً عَبَرْ؟!
لا تسلْني..
لستُ أدري.. لا ولا
هي تدري
نسيَ الدربَ السَّفَرْ
كنْ كما شئتَ..

ودّعنا ها هنا

نبدأ الرحلة في «ضوء القمر»!

لقد كان عام ٢٠١٠م شديد السخاء، نعمنا فيه بحياة غنية ممتعة داخل المنزل وخارجه. ولعلّ المنزل نفسه كان إحدى النعم التي عملنا على توفيرها لأنفسنا في شيخوختنا.

فبيتُنا في هذه المرحلة من حياتنا، كما يقول سليمان:

تسكبُ الشمسُ من قواريرها
الصُّفرِ عليه ما شاء منها السخاءُ
وأنا حيثما نظرتُ من الشبّاكِ
لاحت حديقةٌ غنّاءُ
لي عزاءٌ ومتعةٌ في قراري
إن تَضِقْ بي دنيا وبئسَ العزاءُ

* * *

والعصافيرُ على شَبّاكنا
وعلى أشجارنا الخضر رفوفْ
صاعداتٌ هابطاتٌ تملأ الجوّ حياةْ..

وقمة قاسيون تشكل خلفية ساحرة لهذه المناظر الخلابة...

على أن العام التالي ٢٠١١م لم يكن كذلك.

فقد راح التراجع الصحي يضيّق عليه الخناق، وأصبحت الحركة لديه أكثر صعوبة، والكتابة شبه مستحيلة، وتناول الطعام والشراب يحتاج إلى مساعدة وينبغي أن يقتصر على المأكولات الطرية سهلة البلع. وكنا نحاول تسيير الأمور على الرغم من ذلك بتقديم المساعدة.

وحين انتهى العام، أصيب بالتهاب رئوي شديد أدخله المستشفى.

قد يقال إن «الشيء» الذي تتحدث عنه هذه الصفحات يدور حول سليمان العيسى وحده بالدرجة الأولى، وهذا صحيح. فالعناية بصحته، وتمكين موهبته من متابعة عطائها كان همنا الأول في هذه المرحلة.

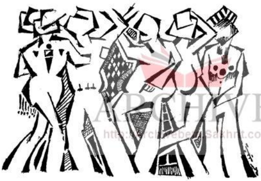
أرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك.

الهوامش

١- سليمان العيسى، كي أبقى مع الكلمة، الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.
٢- سليمان العيسى، قطرات، دار جداول، بيروت، تحت الطبع.

الجندر أو النوع الاجتماعي

د. محمد قاسم عبد الله ✿



ماذا يعني أن يكون الإنسان رجلاً؟ وماذا يعني أن يكون امرأة؟

قد يرتبط الأمر للوهلة الأولى بالخصائص الجسمية والبيولوجية للذكر والأنثى. إلا أن بعض الناس (ذكوراً وإناثاً) يعتقدون أنهم ولدوا بالأجسام الخطأ من الوجهة النفسية والاجتماعية. ونسمع كثيراً عن أناس (ذكوراً وإناثاً) الذين ينتقلون إلى الجنس الآخر بعملية جراحية. إلا أن الأمر تجاوز مسألة «هو» الذي تحول إلى «هي» والعكس. فالجنس والجنوسة ليس أمراً مقدراً منذ الولادة من هذه الوجهة، لأننا نحن نسهم في صنعه خلال حياتنا الاجتماعية.

ماذا تعرف عن الجندر؟

الجنس البيولوجي، الجنس الاجتماعي،

✿ أستاذ الصحة النفسية وعميد كلية التربية بجامعة حلب.

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الدور الاجتماعي، النوع الاجتماعي.....

هناك غموض يحيط بالمفهوم، كما يرتبط في أذهان النساء بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل.

- الجندرgender مصطلح لايعني الجنس sex. الجنس يشير إلى الاختلافات البيولوجية العضوية ويستخدم في التعداد الإحصائي. أما الجندر فهو المسؤوليات والأدوار الخاصة بكل من الرجل والمرأة.

- الجندر مصطلح لغوي أصبح نظرية وأيديولوجية وحركة نسوية.

- اللفظ يعني الجنس من حيث ذكر وأنثى، لكنه تطور ليعني الأدوار والمسؤوليات لكل من الرجل والمرأة.

- تناول المفهوم استغلال الرجل للمرأة وبرز كشكل من أشكال الصراع.

- دخل مصطلح الجندر إلى العالم العربي والإسلامي مع وثيقة مؤتمر القاهرة للسكان عام ١٩٩٤م، وذكر ٥١ مرة، ليدل على تحطيم التفرقة الجندرية.

- ظهر مرة ثانية عام ١٩٩٥م في مؤتمر بكين وذكر ٢٣٣ مرة، واستخدم دون تعريف، The non definition of the term gender

- ذكر في وثائق مؤتمر روما عام ١٩٩٨م واستخدم لتجريم القوانين التي تعاقب الشذوذ الجنسي.

بعض التعريفات:

- تعريف منظمة الصحة العالمية:

«يفيد مصطلح الجندر في وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات مركبة اجتماعية، لاعلاقة لها بالاختلافات العضوية والبيولوجية».

- تعريف الموسوعة البريطانية:

«هي شعور الإنسان بنفسه كذكر أو أنثى، والهوية الجندرية تتوافق مع الخصائص العضوية في الغالب، وهناك حالات قليلة لاتتوافق فيها الصفات العضوية مع الهوية الجندرية أي شعوره بالذكورة والأنوثة».

يجب التمييز بين الجنس والجنوسة أو الجندر:

المفاهيم الأساسية:

الجنس/ النوع sex: هو الاختلافات في الصفة التشريحية التي تميز الرجال عن النساء. والغالب أن يقابل العلماء بين الجنس والنوع. ويشير مصطلح الجنس إلى الخصائص الفيزيقية للجسد، أما **النوع** فيشير إلى أشكال السلوك المكتسبة اجتماعياً.

أوجه التباين **الجنسية والنوعية** ليست شيئاً واحداً، فالمخنث مثلاً، هو شخص

يصنف فيزيقياً جسمياً باعتباره رجلاً ولكنه يؤدي الدور النوعي للمرأة.

الجندر (الجنوسة) gender: هي التوقعات الاجتماعية حول السلوك الذي يعتبر مناسباً للأفراد من الجنسين. ولاتشير الجنوسة إلى الخصائص البدنية التي يختلف فيها الرجال والنساء، بل إلى السمات التي وضعها وأسبغها المجتمع على الرجولة والأنوثة. وأصبحت الموضوعات المرتبطة بالجنوسة أو الجندر من أهم الموضوعات التي يبحثها علماء النفس والاجتماع في الآونة الأخيرة.

- أكبر الفروق الجنسية السيكولوجية في البشر هي تلك التي تحدث في هوية الجنوسة المركزية (شعور الفرد بنفسه كذكر أو كأنثى والذي يسمى هوية الجنوسة)، والميول الجنسية (الانجذاب الجسدي والاهتمام بالشريك التزاوجي من الجنس نفسه أو الآخر).

- أغلب الناس لديهم هوية جنوسة مركزية متوافقة مع جنسهم الوراثي، وميول جنسية تجاه الجنس الآخر المخالف له، ولكن هذا لاينطبق على الجميع.

- بالنسبة **لهوية الجنوسة المركزية**، بينت دراسات الأطباء النفسيين الأمريكيين أن واحداً من كل ٣٠ ألف رجل، و واحدة من كل ١٠٠ ألف امرأة يسعيان للتدخل الجراحي لتبديل الجنس. فاضطرابات هوية الجنوسة gender identity disorder أي لديهم رغبة قوية في أن يصبحوا من الجنس الآخر.

- بالنسبة **للميول الجنسية** تبين أن ٩٠٪ من الرجال مغايري التزاوج heterosexualأي تتجه ميولهم الجنسية نحو النساء، وأن ٩٥٪ من النساء تتجه ميولهم الجنسية نحو الرجال. وأن ٢-٦٪ من الرجال لهم علاقات مثلية.

من التعريفات المختلفة نلاحظ مايلي:

١- يتم دفع الأطفال وتربيتهم من الصغر بطريقة منتظمة إلى دور جندري (جنوسي) كما نسميه ذكر وأنثى (كدور).

٢- تقويم وضع المرأة في المجتمع في ضوء الرجل، حيث يتم مناقشة وضعها في مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية.

٣- الأدوار التي يقوم بها الجنسان هي أدوار تشكلها التنشئة الاجتماعية. وليس الاختلاف البيولوجي. فالأدوار الجندرية متبادلة حيث يمكن للرجل أن يقوم بأدوار المرأة والعكس.

٤- تم تقسيم العمل وفقاً للجندر، ويرتبط بذلك علاقة الدور بالسيطرة.

٥- دفع الجندر إلى حركات وسياسات لتحقيق التوازن بين الجنسين، كما ظهر مصطلح تمكين المرأة.

هل يوجد اضطراب يحدث خللاً في هوية الجنوسة المركزية؟ الجواب «نعم» والمثالان التاليان يوضحان ذلك:

المتلازمة الكظرية التناسلية: congenital adrenal hyperplasia syndrome

- هو خلل وراثي متنح جسدياً يؤدي إلى قصور في الإنزيمات وينتج عنه عدم قدرة على إنتاج الهرمون الكظري الكورتيزول cortisol، والتي تحرض من منطقة التلاموس (المهاد) فالخلل الإنزيمي يمنع إنتاج الكورتزيول حين يتم تحريض التلاموس والهيبوتلاموس للغدة النخامية، فترسل هذه المواد إلى مسار الأندروجين.

- النتيجة هي أن الجنين الأنثى المصابة بالمتلازمة تكون لديها مستويات مماثلة من الندروجين لتلك التي عند الذكر، مما يؤدي إلى تذكير الأعضاء التناسلية الخارجية ماقبل الولادة وإبهامها عند الولادة.

متلازمة انعدام الحساسية للأندروجين:

PAIS هو خلل وراثي مرتبط بالكروموسوم X يحدث خللاً في جين مستقبلات الأندروجين PAIS وقد يكون انعدام حساسية كلي للأندروجين CAIS ويولد الأفراد المصابون بهذه المتلازمة بأعضاء تناسلية خارجية مبهمة. وعند الولادة لايشتبه بوجود خلل، ويفترض أن المصابين به فتيات وتبرز في مرحلة البلوغ حيث المستويات العالية من التستستيرون، حيث يشخص عند عدم حدوث دورة الطمث في أنثى تبدو طبيعية فيكشف الفحص الطبي عن وجود خصيتين متدليتين.

الأندروجين والتطور السيكولوجي للبنات:

- الفتيات اللواتي لديهن مستويات عالية من الأندروجين يوصفن بالغلامية tomboy وهي مجموعة سلوكيات تعبر عن أنشطة وألعاب الأولاد. الفتيات المصابات بهذه المتلازمة يظهرن قدراً كبيراً من السلوكيات الذكورية في غرف اللعب والأنشطة المختلفة، حيث فضلن اللعب بالسيارات والشاحنات والأسلحة، والطائرات بدلاً عن اللعب بالدمى، وملابس الدمى وأدوات المنزل.

- اللعب بالشاحنات والأسلحة، والعربات تحفز الدماغ على إنتاج الأندروجينات وهذه الألعاب محببة للدماغ، وهذا مايتفق عليه أن الأطفال يظهرون قدراً أكبر من اللعب النشط من الإناث، وقد يتطور هذا النشاط

للتحرك عبر الفضاءات المختلفة فتقع عليهم مسؤولية أكبر.

- يرتبط الأندروجين بالسلوك العدواني من خلال مستقبلات الأندروجين وتحويله إلى هرمونات أخرى مثل الأستروجين، وأن العلاج بالأستروجين في البلوغ ينشط السلوك العدواني.

هل الفروق محددة بيولوجياً أم اجتماعياً ونفسياً؟

الاتجاه البيولوجي: يرى أن الفروق الطبيعية بين الذكر والأنثى محددة سلفاً بفروق تشريحية وبيولوجية وأن التكوين الجسمي والبيولوجي من: هرمونات وكروموزومات وحجم الدماغ والمؤثرات الجينية هي المسؤولة عن فروق فطرية في سلوك الرجال والنساء.

الاتجاه الاجتماعي: يرى أن التنشئة الاجتماعية هي التي تحدد الأدوار التي يقوم بها الذكر والأنثى من خلال تعلم الأدوار حيث يتم تلقين الفرد من خلال التربية والوالدين ووسائل الإعلام المعايير والتوقعات التي تطابق جنسه سواء أكان ذكراً أم أنثى (مثال اللعب والأنشطة).

- رغم التقدم الذي حققته النساء بدرجات متفاوتة في أكثر البلدان، فإن الاختلافات الجنوسية الجندرية مازالت هي الأساس الذي يقوم عليه التفاوت الاجتماعي.

- يميل الكتّاب الذين يتبنون الفوارق الطبيعية إلى الاعتقاد بأن تقسيم العمل يقوم على أساس بيولوجي وأن النساء والرجال يقومون بالأعمال التي يصلحون لها بيولوجياً.

- ركز بولبي على أن الأم لها دور محوري في تربية الأبناء وإذا انفصل الطفل عن أمه في مرحلة مبكرة سيتعرض للخطر ولمشكلات نفسية واجتماعية خطيرة لاحقاً.

الفروق السيكولوجية بين الجنسين:

- الذكور أكثر عدواناً من الإناث في غالبية الحضارات الإنسانية (سواء عدوان لفظي أم جسمي).

- تتفوق النساء على الذكور في القدرات اللفظية التي تتطلب طلاقة لغوية، وإبداعاً لفظياً وتزداد الفروق لصالح المرأة بعد سن ١١ حتى المراحل الجامعية.

- يتفوق الذكور على الإناث في الإدراك البصري والقدرات المكانية، وإدراك العلاقات بين الأحجام والأشكال.

- يتفوق الذكور في القدرات الحسابية ومعالجة الأرقام.

كما توجد فروق بين الجنسين لكن أقل من السابقة في:

١- مستوى المخاوف والقلق أعلى لدى النساء.

٢- الاكتئاب أعلى بين الإناث.

٣- يميل الذكور للألعاب التنافسية بينما الإناث للألعاب التعاونية.

٤- الذكور أكثر حباً للسيطرة والتسلط من الإناث.

٥- الفتيات أكثر ميلاً للانصياع والطاعة من الذكور.

٦- الحساسية اللمسية عند الإناث أكثر منها عند الذكور.

بعض ما يميّز النساء والرجال:

الرجل أكثر اهتماماً بعالم الأشياء، في حين أنّ النساء أشد اهتماماً ونجاحاً في عالم الأشخاص.

المرأة تطلب التواصل وتحب العلاقات الشخصية، وهي تميل أكثر إلى الكلام في العواطف، لذا فهي ترى نفسها تحقق نجاحاً عندما تفلح في إقامة علاقات شخصية حميمة. في حين يعتبر الرجل نفسه ناجحاً عندما يفلح في عالم الأشياء، (الصناعات مثلاً).

يُظهر الرجل رغبة في المنافسة، في حين تظهر المرأة رغبة في المشاركة. ويظهر ذلك واضحاً في ألعاب الذكور والإناث. من هنا نجد أنّ الارتقاء الوظيفي هو دليل نجاح في نظر الرجل، في حين ترى المرأة أنّ نجاحها يقاس بقدرتها على العطاء والتواصل.

المرأة أقدر على قراءة الشخصية، ولديها حدس قوي، في حين نجد أنّ الرجل أقدر على الإحساس بالمكان والاتجاهات وقراءة الخرائط.

أفكار سائدة عن فروق غير صحيحة:

١- لاصحة للفكرة السائدة بأن النساء أميل للاهتمام بالناس والمجتمعات بينما الذكور أميل للاهتمام بالأفكار المجردة وغير الاجتماعية.

٢- لاصحة للفكرة القائلة بأن المرأة أكثر استهواء وقابلية للإيحاء من الرجل.

٣- لايوجد دليل على أن المرأة تفتقد لدافع الإنجاز وحب التحصيل.

٤- لاصحة للفكرة القائلة بأن المرأة تفتقر للفكر والتحليل أكثر من الرجل.

٥- لاصحة للفكرة القائلة بأن المرأة أقل ذكاء من الرجل، أو أنها أقل ثقة منه.

٦- على الرغم من أن الفتيات يذكرن أنهن أكثر اهتماماً بتربية الأولاد، لم تتوصل البحوث إلى أنهن أكثر قدرة على المساعدة عندما يواجهن مسؤوليات رعاية الطفل.

تجارب علميّة:

يتكامل تطـور دماغ الفـأر بعد الميلاد علـى خلاف ما يحصـل في الإنسان، حيث يولد الإنسان متكامل الدماغ، وقد سهّل هذا الواقع في عالم الفئـران على العلماء إجراء التجـارب المتعلقة بتطور الدمـاغ؛ فعندما يُعطى الفأر الذكر هرمونات أنثوية أثناء نمو دماغه نجد أنه يتصرف فيما بعد تصرفات الأنثى. وعندما تعطى أنثى الفأر هرمونات ذكرية أثناء نمـو دماغها نجد أنها تتصرف فيما بعد تصرف الذكر.

مثـل هذه التجربة وغيرهـا كشفت عن بعض أسـرار السلوك البشـري، فقد تبيّن للعلمـاء أنّ هنـاك دماغاً ذكوريّـاً ودماغاً أنثويّاً، وأنّ طريقة التفكير والسلوك والميول يحددها نوع الدماغ. وقد اكتشف العلماء أن حصول خلل في إفـرازات الهرمونات أثناء الحمل، أي أثناء نمو وتطور الدماغ البشري، يؤدي إلى ميلاد ذكـور بأدمغة أنثويّة وإناث بأدمغـة ذكوريّـة، ويلحظ ذلـك في قلّة من الرجال والنساء.

بعض آثار الهرمونات:

العدوانيـة: الهرمونات الذكريّة تزيد في العدوانيّة، والهرمونات الأنثويّة تقلل منها.

المنافسـة: الهرمونـات الذكريّة تزيد من حب المنافسة، والهرمونات الأنثوية تقلل من ذلك.

الثقـة بالنفس، والاعتمـاد على الذات: الهرمونـات الذكريّة تزيد من الثقة بالنفس والرغبة في الاعتماد على الذات.

التنـوع الجنسـي: الهرمونـات الذكريّة تخلق الرغبة في التنوع الجنسي، على نقيض الهرمونات الأنثويّة.

القـوة والعنفوان: الهرمون الذكري هو هرمون القوة والعنفـوان، وتبلغ نسبته عند الرجل أكثر من عشـرة أضعاف نسبته عند المرأة.

تأتي أهميّة الحديث في النوع الاجتماعي، المسمّـى بالجندر، من كونـه فلسفة غربية جديدة تتبناها منظمـات نسويّـة غربيّة استطاعـت أن تجعـل هـذا المفهـوم محل جـدل. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل استطاعت مثل هذه التنظيمات النسويّة أن تخترق بعضـ المستويات العليا في منظمات عالميّة، مثل منظمة الأمم المتحدة، وأفلحت كذلك في عقد مؤتمرات دوليّة تخص قضايا المـرأة، كان من أشهرها مؤتمـر بكين عام ١٩٩٥م.

فلسفة النوع الاجتماعي (الجندر):

تـرى هـذه الفلسفـة أنّ التقسيمـات والأدوار المنوطـة بالرجل والمـرأة، وكذلك

الفروق بينهما، وحتى التصورات والأفكار المتعلقة بنظرة الذكر لنفسه وللأنثى، ونظرة الأنثى لنفسها وللذكر... كل ذلك هو من صنع المجتمع، وثقافته، وأفكاره السائدة؛ أي أنّ ذلك كله مصطنع ويمكن تغييره وإلغاؤه تماماً، بحيث يمكن للمرأة أن تقوم بأدوار الرجل، ويمكن للرجل أن يقوم بأدوار المرأة. وبالإمكان أيضاً أن نغيّر فكرة الرجل عن نفسه وعن المرأة، وأن نغيّر فكرة المرأة عن نفسها وعن الرجل؛ حيث أنّ هذه الفكرة يصنعها المجتمع في الطفل منذ صغره، ويمكن تدارك ذلك بوسائل وسياسات. وتعمل المنظمات المؤيدة لهذه الفلسفة على تعميم هذه الوسائل والسياسات، وحتى فرضها، إن أمكن، بغض النظر عن عقيدة المجتمع وثقافته وعاداته وتقاليده.

هذا يعني أنّ فلسفة الجندر تتنكّر لتأثير الفروق البيولوجيّة الفطريّة في تحديد أدوار الرجال والنساء، وتُنكر أن تكون فكرة الرجل عن نفسه تستند إلى واقع بيولوجي وهرموني. وهي تنكر أي تأثير للفروق البيولوجيّة في سلوك كلٍّ من الذكر والأنثى. وتتمادى هذه الفلسفة إلى حد الزعم بأنّ الذكورة والأنوثة هي ما يشعر به الذكر والأنثى، وما يريده كلّ منهما لنفسه، ولو كان ذلك مناقضاً لواقعه البيولوجي. وهذا يجعل من حق الذكر أن يتصرف كأنثى، بما فيه الزواج من ذكر آخر. ومن حق الأنثى أن تتصرف كذلك، حتى في إنشاء أسرة قوامها امرأة واحدة تنجب ممن تشاء. من هنا نجد أنّ السياسات الجندريّة تسعى إلى الخروج على الصيغة النمطيّة للأسرة، وتريد أن تفرض ذلك على كل المجتمعات البشرية بالترغيب أو الترهيب. لذلك وجدنا أنّ بعض المؤتمرات النسويّة قد طالبت بتعدد صور وأنماط الأسرة؛ فيمكن أن تتشكّل الأسرة في نظرهم من رجلين أو من امرأتين، ويمكن أن تتألف من رجل وأولاد بالتبنّي، أو من امرأة وأولاد جاؤوا ثمرة للزنى أو بالتبنّي. كما طالبت هذه المؤتمرات باعتبار الشذوذ الجنسي علاقة طبيعيّة، وطلبت إدانة كل دولة تحظر العلاقات الجنسيّة الشاذة.

ماذا يبنى على فلسفة النوع الاجتماعي أو الجندر؟

اهتمام المرأة بشؤون المنزل نوع من أنواع التهميش لها.

من الظلم أن تُعتبر مُهمّة تربية الأولاد ورعايتهم مهمّة المرأة الأساسية.

لدى المرأة القدرة على القيام بكل أدوار الرجل، ويمكن للرجل كذلك أن يقوم بأدوار المرأة.

الأسرة هي الإطار التقليدي الذي يجب الانفكاك منه.

من حق الإنسان أن يغيّر هويته الجنسيّة وأدواره المترتبة عليها.

يتساءل البعض: ما مدى قدرة المرأة، مقارنة بالرجل، على القيام بالمهن الآتية: الحدادة، مكننة السيارات والشاحنات، عمل المناجم، سياقة الشاحنات إلى مسافات بعيدة، التدريس في الأماكن النائية البعيدة عن الحضر؟

ما مدى قدرة الرجل على القيام برعاية الأطفال الرضّع، والأطفال في دور الحضانة، مقارنة بقدرة المرأة؟.

هناك اتجاهان حول هذه القضية:

الأول: فلسفة تتناقض مع العلم

النوع الاجتماعي (الجندر): فلسفة نسويّة غربيّة تعبّر عن أزمة الفكر الغربي في مرحلة ما بعد الحداثة. ويجدر بنا هنا أن نتنبّه إلى أنّ **هذه الفلسفة لا تقوم على أسس علميّة**، بل هي تصورات فلسفيّة تتناقض مع معطيات العلم الحديث، وتتناقض مع الواقع الملموس للرجل والمرأة. ولا تملك هذه الفلسفة الدليل على إمكانية إلغاء الفروق بين الرجال والنساء. وليس لديها الضمانات التي تجعلنا نطمئنّ إلى أنّ تطبيق هذه الفلسفة سيأتي بنتائج إيجابيّة. ويبدو أنّ المجتمعات الغربيّة لاتزال تنزلق في متاهات الفلسفة الماديّة. أما النتائج فهي ماثلة في الواقع الاجتماعي الغربي. وتكمن خطورة هذه الفلسفة في أنه يراد لها أن تكون فلسفة البشرية على مستوى العالم. ولم يُقدّم لنا تجربة ناجحة تكون المسوّغ لقبول مثل هذه التجربة الخطيرة على كيان المجتمعات والأسر والأفراد والإنسانية.

تساؤلات وملاحظات في عالم الحيوان:

اشتهرت إسبانيا بمصارعة الثيران، فلماذا لا تُصارع البقر؟

في دول جنوب شرق آسيا هناك مصارعات للديكة، فلماذا لا تتصارع الدجاجات؟

في عالم الثدييات العليا، التي تعيش في قطعان، لمن القيادة في الغالب، للذكر أم للأنثى، ولماذا؟

أدوار الذكور والإناث في المملكة الحيوانية، هل هي ثابتة أم متغيرة؟

ماذا يقول العلم

لقد جاءت الدراسات العلمية في العقدين الأخيرين لتثبت أنّ الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى تنعكس بوضوح على طريقة التفكير، وعلى الميول، وعلى السلوك. وقد انعكست هذه البحوث العلمية في عالم التربية؛ حيث تتبنى الغالبية العظمى من

علمـاء التربية سياسات تربويّـة تقوم على أسـاس الفـروق بـين الجنسـين، وضرورة مراعاة هذه الفروق في العملية التربويّة. أي أنّ البحوث العلميّـة ومعطيات علم التربية جـاءت منسجمة مع الإجماع البشري، الذي يقوم موقفه على أساس علمي، وهو التجربة والملاحظة عَبر آلاف السنين.

الاتجاه الثاني: المقاربات النسوية:

١- **النسويـة الليبراليـة:** يعتـبر هـذا الاتجـاه أن التفـاوت بين الجنسـين يعود لفروق ثقافية اجتماعيـة، من هنا يركزون على عوامل التفرقة في المعاملة بين الرجال والنسـاء وأن هناك ضرورة لحماية الفرص المتكافئـة للنساء عبر تشريعات ديمقراطية: مثل المساواة في الأجر، والقوانين المناهضة للتمييز ضد النساء. لقد حققت هذه الحركة منجزات مهمة في مختلف البلدان.

٢- **النسويـة الراديكاليـة المتطرفـة:** يعتقـد هؤلاء بـأن الرجال هـم المسؤولون عن استغلال النسـاء وهم المنتفعون منه في الوقت نفسه.

٣- **يشير هؤلاء إلى العنف الذي يمارسه الذكور على النسـاء باعتباره عنواناً للتفوق الذكوري.**

العنف المبني على النوع الاجتماعي

الجندر والعنف:

- العنف الأسري، وحـالات الاغتصاب والتحرش الجنسـي هي أجـزاء من نظام متكامل لقمع النساء، وليست حالات فردية متفرقة يعـاني مرتكبوها مـن اضطرابات سلوكية ونزعات إجرامية فردية. وذلك وفق أصحاب الاتجاه الراديكالي.

- مـن المظاهر الأخـرى التي تسهم في تعميق اللامسـاواة الجنوسيـة مانلاحظه يوميـاً من: اتصـال غير شفهـي، وأنماط استماع ومقاطعة في الحديث، وشعور المرأة بالتوجس والضيق في الأماكن العامة.

- الرجال من جانبهم هم الذين يفرضون على النساء المفاهيـم الشائعة عن الجمال والجاذبية مثلاً، تساعد المعايير الاجتماعية التي تركز على رشاقـة الجسم من خضوع المرأة، وبذلـك « تشيأت» المـرأة وأصبحت سلعة تستخدمها وسائـل الإعلام وتصميم الأزياء كدمية وأداة للجنس.

نقـد: هذا الاتجاه الراديـكالي لايصلح وحـده لتفسير قمع المرأة عـبر التاريخ وفي مختلف المجتمعات.

- أثارت التغيرات الجوهرية التي أثرت في دور المـرأة وأنمـاط العائلـة مجموعـة مـن التسـاؤلات حـول طبيعـة الذكـورة

والتغيرات التي طرأت على دورها من هذه التساؤلات:

١- مامعنى أن يكون المرء رجلاً في هذه المرحلة من المجتمع الحديث؟

٢- هل تعاني الذكورة من أزمة؟

٣- كيف بدأت التوقعات والضغوط على الرجال بالتحول والتبدل في عصرنا؟

كونل والنظام الجنوسي:

- طرح كونل أسئلة تتمكن فيها قوة الرجل الاجتماعية التي يتمتع بها الرجال من خلق لامساواة جنوسية والإبقاء عليها. وأن الدلائل التي تسند إليها هي قاعدة تقوم على نسق من الممارسات الاجتماعية تُرغم فيها المرأة على البقاء في مرتبة متدنية.

- يرى كونل أن العلاقات الجنوسية في المجتمعات الرأسمالية مازالت خاضعة للسلطة الأبوية. ومازالت الذكورة والأنوثة تدور حول مسلمة أساسية هي: هيمنة الرجال على النساء.

- يرى كونل أن الممارسات اليومية للناس تعيد إنتاج الترتيبات المستمرة عبر الأجيال وأن هناك ثلاثة جوانب تتفاعل لتكون النظام الجنوسي هي التي تشكل علاقات القوة بين الذكورة والأنوثة المنتشرة في المجتمع:

١- **العمل**: تقسيم العمل بين الجنسين وتوزيع المسؤوليات المنزلية.

٢- **القوة**: طبيعة العلاقات ومنها السلطة والعنف والأيديولوجيا في المؤسسات وفي الحياة العسكرية.

٣- **العلاقات الشخصية والجنسية**. في حالات الزواج وتربية الأولاد.

- توجد ذكورية مهيمنة (وهي الغالبة) وظاهرة للعيان، وذكورية متواطئة تنتفع من هذا الوضع العام.

- تحتل الأنوثة مراتب خضوعية، وتعمل لتلبية مصالح الرجال.

- تبرز نزعات التمرد والمقاومة في أوساط قطاعات داخل مجتمع الأنوثة الخضوعية لترفض الهيمنة الذكورية لتظهر أنشطتها هذه في مجالات العمل: نساء الأعمال، والأدب، والفنون، وحتى في الرياضة والمهن المختلفة.

- من أزمات تحول النزعات الذكورية ظهور: البطالة، الجريمة.

- على الرغم من ظهور الجندر وظهور أزمة الذكورة وما رافقها من بطالة وجريمة، واغتصاب. إلا أن هذا الوضع لم يؤدِّ إلى انهيار سيطرة الرجال الكلية على النساء، ولكنه يسفر عن غياب الكثير من عناصر الذكورة التقليدية في الرجال.

الجريمة:

- أحد مظاهر أزمة الذكورة المعاصرة.

- تغير كبير طرأ على دور الرجال وخاصة الشباب، أي على التصورات الاجتماعية التي تبدأ فيها النساء بتحقيق قدر أكبر من الاستقلالية في حياتهن ولاتعود مكانتهن رهناً باعتمادهن على الرجال.

- ظروف المجتمع الأمريكي الحديث دفعت الرجل إلى خيانة دوره وعدم الوفاء بالتزاماته المتوقعة. وإن المجتمع قد خان الرجال حين أخفق في توفير فرص العمل لهم وطالبهم بساعات عمل طويلة، وهددهم بحرمانهم من عملهم.

- ظهور صورتين للرجل رداً على التحديات التي طرحتها الحركات النسوية والجندرية.

الأولى صورة **«الرجل القصصي»** المطابق للتصورات التقليدية ومواصفات الرجولة في الفهم العام والذي ينظر بازدراء للرجال ذوي التخنث والنعومة. ويلجأ هذا النوع من الرجال إلى العنف والفظاظة في سلوكهم تجاه الآخرين كما نراها في السينما الغربية التي تظهر الرجل بقوته الجسدية والتي تتبنى الرجولة التقليدية المهيمنة في السياق الاجتماعي الثقافي.

الثانية صورة **«الرجل الجديد»** الذي يعبر عن رجولة مكبوتة، ويتصرف بحساسية بالغة تجاه النساء والأطفال وشتى المواقف التي تتضمن العواطف. إنه أب حنون، يتمتع بجاذبية جنسية تجاه النساء، مما يطرح صورة مغايرة للنموذج الآخر الذي يعبر عن الرجولة. يرى البعض أن هذا النموذج من الرجال العطوفين الحساسين هو محاولة لإعادة بناء مفهوم الرجولة في أعقاب بروز التحدي المتمثل في النسوية الحديثة.

الجندر والعولمة:

ساهمت الحركات النسوية العالمية في دعم الحركات الجنوسية التي تذلل التفاوت بين الجنسين في مختلف بلدان العالم، وتزايدت هذه الحركات من خلال الروابط النسوية من جميع البلدان في مؤتمر الأمم المتحدة عن المرأة والذي عقد عام ١٩٧٥م وشارك فيه خمسون ألف شخص ثلثاهم من النساء، ثم عقد في الصين عام ١٩٩٥م وحضره ممثلون عن ١٨١ دولة ومنظمات غير حكومية، وناقشوا سبل تحسين وضع النساء في العالم وخلصوا إلى ضرورة تأمين المساواة في وصول النساء إلى الموارد الاقتصادية، والعلم والثقافة، والتدريب المهني، والاتصال، كما طالب المؤتمر دول العالم بالتصدي لعدد من القضايا الحيوية مثل:

- العبء المستمر المتزايد الذي يلقيه الفقر على كاهل النساء.
- العنف الموجه ضد النساء.
- آثار النزاعات المسلحة على النساء.
- اللامساواة بين الرجال والنساء في تقاسم القوة وصنع القرار.
- التحيز المستمر ضد النساء وانتهاك حقوقهن.

أسئلة للمناقشة والتحليل:

- هل تعتقد أنه من الممكن والمرغوب فيه إلغاء الفوارق الجنوسية في مجتمعك.
- هل يمكن الاحتفاظ بالفروق الجنوسية مع إلغاء اللامساواة الجنوسية.
- كيف تؤثر بعض العوامل مثل الوضع الطبقي، والأصول العرقية في تشكيل تجربتنا مع الجندر.
- اختر واحدة من القضايا الأساسية التي تعلو فيها المطالبة بالمساواة بين الجنسين، ادرس هذه القضية وناقشها بالتحليل والتقييم الموضوعي.
- ماهي الأنواع الجديدة من الذكورة والأنوثة التي تبرز في العقود الأخيرة القادمة نتيجة عمليات التغير الاجتماعي الواسعة.
- كيف تقوم التفاعلات الاجتماعية التي تدور حولنا بترسيخ المعايير الاجتماعية حول توجهاتنا الجنسية نحو الجنس الآخر.
- هل تعتقد أن وسائل الإعلام في مجتمعك تبرز العنف ضد النساء أو تحط من مكانة المرأة الإنسانية؟ قدم أدلة مناسبة لذلك؟
- ماهي أوجه الاختلاف بين البغاء والسبل الأخرى لكسب الرزق؟ (المصدر: غدنز ٢٠٠٨م).

نعمــة الاعتـــدال

عبد الباقي يوسف ✽

يحتاج الإنسان إلى ممارسة الاعتدال مع نفسه، ومــع الآخرين حيث يحقق الاعتدال لصاحبــه حالة مــن التــوازن والانضباط يتمكن من خلالهــا تقييم الأمور والمجريات تقييماً متقدماً في درجات الصواب.

مــن جهة أخــرى، فإن الاعتــدال يقي صاحبه الغلــو والتشدد، ويجعله في وسطية من أمره بحيث يعطي لكل شيء حقه، لذلك يُعتبر الاعتــدال نعمة يتحلى بهــا الإنسان الذي يتسم بالحكمة والنضج والعقل.

يستطيع الإنســان أن يتمتع بطعام شهي ثــلاث وجبات في اليوم والليلة، يتمتع بذروة اليقظــة ست عشــرة ساعــة يمضيها فيما شــاء، يسكن في عالم من نــوم وأحلام ثماني ساعات.

لديه قدرات لتعلّم لغات أصقاع الأرض، يعقــد صداقات، علاقات غايــة في الإثارة والحميمية، يرتدي ثياباً جديدة.

كل ذرة مــن كنــوز الإرث تعينــه علــى الانفتاح، تضفي متاعاً على كل خطوة يقوم بهــا ضمن مملكة الاعتدال حتــى إذا نسي متاعــاً، أتاه فذكّره: ورثتــكَ وورثتني لتمتع بــي وأمتع بكَ، فينطلق هذا الحفيد بحيوية الفتيــان ليقطــف عناقيد الراحــة واللهو والتسليــة والاستلقاء على الظهر، والتمطي بعد نــوم عميق، والمشي الهوينى، والترحال، والإبداع، وقشر الفاكهة، وصلة الرحم، وتأمل جمال الطبيعة، والنظر إلى الطير وهو يطير. ومن ضفة العمر الأخرى يكتشف أن توازنه يُستمدّ من تمتعــه بهذه الخواص الجسدية

✽ أديب وناقد وقاص سوري.

والروحية، فإن تجنّب متاع اليقظة، استرخاء الغفوة، عمق النوم، تغيير النسيم، لذة إتقان المهنة، فقد السيطرة بزمام توازنه. وإن أفرط في متاع، أفقده المتاع توازنه في ردّ عقاب كي يقف في حدّه، وينتبه إلى خطورة الإفراط فلا يأخذ إلاّ القدر.

ثمار الاعتدال

الذي يمارس الاعتدال في حياته، يتقدم في درجاته حتى يغدو الاعتدال منهاجاً وسلوكاً في شخصيته، فتراه مستمتعاً بما لديه من طاقات، وكذلك مقدماً النفع والنصح للآخرين.

إنه يقطف ثمار ممارسته للاعتدال.

إذا أفرطت في تناول طعام، عاقبتك معدتك، وإذا أفرطت في الراحة، عاقبتك الراحة، وإذا أفرطت في الاستيقاظ، عاقبك الاستيقاظ. وفي عالم الطب يتأكد لنا ذلك عندما نعلم أن هذا المرض عادة ينتج عن قلة النوم، وذاك ينتج عن كثرة الجماع بلا ضابط، وآخر عن سوء التغذية، وآخر عن الإفراط في التغذية. ونطالع بشكل دائم النشرات الطبية التي تبيّن أسباب الأمراض التي تنتج إما عن الإفراط أو عن الحرمان. عندما لا تستحم فإن جسدك يدعوك لأن تغسله، وعندما تستحم كل ساعة فإنه يدعوك أن تكف عن ذلك. عندما تهمل أسنانك فإنها تعاقبك، وعندما تحافظ على هبة الله هذه فإنها تؤدي مهمتها وتحافظ على راحتك. إن كل ما لديك هو لراحتك وإمتاعك ولا شيء فيك لإزعاجك أو إقلاقك، ولكن هذه النعم ذاتها تنتقم منك وتزعجك عندما تزعجها ولا تستخدمها بقدر يحقق لك الإشباع. إن القدر يحقق لك الإشباع. تستطيع أن تستمع لشيء من التلفاز أو المذياع أو المسجل بصوت هادئ مسموع قادر على إمتاعك، ولكن إذا رفعتَ الصوت إلى آخره فإنك ستدخل عالماً من الصخب يؤذي أذنيك فيما بعد وقد يُرهق أعصابك.

وهكذا تتحول النعمة لدى المفرّط إلى نقمة قال الله: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**» سورة إبراهيم، الآية ٢٨ وقال:

«**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**». سورة الروم، الآية:٤١.

فالعقاب ليس لغاية العقاب، بل لمعرفة النعمة والحفاظ عليها وتقديرها. وكذلك على الإنسان أن يُظهر النعمة التي أنعم الله بها عليه ولا يخفيها، ففي الحديث: «**إن الله يريد أن يرى أثر نعمته على عبده**». فتبيِّن للناس أثر النظافة على صحتك وعلى

إيمانك حتى يقتدوا بك قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «**إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود**. رواه الترمذي وقال: «**النظافة من الإيمان**». ذلك حتى يتمتع الإنسان بالنعمة كي لا تتحول إلى نقمة فتعاقب الإنسان سواء بصورة فردية أو بصورة جماعية.

خُلق الإنسان متوازناً ولكنه هو الذي يُخل بهذا التوازن بتعامله اللامتوازن مع ملكاته التي أتته بقدر. ليس أمام الإنسان من سبيل إلاّ الاعتدال كي يحافظ على توازنه النفسي والعقلي والعضلي، ومن نعم الله على الإنسان أنه أرشده إلى هذا الاعتدال. كل هذا ليبقى الإنسان محافظاً على توازنه الطبيعي وليعيش حياته بصورة طبيعية بعيداً عن الخلل والازدواجية والعقد في مجتمع سوي واضح يفهم بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً في القول والفعل. فدوماً يكون الخير كل الخير في الوسطية ولذلك أمرنا الله بالوسطية في كتابه الكريم وقد جعلنا أمة وسطا. يقول: «**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ**»، لأنك ستحرم نفسك مما وهبها الله، وكذلك ستحرمها من فضل الصدقة ومساعدة الآخرين. كذلك: «**وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**»، سورة الأنفال، الآية ٣٧، لأنك لم تقدر نعمة الله ولم تتصرف بها بقدر، بل بذّرتها، واليد المبسوطة كل البسط لا يثبت فيها شيء. فكل شيء إذا تجاوز حده انقلب ضده، وخير الأمور أوسطها.

وما لا يقل أهمية ضمن هذا الحديث في محاور الاعتدال هو أن الإنسان عندما يشدّد على نفسه في أمر، فإن أموره تتعسر ولا تتم إلاّ بشدّة وعسر ذلك أنه هو الذي مال إلى الشدّة والعجالة، وإذا يسر على نفسه في أمور دنياه ووسّع وتأنّى، فإن الله يوسع عليه ويجعل له من أمره رشدا. ولذلك لا عجب أن ترى أن الغايات والأهداف والرغبات تتحقق أول الأمر لأولي التلميحات والإيماءات والتمهّل والصبر وذلك بيسر، وقد تتحقق حتى عن غفلة منهم، بينما أهل الشدّة والعجالة فإن أهدافهم ورغباتهم لا تتحقق إلاّ بشق الأنفس. إضافة إلى ذلك فإن التأني يمنح صاحبه حالة من الهدوء والصفاء، بينما الشدّة تملأ صاحبها بالاضطرابات النفسية والعصبية. وقد جعل الله طاقاته من الصبر لدى الإنسان بصفة عامة حتى أولئك الذين ورثوا الاضطرابات والشدّة عن آبائهم، ولكن على الإنسان أن يستعين على قضاء حوائجه بطاقة الصبر هذه حتى يرى الله يوسع عليه.

الإنسان سواء أدرك أو لم يدرك فإنه لا يكون متوازناً ومنضبطاً لولا هذا التنوع والاختلاف الذي يبلغ في مخلوقات وحالات حد التناقض. فأنت ترى وتسمع وتشم، بالمقابل ترى مَنْ لا يبصر ولا يسمع ولا يشم رائحة، وأنت تمشي على قدميك، بمقابل مَنْ يمشي على قدم واحدة، أو جزء من قدم، أو هو محروم من نعمة المشي على قدمين. وإذا رأيت شخصاً متّقد الذكاء، فإنك ستجد لقاءه شخصاً بلا ذكاء، وستجد شخصاً أحمقاً. وإذا رأيت نحلة ترتحق من وردة وأن ما يخرج منها هو شفاء وعافية لك، فإنك ترى ذبابة تحط على قمامة ومجرد لمسك لها يسبب لك مرضاً. فلولا النحلة لما كانت الذبابة، ولولا المبصر لما كان الأعمى، ولولا الأحمق لما كان الذكي، ولولا الماشي على قدمين لما كان الأعرج، كما أنه لولا الليل لما كان هناك نهار، ولولا الموت لما كانت ثمة حياة. فأنت لن تتزن ما لم تستخدم ما لديك من دموع، وضحك، وجماع، وجهد، وراحة، وجوع، وشبع، ودفء، وبرد. وهذا بذاته يحرّك طاقات وقدرات ونزعات الإنسان ويقي مشاعر الجمود أو النوم الأبدي. فأنت تعيش لذة تقديم شيء نافع للآخرين، ولم يكن هذا الشعور ليتحقق لولا وجود شخص آخر يعيث فساداً في الأرض، وهذا ليس علواً من شأنه، بل هو انحدار وانحطاط له على قدر ما هو ارتقاء وسمو لك، لأن الإنسان بطبيعته لايرتقي بما يقدّمه من شر، بل ينحدر وهو ذاته يُدرك هذا الانحدار، وكما أن مقدّم الخير يشم رائحة طيبة من عمله الطيب، فإن مقدّم الشر يشم رائحة خبيثة من عمله الخبيث.

كلما يقدم شخص على فعل شر فإنه يكون في نقصان. والخير هنا تقديم المنفعة للناس، والشر تقديم الشر لهم إلى درجة أنهم يتقوا شر هذا الشرير.

إنك تستمد انضباطك وترتيب حياتك من تفاصيل هذه الوسطية، فهي تعلّمك كيف تتدخل في شؤون حياتك وتضبطها وتقدّرها تقديراً. وكذلك فإنها تُكسبك قوة الشخصية وتحميك من نزعة الانفلات. ليلة سقوط غرناطة وأبو عبد الله الصغير يجهّز نفسه ليخرج مطروداً من ملك لم يستطع أن يحافظ عليه هتفتْ به أمه قائلة: «ابكِ مثل النساء مُلكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال». إن مَنْ يقتصد في أمور صغيرة أو أنه يراها صغيرة، لا يستطيع أن يقتصد في الأمور الكبيرة لأن الصغائر مجتمعة تتحول إلى كبائر.

الكلمة التي تتحدث بها مقدّرة لك، فلا تلق الكلام على عواهنه، قد تحتاج في

موقف إلى كلمة حق تقولها، ولكنك تكون قد أسرفت في الكلام فلا تقدر على قولها، إن الصوت ذاته يعاقبك فلا يعينك على قول كلمة واحدة وأنت في كامل وعيك. فانظر كم مررتَ بمراحل حتى تعلمتَ لغة وأجدت استخدام الصوت بشكل هادف، كان ذلك لتتمكن من التواصل في مجتمع يستخدم اللغة وسيلة للعيش والتواصل فيما بينه، وليس لتقذف الكلام كما لو أنك تريد نفاذه.

والنظر ذاته عليك أن تحافظ عليه فلا تستخدمه إلاّ في الأمور الهادفة التي تنتفع بها، يمكنك أن تستخدمه للقراءة، للنظر في جمال خلق الله في الإنسان والطبيعة، للأعمال التي تقوم بها، لا أن تستخدمه للمواضع الخبيثة التي تقودك إلى الإثم والعدوان. وكذلك السمع فاحرص على ألاّ تسمع إلاّ الطيب والخير، وتجنّب اختلاس السمع والتجسس، فإن سمعك يريد منك أن تستخدمه في مواضع الطيب، وفي كل هذا عليك أن تهتم بصحة أذنيك وعينيك وفمك وتهتم بصحة كل الحواس التي أُتيتها بقدر. فكم من شخص انفلت يقهقه في مجلس دون ضابط حتى سقط مغشياً عليه، وكم من شخص أُسعف من مائدة لأنه تناول طعاماً وشراباً بإفراط، وكم من شخص تحدّث باصطراخ في مجلس حتى فقد صوته. وكم من رجل بذر في كل حرث حتى فقد البذر لحرثه.

إذا رفعك الله في مرتبة من مراتب الدنيا، فلا تنس النظر إلى مَنْ هو أدنى مرتبة منك وكن رفيقاً به.

إذا رزقك الله بمركبة، فلا تنس أن تسير في الأسواق بقدميك حتى لا تُقتلَع من الأرض.

ولا تبطر بنعمة الله التي أنعمها عليك، فإن البطر ينتهي بصاحبه ومن «سلّ سيفَ البغي، قُتل به».

كن شفيقاً رحيماً لطيفاً بنفسك حتى يرحمك الله الذي: «لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

لن تستطيع أن تكون معتدلاً ما لم يستقر سلوك الاعتدال في جنباتك.

إذا رزقك الله بولد، فأكرمه إنه أمانة الله لديك، لقد أمنّك الله بهذا الولد فرزقك به، فاحفظ أمانة الله. إذا عمل عندك عامل، فأكرمه. إن الله قد أمن برزقه لديك، وأمَرَه أن يقضي لك حاجة من حوائج الدنيا. جعلك الله أميناً على رزقه، فأعد أمانة الله، قد حان وعدها قبل أن يجف عرق العامل.

«إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه».

كل ذرة في الإنسان مقدّر لها تحقيق الاعتدال في ذاتها سواء كان هذا الاعتدال إيجابياً، أم كان سلباً بما يمكن تسميته بـ: الاعتدال الإيجابي، والاعتدال السلبي، فيشمل هذا الكلام العلاقات الاجتماعية، والإدارية، والشراكة في المهن، وعقد الصداقات، ومصدر الأرزاق، والعلم،[1] والمواقف، والأحزاب.

فإنَّ الطيب يميل إلى حزب طيب، والخبيث يميل إلى حزب خبيث، والطيب يميل إلى صداقة طيبة، والخبيث يميل إلى صداقة خبيثة، والطيب يميل إلى شراكة طيبة والخبيث يميل إلى شراكة خبيثة، والطيب يميل إلى علاقة اجتماعية طيبة، والخبيث يميل إلى علاقة اجتماعية خبيثة، والطيب يميل إلى قول كلمة طيبة، والخبيث يميل إلى قول كلمة خبيثة، والطيب يميل إلى مصدر رزق طيب، والخبيث يميل إلى مصدر رزق خبيث.

كما أن الصادق يكرمه صدقه، والفاضل يكرمه فضله، والمخلص يكرمه إخلاصه. فإن الكاذب يذله كذبه، والمفسد يذله فساده، والمنافق يذله نفاقه، ومَنْ يعق أباه يعقه ولده، ومن يعق أمه تعقه ابنته.

الاعتدال وقوة الشخصية

يتمتع الإنسان المعتدل بقوة شخصية، يستمد قوته من ثقته بنفسه، فهو يقف على تاريخ من المواقف المعتدلة التي تجعله مقدماً على مواقفه وأقواله بثقة.

الاعتدال هو حياة كاملة. يعتدل الإنسان حتى يستطيع أن يكون إنساناً ويمارس دوراً إنسانياً في حياته. أن تنظر إلى أي إنسان تراه على أنه يمتلك ما يمكن أن تنتفع به، وكذلك لديك ما يمكن أن ينتفع به. أن تصغي لما يقوله ولا تستهزئ بما يقول فهو الذي سخّر الله له كل شيء وعلّمه لغة يخاطبك بها، وعلّمك آداب الإصغاء والقول الطيب الحسن.

رأت عائشة (رضي الله عنها) رجلاً كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ قيل: من القراءة والعبادة. فقالت: كان عمر سيد القراءة، وكان أعبد لله منه، فكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع.

ورأى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلاً مطأطئاً رأسه، فقال له عمر: ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض، ولا تمت علينا ديننا، أماتك الله.

وعن علي (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سيد الناس آدم، وسيد

العرب محمد، وسيد الروم صهيب، وسيد الفرس سلمان، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال طور سيناء، وسيد الشجر السدر، وسيد الأشهر المحرم، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي، أما إن فيها خمس كلمات في كل كلمة خمسون بركة».

انبعث إلى الحياة لتعيشها وتكتشفها، تستمتع بمتاعها وتتألم بآلامها. خذ الحياة بقوة وعشها بقوة واعلم أنه لا يستقبل القوة إلاّ مَنْ كانت به قوة. عليك أن تبني جسدك وتبعد عنه مَوَاطن الوهن.

أن تقوم بعمل واحد بقوة، خير من أن تقوم بعملين بوهن. أن تقرأ صفحتين بقوة، خير من أن تقرأ عشرين صفحة بضعف. يمكنك أن تؤجل عمل اليوم إلى الغد عندما تدرك ضعفك إزاءه أن تؤجله خير من أن تقدّمه بضعف. خذ قسطاً من الراحة بين عملين، راحة النفس وراحة البدن. كن حذراً من الجري خلف الملذات فإنها تهلك النفس والبدن معاً. قال الإمام الشافعي (رحمه الله): «أربعة تقوي البدن، أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان. وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة. وأربعة تقوي البصر: الجلوس تجاه القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس. وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر، والنظر إلى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود في استدبار القبلة. وأربعة تزيد من الجماع: أكل العصافير، وأكل الأطريفل الأكبر، وأكل الفستق، وأكل الجرجير. والنوم على أربعة أنحاء: فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين. وأربعة تزيد في العقل: ترك الفضول في الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، والعلماء». الإنسان الضعيف يرى كل ما في الحياة ضعيفاً إلى أن يراها باردة لا دفء فيها فيبلغ درجة من البرود البدني والروحي يتمنى فيها الموت لأنه لا يرى دفئاً فيه وفي الحياة. إن الإنسان القوي يرغب بمزيد من الحياة ويستعد للذهاب إلى آخر ركن من العالم في سبيل ألا يمرض يومين، أو أن يلحق أملاً قد يشفي داءً ألم به. دوماً فإن صناع الأفكار العظمى والقرارات العظمى هم الأقوياء وليسوا الضعفاء، والله بطبيعة الحال هو قوي وليس ضعيفاً ولذلك فحتى المؤمن القوي هو خير عنده من المؤمن

الضعيف، واليد العليا هي خير من اليد السفلى، والإنسان يميل إلى فكرة الانتحار عندما يستبد به الضعف، والانتحار ليس قوة ولا شجاعة بأي حال، ولكن الشجاعة كل الشجاعة تكمن في مدى قدرة المقاومة لدى الإنسان في أحلك ظروف الحياة، ولذلك فإن أيوب لم ينتحر حتى وهو في ذروة الألم، وكذلك إبراهيم حتى وهو يُقذف في النار وهذا حدث مع كل الأنبياء، ثم مع كبار العلماء والأفاضل فالمقاومة تُزيد الإنسان قوة، والاستسلام يزيده ضعفاً على ضعف.

فكان الإنسان وعبر تاريخه كائناً باحثاً عن عوامل القوة البدنية والروحية ونجد اهتماما بالغاً بعوامل القوة لدى المسلمين. وكان لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) اهتمام بالغ في ضرورة اكتساب القوة العضلية والفكرية وقاده اهتمامه إلى أن كتب: «مَنْ ابتدأ غذاءه بالطعام المملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومَنْ أكل في اليوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومَنْ أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه. واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والبسفارجات تعظم البطن وترخّي الإليتين، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء. والشحم يخرج مثله من الداء. والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم. ومن أراد البقاء -ولا بقاء- فيباكر بالغذاء، وليبكر العشاء وليلبس الحذاء (كناية عن المسير.

ثمة حكاية قديمة تروي أن رجلاً في مقتبل عمره أراد أن يذهب في تجارة ليأتي ببعض المال، وفي الطريق رأى ثعلباً مريضاً بالكاد يتحرّك، فوقف سائلاً نفسه: كيف يأكل هذا الحيوان الواهن؟ وفي أثناء تأمله وشروده بأمر الثعلب، لاح له أسد قوي يحمل فريسة، فجلس بالقرب من الثعلب وبدأ يلتهم فريسة حتى شبع وانصرف. بعد ذلك رأى الثعلب الواهن يزحف إلى بقايا الفريسة فيأكل هو الآخر حتى الشبع وينصرف إلى مكانه. وقف الشاب قائلاً في نفسه: إذا كان الله يبعث أرزاق مخلوقاته جميعاً فما لي أركض وأشقى حتى أُطعم نفسي. وعاد إلى بيته يقول لأبيه قصة الثعلب الذي جعله يعود من نصف الطريق. فقال له الأب: أنت مخطئ، تنظر إلى ظواهر الأمور،ليس المهم ما تأكل، المهم من أين أتيت بطعامك. إني أريد لك أن تكون أسداً تأكل الثعالب من فضلاته، لا أن تكون ثعلباً واهناً تأكل بقايا السباع.

يقودك الاعتدال أن تكون قوياً في أخلاقك ومعرفتك، فمثلاً الحيوان يتمتع

بقوة لا يبلغها أي إنسان، ولكن هذا الحيوان القوي يغدو ضعيفاً ومستسلماً إزاء قوة أفكار إنسان أضعف منه بدناً. ومن هنا فإن قوة الإنسان تبقى ناقصة ما لم تسندها قوةٌ أخلاقية. فإن تمتع شخص بمظهر حسن وكان داخله خاويا، فذلك لا ينفعه بشيء، وكذلك لو تمتع بلياقة بدنية، وكان بلا ذكاء، فهذا لا ينفعه بشيء. وفي هذا قيل الكثير من الشعر، ورويت حكايا عديدة. يقول مبشّر بن الهديل الفزاري:

ولا خير في حُسن الجسوم وطولها

إذا لم تزن حُسن الجسوم عقول

وقال ابن شرف القيرواني:

احذر محاسنَ أوجه فقدت

محاسن أنفس ولو أنها أقمارُ

سُرجٌ إذا نظرتَ فإنها

نورٌ يضيءُ وإن مسستَ فنارُ

وكان الوزير ابن المغزي الذي تولى الوزارة في عهد البويهيين في بغداد ويحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر العربي القديم يقول:

رأيت الحُسنَ في أدبٍ وعقلٍ

وفي الجهل الدمامةُ والهوان

بل حتى ثقافة أدب الحوار تُضفي قوةً جمالية على إنسان قد لا يتمتع بجمال المظهر فيتفوّق البيان على ذلك، يقول شبيب بن شبيبة:

وكم من ماجد أضحى عديماً

لـه حسنٌ وليس لـه بيانُ

وما حسن الرجالِ لهم بزين

إذا لم يُسعد الحُسنَ اللسَانُ

ويقول المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً

إذا لم يكن في فعله والخلائق

ثمة حادثة طريفة وقعت مع أبي حنيفة وقد كان جالساً يقرأ دروساً لأصحابه ومستمعيه، وإذا برجل ذي هيئة يدنو إلى مجلسهم فقال الإمام لأصحابه: تثبتوا كي لا يأخذ هذا الرجل عنكم شيئاً. فلما جلس الرجل ذو الهيئة وأبو حنيفة يذكر أوقات الصلاة قائلاً: أما الصبح فوقته من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، فإذا طلعتْ الشمس زال وقتها. فقال الرجل: فإن طلعتْ الشمس قبل الفجر فكيف يكون حكمها؟ فالتفت أبو حنيفة إلى أصحابه وقال: كونوا كما شئتم فإن الأمر على خلاف ما حسبنا. وقال: آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله.

فأنت قوي بقوة خلقك وقوة مساحة الستر التي تنعم بها، إن أي إنسان يمكن أن يمشي وسط المدينة عاريا تحت ثيابه، لأن الناس جميعا يمشون معه عراة تحت

ثيابهم، ولكن هل تسير وسط المدينة عاريا فوق ثيابك. فالإنسان يمتاز عن الحيوان بالأخلاق أكثر مما يمتاز عنه بالنطق لأن الحيوان هو كائن غير أخلاقي إضافة إلى أنه كائن غير ناطق. الإنسان يلتزم بالأخلاق، يلتزم بالعيب، يلتزم بالحياء، حتى يرتقي في درجات إنسانيته، وهذا ليس تراجعاً ولا نقصاً بقدر ما يكون رقياً وسمواً وجمالاً، ومن كل ذلك يستمد قوته في المجتمع الذي ينتمي إليه. هذه الالتزامات هي ليستْ قيداً له على قدر ما هي حرية بشرية وتميّز بشري عن سائر الكائنات الأخرى. فكم من شخص بُلي بنزعة سلبية، ولكنه لبث يصارعها ويخفيها حتى مات، وكم من شخص آثر الموت على أن تظهر له سمعة سيئة. وقد وعد الله هذا الإنسان الباحث عن الستر بأن يلقي عليه الستر حتى في القيامة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة». والستر هو قوة للإنسان، فالإنسان يكون قوياً كذلك بالسمعة الطيبة على قدر ما يكون ضعيفاً بسمعته السيئة.

أن تعيش الحياة بقوة في سبيل الله خير لك من أن تمضي إلى الموت بضعف في سبيله. إنك تولد على فطرتك، وعندما تتفتح كوردة فإن الأشواك تأخذ شكلها في روحك، هذه الأشواك التي انتقلت إليك مع نطفة التكوين، هنا ستتحقق بطولتك على قدر نجاحك في اقتلاع هذه الأشواك التأسيسية من جذور نطفتك، أو سينحدر بك وهنك لتغدو فريسة لهذه الأشواك في الدرك الأسفل من الوهن.

تربية سلوك الاعتدال

يتلقى ممارس سلوك الاعتدال دروساً تربوية ينتفع بها، وتزيده رسوخاً وثباتاً على قاعدة الاعتدال

يتدرّب المعتدل على الصبر والتمهّل والحكمة، فتتروّض نفسه في محراب تربية الاعتدال لها.

تنتعش نفسه بتلقي تربية الترويض، إن كل كلمة يقرأها، أو يسمعها تجعله أكثر توازناً، وأكثر هدوءاً. إنه كثير التمهّل في اتخاذ القرارات حتى تجلو له بعض المعالم وتركن نفسه إلى اتخاذ قرار صائب.

هنا تدرك أن نهي النفس عن الهوى هو درجة متقدمة من درجات مخافة مقام ربك، وأنك تمتلك المقدرة على إرضاخ نفسك ومواجهة نزعاتها.

ولذلك يقال في الشعر:

إذا حار أمرك في معنيين
ولم تدر أين الخطأ والصواب

فخالف هواك فإن الهوى
يقود النفوس إلى ما يعاب

إن النفس يمكن لها أن تستهلك طاقة بدنك فتحيلك إلى كائن واهن مقعد حتى لو كنت في ذروة اللياقة والعطاء، ولكن قيادتك لنفسك تجعلك تستمتع بلياقة الشباب والعطاء حتى لو تقدمت بك السنوات إلى حواف الشيخوخة، فكم من شيخ ناضر المحيا، لائق البدن كشاب، وكم من شاب محتقن المحيا، واهن البدن، ولاشيء بين الاثنين سوى أن الأول منتبه إلى تعامله مع نفسه حتى ينتابه إحساس أن نفسه غدت كخاتم في إصبعه يحركه حيث يشاء، ويبقيه حيث يشاء، والأول مفرط في الجري خلف هوى نفسه.

النفس بها شهوات وملذات، وتحقق المتاع والمباهج، وهذا لا ضير منه، فنفسك تميل إلى ثوب حسن، تميل إلى الاقتران بامرأة جميلة، تميل إلى النجاح في العمل، إلى كسب المال، إلى رحلات ونزهات، إلى شيء من اللعب والاستئناس والتسلية، أو ممارسة هوايات مثل ركوب الخيل، والسباحة، والرياضة، ومشاهدة ألوان برامج التلفاز، والتواصل مع الناس من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

فأنت عندما تنهى النفس عن الهوى، الإثم، العدوان، المعصية، فلابد لك أن توظف ما بها من مزايا وإمكانات توظيفاً إيجابياً، فقد زيّن الله لك متاع الحياة الدنيا بقوله: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» آل عمران الآية١٤.

ويخاطب الله نبيه قائلاً: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» القصص الآية٧٧.

يمكنك هنا أن تحقق رغبات نفسك، فهي التي تُشعرك بمتاع الدنيا.

هنا تدرك أن القرآن يساوي بينك وبين نفسك ولا يفصل بينكما، إنه ينظّم العلاقة التكاملية التوافقية الإيجابية بينك وبين نفسك، لأن قطع الصلة بينكما يحيلك إلى كائن واهن هامشي مقطوع الصلة بمقومات الحياة.

وربما من أهم التحديات التي تواجه الإنسان لحظة يبدأ وعيه بالتشكل هو أنه يرى نفسه أمام وقائع حياتية متناقضة ليس بوسعه أن يعيش في معزل عن مؤثراتها.

هنا يكتشف مدى حاجته إلى ترويض النفس على استيعابها، والإحاطة بها ووقف موقف وسطي أولي منها حتى يستقر

الحـدث، ومن ثم يأخـذ موقفه المعتدل من واقع هذا الحدث.

الموقف الوسطـي الأولي هنا قد يحتاج إلى شيء مـن التكيف حتى مع حدث سلبي يقـع بغتة، وهنا يكون أمامـك أن تميز بين التكيف المؤقت، وبين الرضوخ تسليما لواقع الحدث، لأن الحدث المباغت بالنسبة لك هو غموض لاتدرك مكامن ضعفه، ومعالم قوته. الأمـر الذي لا يؤهلك تحديد نقاط الوهن، ونقـاط القوة فيه، ومقارنتها بقدراتك على الاصطدام الفوري والمباشر معها.

ليس بالضـرورة أن ينحصر الحدث في ماديته، بل قد يكون فكرة تخطر لك، فترى نفسك إزاء حـدث فكري مزلزل ربما أقوى من حدث مادي مباشر.

الاعتـدال هنا لا يحتـاج إلى شيء قدر حاجتـه إلى الزمن، كما أنـك لا تحتاج إلى شـيء قدر حاجتك إلى مـرور زمن ليترسخ سلوك الاعتدال في نفسك التي شيئاً فشيئاً، حدثـاً حدثاً، موقفاً موقفـاً تمسي معتدلة عامرة بالنضـج والحكمة والتجارب. تأخذ بين حين وحين قسطـا من راحة روحية في رحابة جداولها.

الاعتدال في هذا الباب درجات، أحيانا حتى النظـرة تحتاج إلى تـأن كي تنظرها، الكلمة تحتاج إلى وقت حتى تلفظها، الخطوة تحتاج إلى تردد حتى تخطوها، التعرف على شخصـ جديد تـراه لأول مـرة يحتاج إلى مراحل حتى تستقبله صديقا، حتى النهوض مـن فراش النوم يحتاج إلى تمهل حتى تقف على قدميك.

النظـرة غير المتأنية قـد تفقئ عينيك، الكلمـة المتسرعة قد تسجل عليك تقييما لا تأباه، الخطوة العاجلة قد تودي بك إلى هوة، الشخص الـذي تستقبله صديقا منذ اللقاء الأول قد يضمر لك شـراً، النهوض المباشر مـن الفراش قد يجعلك في حالة توتر طوال اليوم.

عندما نقـرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنـا، حيث يقـدم لنا القـرآن الكريم مكوّنـات النفس، يقـدم مزاياها، تركيبتها، ميولاتهـا، كما يرشد القـرآن قارئه الماهر كيفية قيـادة النفس، كيف يكـون الإنسان سيـداً علـى نفسه، وعنـد ذاك يتذوّق لذة السيادة الحقيقيـة، إنه يشعر بمعنى براعة السيادة، فلو كنت سيداً على مليون شخص، يمكـن لنزعـة صغيرة في نفسـك أن تفسد عليك كل حالـة السيادة التي تشعرها تجاه هـؤلاء، أما إذا كنت سيـداً على نفسك، لا يكون بمقـدور مليون شخـص أن يفسدوا بهجة ولـذة ممارستك لعذوبة سيادتك على نفسك.

إذن، لا سيادة تتقدم على سيادتك على هوى النفس، ولا خيبة تتحدر بك قدر رضوخك لنزوعات النفس حتى تبلغ بك درجة تفسد عليك كل مقومات وأركان حياتك الظاهرة والباطنة.

تكمن روح الطبيعة في أن أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتمل هذه الثورة كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاطبيعي.

إن ثورة اللاطبيعة نائمة لا يوقظها غير فعل لا طبيعي تقوم به فتنتفض من نومها العميق وتثور على صفاء طبيعتك الساكنة ولا تعود إلى نومها قبل أن تعود إلى طبيعتك أو أن تعيدك إلى طبيعتك بالقوة، وإن كنت عنيداً سوف تحيلك إلى كائن لا طبيعي يعيش حياة لا طبيعية وتبقى يقظة لا يدركها نوم، كما أنك تبقى يقظاً لا يدركك نوم.

كنتُ دوماً عندما أقف أمام تشريع الله أو نهيه في القرآن الكريم أرى أن هذا الإرشاد إنما هو توجيه للإنسان حتى يفقه الحياة التي يعيشها، يتجنب العبثية في مسيرة حياته، وهو إرشاد من خبير يعلم ((السر وأخفى)).

الاقتساط، هنا يشمل كل تفاصيل حياة الإنسان، أينما كان وحيثما وجد فثم اقتساط، وربما هنا يكون نقيض الاقتصاد الذي بات متداولا في عالم المال حصرياً، فالاقتساط هنا يشمل كل مقومات الحياة في الإنسان إضافة إلى المال.

في النظر اعتدال ،

في الحديث اعتدال،

في السمع اعتدال،

في الحب اعتدال،

في العلاقات الاجتماعية وحتى في سائر العبادات سواء كانت فرض عين، أو فرض كفاية.

ثمة حديث للنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإن أكلنا لا نشبع».

ولا يعني قوله «لا نشبع» أنه لا يوجد لدينا طعام، أو أنه نفد، أو أن ندخر شيئاً منه للغد، قدر ما يعني أن تدرب نفسك على ألا تأخذ من كل شيء، كل شيء.. بل دوماً تترك حاجتك حتى تبقى تواقاً إلى مقومات هذه الحياة.

كما يمكن لك أن تتحول إلى كائن غرائزي «همجي» تأخذ كل شيء وكأنك تقوم بعملية افتراس، فتنهض من فراشك وأنت في حالة لا تقاوم من الضجر، عندئذ لا تملك إلا أن تبعد عن حليلتك وتبتعد عن ذكرها حتى وهي بعيدة عنك.

فتكون قد ألحقت الظلم بنفسك، وبها. ألحقت الظلم بهـا لأنك بت تضجرها، وألحقت الظلم بنفسك لأنك جعلتها تضجرك في إفراطك.

الاعتدال يكون حتى في العمل المنزلي بالنسبة لسيدة البيت، فلا يجيز لها أن تقوم بعملين في وقت واحد حتى تقي نفسها الإرهاق في العمل الذي من شأنه أن يؤدي إلى حالة ضجر عامة من البيت ومن المسؤولية الزوجية.

يمكن لها أن تقوم بعمل واحد على أكمل وجه فتشعر بأنها تستمتع وهي تعمل، لأن ما بين يديها هو من نعم الله، وقد وضع الحق نعمه هذه بين يديها حتى ينظر إن كانت تتقن التعامل مع هذه النعم وتكون قدر المسؤولية، أم أنها تفشل في التعامل مع هذه النعم فتفسدها.

أمام ذلك ستدرك بأن عليها أن تحسن لهذه النعم حتى تدوم وتحل عليها بركة الهبة.

ثم بعد ذلك تأخذ قسطا من راحة مكافأة على ما بذلته من جهد، ومن إحسان وإتقان.

هذا الاعتدال يمكن تسميته: التوازن بين الجهد والراحة، مثلما يمكن تسمية ما ترك النبي (صلى الله عليه وسلم) من طعام وهو ما زال دون شبع /اعتدال/.

في وجه آخر يمكن ملاحظة أن حالات من اللااعتدال تؤدي إلى إلحاق أذى بالناس والطبيعة، فانظر على سبيل مثال إلى مطر ينهمر برفق فينبت منه زرع ويأكل منه الإنسان والدواب، ثم انظر إلى مطر يأتي بغزارة فتفيض المدن والطرقات والبيوت، يهلك الإنسان ويموت الزرع وتموت الدواب نتيجة الفيضانات التي زادت عن حاجة الناس والأرض.

ثم انظر إلى نسمات هواء عليلة تشفي حتى المرضى، وانظر إلى هيجان العواصف التي تقتلع البيوت والأشجار وتدمر ما يقع في دربها وتهلك البلاد والعباد.

أجل إنه الاعتدال الذي علينا أن نتعلم منه في كل هذه المجريات التي نراها ونعيشها.

أليس الاعتدال هو الذي يجعل الأب يوزع محبته على سائر أبنائه من دون واحد منهم، يقول لك الاعتدال: عليك ألا تعطي كل شيء، حتى لا ينفد لديك كل شيء.

عليك ألا تأخذ كل شيء حتى تقي نفسك

عدم التوق إلى شـيء آخر، فما دمت تعيش الحياة عليك دوما أن تعطي وعليك دوما أن تأخـذ في علاقة حميمية تبادلية مع الحياة وسائر الناس.

يحضـرني هنا بقوة بيت من الشعر لأبي الأسود الدؤولي يقول فيه:

والنفس راغبة إذا رغبتها

وإذا تـرد إلى قليل تقنع

دوماً يمكن أن تنظر إلى أن الله يمنحك ما يمكن أن تكون مبـذرا به، وبالوقت ذاته يمنحـك حريـة أن تكـون مبـذراً أو تكون مقتصداً.

أنـت الآن تجلس إلى مائدة عليها ألوان متعددة من طعام شهـي وشراب لذيذ، لقد منحـك الله هـذا الطعام، ومنحـك شهية وقابليـة لتناول هذا الطعـام بيد أنك ومن تلقـاء نفسك تترك شيئاً علـى هذه المائدة قبل أن تضجره، بل تنهض وفي نفسك رغبة للبقاء مزيداً مع مسامريك.

هنا تشعر بقوتك على نفسك وبسيطرتك علـى زمامك وأنـك لا تنقاد، بـل تقود، لا ترضخ بل ترضخ.

ثم ترى هـذا بشكل تلقائي يجري على سائر ممارساتك وسلوكياتك في الحياة وفي الناس وفي نفسك.

إن الله يرزقـك بشـيء مـن مال، لكن ليـس مطلوبـا منك أن تنفق هـذا المال في برهة، وهنـا يأتي توجيه الحق سبحانه: ألا تبسـط يدك كل البسط حتى لا تقعد ملوماً محسوراً.

هذه هي المسؤولية الحقيقية التي يهبك المقسط إياها فهـو يعطيك زاد يومك وزاد غدك وما بعد غـدك وربما زاد عمرك كله في يوم واحـد أو شهر واحد أو سنة واحدة، تبقى أمامك أن تكون مقتسطاً في هذا الزاد وألا تنفقه جملة واحدة.

هنا يكـون الاعتـدال نقيـض التبذير خـلاف ما يُظن للوهلة الأولى على أنه شكل من غلـول اليد. إننا نحتـاج إلى أن نقسط في سائر حياتنـا حتى نقي أنفسنا الهمجية والفوضـى والبيولوجية، وهـذا بذاته يكون نقيض البخل الـذي هو مذموم في الشرائع والأعراف والمبـادئ الإنسانيـة لأن البخل نقيض الاقتسـاط، فالبخيل يغـل يده إلى عنقه ولا ينفق شيئاً مما آتاه الله سواء على نفسه أو على الآخرين.

الهوامش

١- العلـم بشقيه الإيجابي والسلبي، إذ يمكـن للعالم أن يستخدم علمه لما يرفّه ويسعد الناس، وكذلك يمكـن له أن يستخدم علمه لما يدمّر ويفتك بهم. فكم مـن عالم انتفع الناس بعلمهم، وكم من عالم اتقى الناسُ شر علمهم.

المصادر والمراجـــع

١- الوصايا - محيي الدين بن عربي- ط١ - دار الإيمان- دمشق ١٩٨٦م.

٢- جواهر القرآن -أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
دار إحياء العلوم -بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٥م تحقيق: د.محمد رشيد رضا القباني

٣- البرهـان في علـوم القرآن -فصل في عدد سور القرآن وآياتـه وكلماته وحروفه -محمد بن بهادر ابـن عبد الله الزركشي أبـو عبد الله- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيـم -دار المعرفة- بيروت ١٣٩١هـ.

٤- نفح الطيب مـن غصن الأندلس الرطيب -المقري والتلمساني- تحقيق إحسان عباس -منشورات دار صادر- بيروت ١٩٨٦م.

٥- فريدريك نيتشة -إنسان مفـرط في إنسانيته- ج٢ ترجمة محمد الناجي -أفريقيا الشرق- الدار البيضاء ٢٠٠١م.

٦- من المستطرف في كل فن مستظرف -شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي-منشورات وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٤م.

المادة المضادة وبداية الكون

موسى ديب الخوري ✿

ما هو الإنجاز الأهم في حقل الفيزياء عام ٢٠١٠م؟ إذا صدقنا ما جاء في مجلة معهد الفيزياء في لندن، Physics World، فإن السعفة الذهبية تعود إلى فريقين من مركز البحث النووي الأوروبي CERN توصلا خلال لحظات قصيرة جداً، كل على حدة، لرصد وضبط ذرات هيدروجين مضادة بل والتحكم بها. والهيدروجين المضاد مثله مثل الهيدروجين العادي، هو أبسط ذرات المادة، إنَّما المضادة، ويتألف من بروتون مضاد وبوزيتون (أي إلكترون موجب).

إن إمكانية التحكم بالمادة المضادة ودراستها سيتيح أخيراً فهم لماذا اختفت المادة المضادة من الكون. فبعد الانفجار الكبير مباشرة، أي منذ ١٣،٧ مليار سنة، كان الكون الوليد حاراً جداً وكثيفاً جداً ويشتمل على كمية متعادلة من الجسيمات المادية ومن جسيمات المادة المضادة. لهذا كان يجب أن تنعدم مكونات هذا الكون الوليد وتختفي بشكل إضاءة. وما كنَّا لنحصل سوى على فوتونات (لن نكون موجودين لكي نتناقش حولها). لكن يبدو أن جزءاً قليلاً جداً من المادة بقي ولم يختف، جزء ضئيل من المادة تفوقت فيه المادة على المادة المضادة، جزء لا يتجاوز واحداً من المليار. وما يريد العلماء معرفته هو لماذا وجد هذا الفارق البسيط أصلاً بين المادة والمادة المضادة.

للإجابة عن هذا السؤال، لا بد من إمكانية المقارنة بين المادة والمادة المضادة،

✿ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

وهما نظرياً انعكاس الواحدة للأخرى. غير أن عقبة كبيرة تحول دون هذه الإمكانية: فالمادة والمادة المضادة تتفانيان عند تصادمهما في إطلاق للطاقة. فمن ربع غرام من المادة المضادة يمكن أن نحصل على ما يكافئ قنبلة هيروشيما الذرية. إن شروط بقاء واستمرار أي جسيم مضاد في عالمنا المادي، حتى لو على فترة بسيطة جداً، هي شروط مستحيلة ومعدومة. فهذا الجسيم سوف يصادف دائماً مادة سيدمر نفسه بالاصطدام بها. ومن هنا الصعوبة البالغة في اكتشاف جسيم مضاد وفي التحكم به.

تبطيء الذرات

يمكن أن نفهم بشكل أفضل اليوم ما توصل إليه مؤخراً فريقا المركز الأوروبي للبحوث النووية من محاصرة ذرات من الهيدروجين المضاد. إنها نتيجة تتوج خمس عشرة سنة من الجهود والأبحاث التي بدأت عام ١٩٩٥م عندما تمَّ إنتاج أوّل تسع ذرات من الهيدروجين المضاد. وفي ذلك الوقت استطاع الفيزيائيون الحصول على هذه الذرات المضادة في حلقة الـ LEAR، وهي حلقة البروتونات المضادة المنخفضة الطاقة في CERN. وكانت التقنية شاقة وتشتمل على قذف ذرات عناصر ثقيلة بوساطة بروتونات مضادة، على أمل صدور أزواج الإلكترونات. البوزيتونات وأن ترتبط البوزيتونات مع بروتونات مضادة. غير أن ذرات الهيدروجين المضادة التي كانت تولد على هذا النحو لم تكن تعيش سوى ٤٠ جزءاً من المليون من الثانية، وكانت تقطع خلالها بضعة أمتار بسرعة قريبة من سرعة الضوء قبل أن تنعدم. وهذا يعني أنه لم يكن بالإمكان استخدامها أو التحكم بها.

وفي بداية القرن الحادي والعشرين انتقل مركز البحوث النووية الأوروبي إلى المرحلة التالية: إنتاج كمية معقولة من الهيدروجين المضاد تم كبحها أو تبطيء سرعتها. وكانت تلك المهمة الأولى في التجربتين أثينا Athena وأترب، حيث استفادتا من بناء جهاز جديد هو مبطئ أو كابح البروتونات المضادة (AD)، وكان قادراً على تقليص سرعة الجسيمات المضادة إلى عشر سرعة الضوء. ولكن حتى مع تقليص سرعة هذه الجسيمات المضادة إلى أقل من ذلك بوساطة تجهيزات مختلفة قبل خلطها مع البوزيتونات فإن ذرات الهيدروجين المضاد كانت لا تزال تحمل طاقة عالية جداً بحيث لا يمكن أسرها أو التحكم بها.

النجاح في أسر الذرات المضادة

كان لا بد بالدرجة الأولى من تحسين عملية الأسر أو الكبح لكي يمكن فيما بعد

الإمساك إن صح التعبير بذرات الهيدروجين المضاد. وكان أوَّل الناجحين في ذلك مجموعة ألفا Alpha (وهي اختصار لـ Antihydrogen Laser PHysics Apparatus) وقد نشرت نتائجها في المجلة العلمية المحكمة[1] Nature في ١٧ تشرين الثاني ٢٠١٠م. وقد عمل هذا الفريق للوصول إلى هذه النتائج على تحسين تجهيزات تجربة «أثينا» التي ورثها مباشرة عن الفريق السابق له. فبدأ بعملية الكبح ثم التخزين، من جهة لنحو ٣٠٠٠٠ بروتون مضاد تمَّ تصنيعها من قبل الـ AD في CERN، ومن جهة أخرى للبوزيتونات التي كانت تنتجها مصادر إشعاعية. ثم مزج الباحثون غمامة البروتونات المضادة مع غمامة البوزيتونات، الأمر الذي أدى إلى تكوين الهيدروجين المضاد. وتكمن الصعوبة الكبيرة في أن الذرات المضادة محايدة كهربائياً ولا يمكننا الاعتماد على شحناتها للتحكم بها كما نفعل بالنسبة للبروتونات المضادة أو للبوزيتونات. لكن لحسن الحظ، فإن هذه الذرات، ذات العزم المغنطيسي تتصرف كمغانط كهربائية ذات كثافة ضعيفة جداً. وبالتالي إذا جمعنا حقولاً كهربائية ومغنطيسية مناسبة يمكننا توجيهها وإرغامها على البقاء في الفخ أو بعبارة أخرى التحكم بها. مع ذلك، فإن هذه الطريقة غير فعالة ولا تؤثر على الذرات المضادة الحارة، وهي الأكثر حركة وسرعة. ولهذا ترك العلماء هذه الذرات تفلت منهم. وحدها ذرات الهيدروجين المضاد الباردة، وبالتالي الأبطأ، ظلت حبيسة الفخ لفترة زمنية قصيرة، حتى يتم تحريرها من أجل عدّها. وبعد محاولات وصل عددها إلى ٣٣٥ استطاع فريق ألفا أسر ٣٨ ذرة من الهيدروجين المضاد بشكل مغنطيسي، لفترة لا تقل عن ١٧٢ ميلي ثانية.

بعد أيام قليلة من فريق ألفا أعلن فريق أساكوزا Asacusa (اختصاراً لـ Atomic Spectroscopy And Collisions Using Slow Antiprotons) عن توصله إلى نجاح مماثل. يتألف هذا الفريق بشكل رئيسي من باحثين يابانيين، وقد اعتمد إستراتيجية مختلفة تتلخص على النحو التالي: قام هذا الفريق بتصميم فخ، ميزته أنه لا يأسر أو لا يفخخ! وشكلوا نوعاً من كرة صغيرة مجوفة من البوزيتونات حقنوا بداخلها بروتونات مضادة. وما إن تولدت ذرات الهيدروجين المضاد حتى كان من السهل قيادتها وتوجيهها مثل مغانط صغيرة، مستخدمين في ذلك العزم المغنطيسي الذي استخدم في تجربة ألفا للتفخيخ، وهكذا كانت هذه الذرات تخرج

تابعة محور الجهاز ومشكلة حزمة مضبوطة يمكن التحكم بها. وهكذا استطاع العلماء مشاهدة هذه الذرات المضادة وهي تنعدم عند خروجها من الجهاز.

توائم مضادة

بعد أن حصل الفيزيائيون على ذرات مضادة أصبح بإمكانهم سبرها من الداخل ومحاولة التأكد مما إذا كانت هذه المادة المضادة هي التوءم الحقيقي للمادة، وإذا كانت تحترم فعلاً أحد أسس النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات الدقيقة، والذي يسمى مبرهنة CPT (اقتران الشحنة والتكافؤ وانعكاس الزمن). وتؤكد هذه المبرهنة في الواقع أننا إذا قمنا بعملية ثلاثية تناظرية لكوننا - أي يتم تحويل كل جسيم إلى جسيمه المضاد، مما يعكس شحنته، وكل إحداثية مكانية تقلب بحيث يصبح اليسار يميناً والأعلى أسفلاً والأمام وراء، وأخيراً بحيث ينعكس الزمن- فإنه يكون للكون الناتج بالضبط السمات والقوانين الفيزيائية نفسها لكوننا الحالي.

يعني ذلك أن المادة المضادة يجب أن تتصرف مثل المادة. على سبيل المثال، عند قياس طيف ذرة هيدروجين مضاد، فإننا نحصل على القيم نفسها التي نحصل عليها عند قياس هذا الطيف لذرة هيدروجين عادية. بالمقابل، إذا تبين أن هذه المعطيات اختلفت، فإن التناظر CPT يكون مكسوراً (وهو أمر لم تثبته أية تجربة حتى اللحظة)، الأمر الذي سيفسر ربما لماذا تغلبت المادة على المادة المضادة مباشرة بعد الانفجار الكبير.

يفسر ذلك العالم الفيزيائي الياباني ياسونوري يامازاكي Yasunori Yamazaki، من مركز الأبحاث الياباني ريكن Riken، وهو يعمل لصالح التجربتين ألفا وأساكوزا معاً، فيقول: «إن مجتمع الأخصائيين في الهيدروجين كانوا مهووسين حتى الآن بتطور التقنيات الخاصة بتصنيع الذرات الباردة من الهيدروجين المضاد. أما الآن، فمع تدقيق وتطوير تقنياتنا في سبيل معالجة وضبط أفضل لذرات الهيدروجين المضاد، فإننا سنستطيع البدء أيضاً بإجراء تجارب فيزيائية حقيقية حول المادة المضادة».

هذا يعني أن أسر الهيدروجين المضاد لم يكن سوى مقدمة، وفاتح شهية دام خمس عشرة سنة. لكن الدخول في البحوث الجادة بدأ لتوه في عام ٢٠١١م، وخاصة مع البدء بدراسة ذرات الهيدروجين المضاد بدقة عالية بوساطة المطياف الليزري بالنسبة لتجربة ألفا، وبوساطة مطياف الأمواج الميكروية بالنسبة لتجربة أساكوزا.

ويعتبر ذلك أيضاً سبقاً عالمياً في هذا المجال. فقد أعلن جفري هانغست Jeffrey Hangst، وهو من جامعة أروس Aarhus في الدانمرك والمتحدث باسم تجربة ألفا: «إننا سنحاول البدء بقياسات حول ذرات الهيدروجين المضاد بمجرد عودة العمل في مركز الأبحاث النووي الأوروبي CERN في أيار ٢٠١١م». وهو ما تحقق فعلاً. وما سيحصل على الأرجح خلال العقد القادم كما يقول هو أننا سوف «نعمل بلا كلل لتحسين دقة هذه القياسات. إننا نبحث عن فارق بسيط جداً من المادة المضادة، يمكن أن يصل إلى جزء من المليار من المليار»[٢]. وعند الوصول إلى هذا المستوى من الدقة سيمكن الحسم فيما إذا كانت المادة والمادة المضادة انعكاساً الواحدة للأخرى أم لا.

السقوط إلى الأعلى

غير أن الصعوبات لا تنتهي عند هذا الحد. بل ثمة تحد أكثر جنوناً إن صح التعبير، وهو ما يتعلق بالجاذبية المضادة. ويتعلق الأمر هنا بمحاولة معرفة، ضمن حقل الجاذبية الأرضية، إذا كانت المادة المضادة تسقط بالطريقة نفسها التي تسقط بها المادة العادية. وفي الواقع، فإن النظرية التي يطرحها غابرييل شاردان تتنبأ بأن المادة المضادة لها كتلة سالبة[٣]. فإذا أردنا التبسيط يمكن تشبيه ذلك بتفاحة افتراضية من المادة المضادة على أرضنا، تنفصل عن شجرتها، لكنها بدلاً من الوقوع على الأرض (لتتعدم في انفجار هائل) فإنها تسقط نحو الأعلى!

وضمن هذا المنظور تمَّ تخيل تجربتين ستظهر نتائجهما نحو عام ٢٠١٥م أو بعد ذلك. الأولى هي AEGIS التي يتم التحضير لها في مركز البحوث النووية الأوروبي. أما الثانية فهي GBAR وسوف تطرح على إدارة المركز الأوروبي نفسه للبحث النووي CERN هذه السنة (٢٠١١م). يقول المسؤول عن التجربة الثانية «إن الفكرة تشتمل في الحالتين على تبطيء المزيد من ذرات الهيدروجين المضادة لكي نستطيع رؤية سقوطها ضمن الجهاز. وللوصول إلى ذلك تمَّ في التجربة الثانية اقتراح تصنيع ذرات هيدروجين مضادة مؤينة، أي بروتون مضاد مقترن مع بوزيتون. وبما أن هذه الذرة من الهيدروجين المضاد مشحونة فإنه يمكن تبريدها بشكل أكثر فعالية، أولاً من خلال حقول كهرمغنطيسية ثم عبر تبادل للطاقة مع أيونات البيريليوم المبردة. ولكي نحصل في النهاية على ذرات وليس على أيونات يتم إرسال فوتونات على الأيونات لكي تجعل البوزيتون الزائد «يقفز» دون تبديد الكثير من الطاقة إلى حالة الذرة المضادة.

لا يبقى بعد ذلك سوى مراقبة ورصد سقوط ذرة الهيدروجين المضاد. فإما سيكون السقوط مماثلاً تماماً، وعندها سوف يواسي العلماء أنفسهم بأن هذه التجربة ستظل محفوظة في كتب تاريخ الفيزياء، أو سيكون ثمة انحراف بسيط، أو أن الهيدروجين المضاد سيصعد بدلاً من أن يهبط، وعندها فإن ذلك سيؤدي إلى قنبلة إعلامية، وعلمية في الوقت نفسه، لأنه يخرق كل ما هو معروف. وفي الأحوال كافة، ومهما كانت النتائج، فإن العلماء يعملون منذ الآن على إعادة النظر في النماذج النظرية لفيزياء بداية الكون.

ما هي مصادر المادة المضادة؟

لقد وجدت المادة المضادة بغزارة مع الانفجار الكبير، لكنها اختفت من الكون. بالمقابل، فإن العديد من الظاهرات تنتج جسيمات مضادة جديدة بكميات ضئيلة جداً. وهذا هو الإطار الذي يحاول العلماء النفاذ منه إلى عالم قد لا يمكن التواصل معه مباشرة بأي شكل من الأشكال.

١- الجسيمات المضادة من الانفجار الكبير

وفق نظرية الانفجار الكبير، وخلال اللحظات الأولى من عمر الكون كان الهيجان الحراري هائلاً بحيث ولدت الجسيمات والجسيمات المضادة بكميات متساوية. وكان هذا الحساء البدئي كثيفاً جداً بحيث كان من المستحيل التمييز بين مكوناته. لكن الكون توسع وابترد بسرعة كبيرة، وانخفضت الكثافة وبدأت جسيماته الأولية تتمايز. كواركات وكواركات مضادة، وإلكترونات وبوزيتونات، إضافة إلى الجسيمات الرابطة بينها من فوتونات وغليونات. وسرعان ما اختفت المادة المضادة ممثلة بالكواركات المضادة وبدأت الكواركات تتجمع لتشكل المادة النووية. فهل بقيت بقية من هذه المادة المضادة في الكون؟ قد تكون هذه البقية أحد المصادر التي يبحث عنها العلماء على شكل جيوب من المادة المضادة.

٢- مصادر ثانوية

تُقذف الأرض بشكل دائم بدفق من الجسيمات يسمى الأشعة الكونية، وهو يصلنا من الشمس بل ومن نجوم عنيفة وبعيدة مثل انفجارات السوبرنوفا، وهي المرحلة الأخيرة من حياة نجم كبير الكتلة. وعندما يكون الإشعاع الكوني عالي الطاقة إلى حد كبير فإنه يمكن أن يُنتج كمية ضئيلة من الجسيمات المضادة، وبشكل أساسي البروتونات المضادة والبوزيتونات، عبر صيرورات تسمى «ثانوية». فعلى سبيل المثال، عندما يدخل هذا الإشعاع في تصادم مع

جسيمات غمامة من الغاز ما بين النجوم، فإن الطاقة المحرَّرة بوساطة الصدم يمكن أن تؤدي إلى تشكيل جسيمات مضادة جديدة، وخاصة من البروتونات المضادة. وعندما يضرب الإشعاع الكوني الغلاف الجوي للأرض، تتكون هنا أيضاً حزم من الجسيمات يكون ثمة بروتونات مضادة بينها وبوزيتونات. إن مصادر البوزيتونات كثيرة في مجمل أنحاء الكون. ذلك أن النوى الذرية كافة التي تتحلل بوساطة النشاط الإشعاعي تنتجها.

٣- مصادر افتراضية

تخيل بعض الفيزيائيين أن الكون انقسم إلى عالم من المادة وإلى آخر من المادة المضادة. وبالتالي فإن هذا الأخير سيضم نجوماً مضادة قادرة على تكوين الذرات الثقيلة المضادة.

لهذا يرى بعض العلماء أن المادة السوداء يمكن أن تكون مصدراً محتملاً آخر للجسيمات المضادة. وفي الواقع، فإننا لا نعرف بعد طبيعة هذه النجوم لكن أفضل ما يصدر عنها هو عبارة عن جسيمات تُصدر وهي تنعدم بروتونات مضادة وبوزيتونات وجسيمات أخرى.

المادة المضادة في الفضاء

مع فرق العمل الأرضية والتجارب التي تتم في المسرّعات، اعتُبر إطلاق التجربة AMS (اختصاراً للمطياف المغنطيسي ألفا) في أيار الماضي خطوة حاسمة على طريق حسم النقاشات حول وجود المادة المضادة في الكون، وبالتالي حول فهم بدايات الكون وطبيعة الظاهرات الملحوظة حالياً في الأرصاد الكونية.

إنها تجربة لرصد المادة المضادة لا سابق لها حيث حمل المكوك الفضائي أنديفور هذا الجهاز إلى متن المحطة الفضائية الدولية ISS على ارتفاع ٤٠٠ كلم فوق سطح الأرض. وإن كانت هذه التجربة قد بدأت قبل هذه السنة ولم تنجح لكنها استفادت من ذلك لتحسين أدواتها، وهي جاهزة كما يقول أحد العلماء لتجيبنا بوضوح حول إمكانية وجود مجرات مضادة!

وما نعرفه عن وجود المادة المضادة في الفضاء بشكل واضح وقابل للقياس أنها موجودة بكمية ضعيفة في الأشعة الكونية. وهي عبارة بشكل أساسي عن بروتونات مضادة وبوزيتونات تنتج كما ذكرنا عن الصيرورات المسماة «بالثانوية»: فعندما يصطدم بروتون من الإشعاع الكوني، محملاً بسرعة عالية جداً قياساً للمجرة، مع مادة الوسط ما بين النجمي، فإنه يمكن أن يؤدي إلى تشكل بروتون مضاد.

إن قوانين الفيزياء النووية تسمح بحساب الاحتمال المقترن بهذه الظاهرة المعيارية تماماً وتفسر دونما صعوبة تذكر دفق البروتونات المضادة المرصودة. وتمثل هذه الجسيمات المضادة نحو واحد من عشرة آلاف من الجسيمات. وهي نسبة ضعيفة جداً لكنها غير مهملة. لكن هذه المادة المضادة «الثانوية» كما تسمى لا تقارن مع حديثنا عن مجرات مضادة، وهي لا تشكل سوى مركبة بسيطة جداً من مكونات وكتلة وطاقة مجرتنا.

أما بالنسبة للعوالم المضادة، فلا تزال المسألة لغزاً كاملاً. وفق نظرية الانفجار الكبير، وجدت المادة والمادة المضادة منذ بداية الكون بنسب متساوية، كما أن القوانين التي تحكمهما هي نفسها. فأين اختفت المادة المضادة. يقول أحد العلماء بصيغة المرح إن نيل أرمسترونغ لم يضمحل عندما مشى على سطح القمر، فالقمر مكون من المادة فقط. ونحن نعرف أن مجرتنا كلها (باستثناء هذا المقدار الضئيل الذي نلحظ أثره في الأشعة الكونية من المادة المضادة) مكونة من المادة العادية. ولهذا فالسؤال المطروح هل المادة المضادة غائبة بالمثل عن الكون كله أم أنها ماثلة في مكان ما منه؟

يعتبر العلماء عموماً أن الكون مؤلف بالكامل من المادة. لكن أفكاراً جديدة بدأت تطرح وجود مناطق كونية بحيث تتقاسمها المادة والمادة المضادة. وبالتالي قد توجد مناطق تتوزع فيها المجرات المضادة التي تضم نجوماً مضادة تدور حولها كواكب مضادة، بل وربما علماء فلك فيزيائيين مضادين!

فإذا تمَّ الكشف مثلاً عن نواة كربون مضادة، فهذا يعني حتماً وجود نجم مضاد، إذ لا يمكن تصنيع مثل هذه النوى خارج النجوم. سيكون ذلك كشفاً كبيراً لاشك. أما إذا لم يمكن الكشف عن مثل هذه النوى، فهذا يعني انتصار الكون غير المتناظر، الذي يسِّر غلبة المادة على المادة المضادة. وهو السيناريو الذي يرجحه حتى اليوم معظم العلماء، لأنه كما يقولون، لو كان الكون مقسماً إلى مناطق مادة ومادة مضادة فمن المرجح أن تصادمات هائلة وحالات فناء كبيرة قد حصلت على تخوم هذه المناطق ولم يتم اكتشاف أية إشارة مرتبطة بمثل هذا النوع من «الفناء»!!

لكن دراسة المادة المضادة لا تنحصر في البحث عن النجوم المضادة. فثمة تحديات أخرى كثيرة مرتبطة بها. إن هذه المادة قليلة في الكون، ممثلة بنسبة قليلة جداً في الإشعاع الكوني، لكن ذلك قد يشكل ميزة

إذا تمّ التركيز على رصد البروتونات في هذه الأشعة الكونية. وهكذا يمكن أن نرصد بينها عدداً من البروتونات المضادة. أو بالمقابل يمكن أن نرصد ظاهرات هامة جدّاً تولد دفقاً ضئيلاً من المادة المضادة ويأتي في مقدمة هذه الظاهرات فناء الجسيمات من المادة السوداء.

نلامس هنا مسألة أخرى مركزية في الفيزياء الفلكية وفي فيزياء الجسيمات الأولية: وهو ما يعرف بالمادة السوداء. يقول العلماء إن ٩٩٪ من كتلة الكون غير مرئية. والجزء الأعظم من هذه الكتلة الخفية مكون من جسيمات غير معروفة لنا، على الأقل من جسيمات لا تنتمي إلى النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات.

إن هذه المادة السوداء ليست مرتبطة بالمادة المضادة بشكل مباشر، إنما بشكل غير مباشر لأنها يمكن أن تُصدرها. وفي الواقع، فإن أفضل دليل أو مرشح لدينا اليوم على المادة السوداء هو ما بات يعرف بـ «الجسيم الفائق التناظر». غير أن هذه الجسيمات الفائقة التناظر إذا اجتمعت، على سبيل المثال في المناطق الكثيفة مثل مركز المجرة، سوف تنعدم وتتفانى مصدرة كمية مساوية من المادة والمادة المضادة. إن رصد الفائض من هذه المادة المضادة الناجمة عن هذا الفناء هو أحد الطرق المفضلة لدى العلماء من أجل رصد المادة السوداء.

وهناك تجارب كثيرة تحاول اليوم العمل في هذا المجال، وخاصة التجربة الفضائية باميلا Pamela. كذلك فإن التجربة AMS تركز على محاولة الكشف عن هذه الجسيمات المضادة وقد تسلحت بتجهيزات غير مسبوقة فائقة الدقة، ناهيك عن محاولتها التي تعتبر على تخوم الغرابة لرصد مجرات مضادة.

نحو نظرية جديدة للكونيات

وفق النموذج المعياري فإن المادة والمادة المضادة يجب أن تكونا قد أنتجتا بكميتين متساويتين في بداية الكون. فهل انكسر هذا التناظر فعلاً؟ إن الإجابة على هذا السؤال ليست بسيطة كما يبدو للوهلة الأولى كما يقول غابرييل شاردان[4] Gabriel Chardin.

لكن متى ينتج انكسار التوازن بين المادة والمادة المضادة في السيناريو الذي تصفه النماذج الكونية الحديثة؟ يجيب شاردان إن الجسيمات والجسيمات المضادة كانت متواجدة بكميات متساوية وفق النموذج الكوني المعياري الذي بدأ مع الانفجار الكبير في بدايات الكون. وقد استمر هذا الحال حتى $3 . 10^{-5}$ ثانية من عمر الكون، أي خلال

الأجزاء الأولى من الثانية. وكان الكون عندها عبارة عن حساء من الكواركات والغليونات، حيث كانت الكواركات والكواركات المضادة لا تزال موجودة فيه بكميات متساوية عملياً. ولكن في هذه اللحظة بدأت تتشكل البروتونات والإلكترونات. وظهر انكسار شديد في التناظر. ولم يبق سوى واحد من المليار من المادة. أما السبب فلا يزال أحد أكبر الألغاز في الفيزياء.

لكن ما الذي يملي وجود هذا التناظر الأولي؟ ببساطة إنه النموذج المعياري في الفيزياء للجسيمات الأولية، وخاصة مبرهنة التناظر في الشحنة والمكان والزمان CPT، وهو مبدأ على كل نظرية جديدة في الفيزياء أن تحترمه. فالمعادلات التي تصف سلوك الجسيمات تقدم لنا حلين متناظرين لهما شحنات كهربائية وطاقات متعاكسة. ذلك كان الاكتشاف الكبير الذي حققه بول ديراك في عام ١٩٢٨م والذي قاد إلى مفهوم الجسيمات والجسيمات المضادة. ووفق مبرهنة التناظر CPT، فإن التناظر لا يتوقف هنا. فالخصائص الجوهرية لزوج من جسيم وجسيم مضاد، أي كتلتهما وقيمة شحنتهما وعزمهما المغنطيسي ومدة حياتهما، هي قيم متطابقة.

ونحن نعرف بعض جوانب أو مظاهر هذا الانكسار في التناظر. فعلى سبيل المثال، لقد رصدنا انكساراً في التناظر بين المادة والمادة المضادة، أو عدم توازن بينهما، في تحلل منظومتين من الجسيمات معينتين بدقة، الميزونات الحيادية K و B. لكن من دون أن يستطيع العلماء فهم هذا الانكسار بشكل فعلي أو تفسيره.

إن هذه الشروح ممكنة في إطار النموذج المعياري في الفيزياء، لكن هذا النموذج غير قادر على التنبؤ بقيمة أو مقدار هذا الانكسار. فلا بد اليوم في نظر الكثير من العلماء من تجاوزه. أضف إلى ذلك أن ما نعرفه اليوم من شرح التناظر بين المادة والمادة المضادة لا يسمح لنا بتفسير هذا المقدار الذي يشكل جزءاً من مليار من المادة الذي استمر وبقي بعد هذا الفناء الرهيب للجسيمات والجسيمات المضادة في بداية الكون هذه.

يعتقد الفيزيائيون أن هذا اللاتوازن قد حصل خلال مرحلة انتقالية في بدايات الكون. وهم يتصورون ثلاث إمكانيات لحدوث ذلك أو في الحقيقة لتفسير حدوث ذلك. ففي النموذج المعياري، هناك الحل الأول المتمثل بما سمي بمرحلة الوحدة الكبرى للقوى الأساسية، وهي ترجع إلى نحو 10^{-38} ثانية. وتوافق هذه المرحلة اللحظة

التي كانت فيها التفاعلات الأساسية كافة، باستثناء الجاذبية، ما تزال موحدة. ونحن لا نعرف في الحقيقة حتى الآن إن كانت هذه المرحلة قد وجدت فعلاً أم لا. إنما هي مرحلة يمكن أن يظهر فيها شرخ ما، يسمح بالتالي للبروتون بأن يتحلل إلى بوزيتون إضافة إلى جسيمات أخرى، أي إلى قيمتين متساويتين من المادة والمادة المضادة. غير أن هذا الحل يبدو اليوم بعيداً ولم يعد يجذب الكثير من العلماء، لأن عدم التوازن الترموديناميكي ضروري كي نجعل الكون ينقلب لصالح المادة.

أما الحل الثاني فهو ما يسمى الانتقال الكهرضعيف، أي اللحظة التي انفصلت فيها القوة الكهرضعيفة إلى تفاعلين، الضعيف والكهرمغنطيسي. وفي النموذج المعياري يفترض أن ذلك حدث في اللحظة 10^{-10} من عمر الكون. إن هذا الانتقال يمكن أن يحرض انكساراً شديداً في التناظر بين النيوترينوهات والنيوترينوهات المضادة، وهي المشاركات الحيادية للإلكترونات والبوزيتونات. لكن مثل هذا الانكسار لم يتم قياسه بعد إنما هو التحدي الذي تحاول مشاريع طموحة عدة القيام به، وهي التي باتت معروفة اليوم في أدبيات العلم بخزانات النيوترينوهات العملاقة. فإذا كان ثمة فعلاً شرخ في التناظر بينهما فإن ذلك سوف ينتشر ويظهر في عالم الطاقة المنخفضة جداً. وسيشكل ذلك نوعاً من آلية لعدم توازن كامن. غير أن آلية البحث هذه لا تزال حتى اللحظة غير كاملة إنما باتت تجذب اليوم الاهتمام أكثر فأكثر بين العلماء.

أما الحل الثالث فكان قد ذكر منذ ستينيات القرن الماضي، وهو أكثر هذه الحلول شطحاً إن صح التعبير. فهو يعود إلى المرحلة التي تشكلت فيها النوترونات والبروتونات أي إلى 10^{-5} . 3 ثانية. وعلينا أن نتخيل الكون قبل هذه المرحلة الانتقالية مثل نجم نيوتروني، فقد كانت كثافته لا تزال فائقة الشدة. أما الانتقال الذي أدى إلى المادة فقد أسفر عن كون شبه خال من المادة النووية. فلا بدَّ بالتالي من التأكد من عدم ظهور أية آلية فصل أو تمايز في هذه اللحظة يمكن أن تقود إلى وجود جيوب من المادة المضادة في الكون. وقد أدت فرضية وجود جيوب من المادة المضادة في الكون إلى نشر المئات من الأبحاث العلمية حول تأليف النوى في بدايات الكون هذه. مع ذلك، يُعتقد حالياً أن قطرات المادة المضادة التي كان يمكن أن تتشكل في مرحلة 10^{-10} ثانية لم يكن لها الحجم الكافي الذي سيسمح لها بمقاومة الفناء.

تظل هذه الحلول كافة ماثلة في إطار النموذج المعياري في علم الكونيات المعاصر. مع ذلك هناك أفكار وطروحات حديثة تخرج عن إطار النموذج المعياري نفسه. وهذا يعني أنها تطور علم كونيات جديد تماماً. وأحد الذين يمثلون هذا الاتجاه هو غابرييل شاردان.

كان النموذج المعياري للكونيات قد تعرض لهزة كبيرة في عام ١٩٩٨م. فقد أدى اكتشاف تسارع التمدد الكوني إلى مفاجأة كبيرة. وكان لابدَّ لتفسير الظاهرة من إدخال مركبة دفع سالبة، هي ما سمي «الطاقة السوداء» في النموذج. ولدينا نموذج على مثل هذا التعديل في الثابتة الكونية، وطاقة الفراغ، التي كان آينشتاين قد أدخلها. وتعمل هذه المركّبة المضافة مثل قوة جاذبية دافعة، أي على عكس الجذب المألوف بالنسبة لنا. فتحت تأثيرها تتباعد المجرات بشكل متسارع الواحدة عن الأخرى. ومع أن هذا الطرح لم يرض الفيزيائيين العاملين في هذا المجال منذ عقد من الزمن، لكن غالبيتهم مقتنعون به اليوم. وتظل بعض النقاط التي تثير التساؤلات وتحتاج إلى حلول. لكن ثمة أمر واحد على الأقل مثبت بشكل مؤكد، وهو أننا لا نعيش في كون على حافة الانهيار والذي يتباطأ توسعه كما اقترح آينشتاين Einstein ودو سيتر de Sitter.

قاد هذا الاكتشاف الجديد عدداً من العلماء إلى محاولة طرح نموذج كوني جديد. وقدم شاردان أنموذجاً متماسكاً يثير النقاش حالياً بين العلماء. وقد بدأ بإعادة النظر بالنموذج السائد نفسه. وتساءل إن كنَّا مستعدين لإدخال مركبات دفع أو ضغط سالبة فهل نحن في عالم متناظر بشكل كامل كما كان يتخيل ديراك، حيث تتواجد المادة والمادة المضادة معاً، حيث توافق المادة الكتلة الموجبة، والمادة المضادة للكتلة السالبة؟

ولكن ما هي الكتلة السالبة؟ إذا أخذنا صورة لشبه ناقل، بالكتروناته وثقوبه. فالإلكترون يوافق منفذاً من الكثافة في شبه الناقل في حين أن الثقب يوافق تشوهاً خفيفاً جداً في الكثافة. فبالنسبة لوسط شبه الناقل يكون للإلكترون كتلة موجبة، وللثقب كتلة سالبة. وبتطبيق هذه الصورة على النموذج الكوني فإن الفراغ هو شبه الناقل، والجسيمات والجسيمات المضادة توافق الإلكترونات والثقوب. هكذا يمكن أن نعتبر الفراغ، ذا الكثافة المعدومة، مسكوناً بالجسيمات، وبالتالي توجد فيه كتل موجبة، وبالجسيمات المضادة ذات الكتل السالبة. وتحت تأثير حقل جاذبي يمكننا أن نتصور على هذا النحو أن المادة تسقط مثلاً في حين أن المادة المضادة تصعد أو تنقذف للأعلى،

تماماً مثـل الثقوب «ذات الجاذبية السالبة» بتأثـير الثقالـة في شبه الناقـل. ومع مرور الزمـن تتوسع الكتل السالبة في حين تتجمع الكتل الموجبة فيمـا يشبه الجدران والسدم والحشـود. إنهـا رؤيـة غير معتـادة لكنها ممكنة التصـور تماماً. وهكذا يرى شاردان علم الكونيات من منظور تناظري من خلال الكتل الموجبة والسالبـة والتي توافق المادة والمـادة المضـادة. تلك هـي الفرضية التي طورها شاردان مع أحد طلابه.

وما يتميز به هـذا النموذج الجديد أنه ليس بحاجة إلى ما سمي خلال العقد الماضي بالمادة السـوداء ولا إلى مـا سمي بالطاقة السوداء. هكذا، لا يكـون علينا البحث عن ماهيـة هذه المادة العاتمة ولا محاولة فهم لم كان تطـور هاتين الكينونتين، المادة والطاقة العاتمتين، مختلفاً جـدّاً خلال تاريخ الكون ولمـاذا كان على الطاقة السوداء، التي كانت مهملة عملياً أو شبه معدومة خلال المليارات العشـر الأولى من عمر الكون أن تصبح هي السائدة فيه بعد هذا التاريخ.

في هـذا النموذج لا نعـود بحاجة أيضاً إلى تسارع التمـدد الكوني. فمع هذه الكتل من *المـادة السالبة والموجبة*، نكون أمام كون لا يتباطـأ ولا يتسارع أبداً. فالتوسع الكوني يستمر إنما بشكل هادئ! ولهذا فإن المراحل البدئية للكون تدوم لفترة أطول بكثير، فعلى سبيل المثال تتحـول الدقائق الثلاث الأولى مـن عمر الكون التي كانـت ضرورية لخلق النوى الثقيلة في النموذج المعياري إلى ثلاثين سنة في نموذج شاردان.

يقول شاردان عـن نظريته إنها لا تزال في نظر العلماء غير مفهومة وتعتبر كنظرية غريبـة بل وشاذة. لكن مـع ذلك بدأ فريقه محـاولات لدراسة الجاذبيـة في إطار هذا النمـوذج. وبدأت الفكرة تنتشـر في الواقع أكثر فأكـثر حيث تعتـبر الجاذبية كظاهرة منبثقة، مرتبطـة بخصائص الوسط الذي ندعـوه الفراغ. وفي هـذا المنظور يمكن أن تكـون الجاذبية نوعاً مـن ردة فعل للفراغ، واستقطاباً تحرضه أجسام ذات كتل موجبة تتمركـز أو تتجمع، أو تحرضـه كتل سالبة تتباعـد. وبالتـالي لا تعـود الجاذبية قوة بذاتها.(٥)

يعود اليوم علـم الكونيات ليحتل مركز الاهتمام في الدراسات الفيزيائية. وترتبط النظريـات الكونية بشكل مباشر بفهم تطور المادة منذ بدايات الكون. بالمقابل يطرح بناء *النمـاذج الكونية تصورات جديـدة* لتاريخ الكون ترتكز على إعادة النظر في مفاهيمنا التي بنيت خلال القرن الماضي.

الهوامش

١- راجع مجلة

Nature 17 novembre 2010.

2- Pierre Barthélémy, «Les physiciens ont capturé des antiatomes», La Recherche, no 450, p. 39.

3- G. Chardin, « Un Univers plus symétrique qu'on ne le pense ? », La Recherche, no 450, p. 49.

4- A. Benoit-Levy and G. Chardin, »Do we live in a 'Dirac-Milne' universe?« arXiv:0903.2446 ; A. Benoit- Levy and G. Chardin «Observational constraints of a Milne Universe» arXiv:0811.2149 ; thèse de A. Benoit-Lévy, http://tel .archives-ouvertes.fr/

5- Hélène Le Meur, entretient avec G. Chardin, « Un Univers plus symétrique qu'on ne le pense », La Recherche, no 450, p. 49, Paris 2011.

المراجـــع

1- La Recherche, La traque de l'antimatière, Dossier, no 450, 2011.
2- La Recherche, Cécile Michaut, « L'usine à antimatière », février 2003, p. 60.
3- La Recherche, Franck Daninos, «L'antimatière questionne toujours le Big Bang», janvier 2005, p. 52.
4- La Recherche, Jean Orloff, « retrouvera t- on l'antimatière ? », novembre 2006, p. 31.
5- La Recherche, Dossier «Matière noire», septembre 2010, p. 38.
6- Gabriel Chardin, L'Antimatière : la matière qui remonte le temps, éditions Le Pommier, 2010.
7- Frank Close, Antimatter, Oxford University Press, 2009.
8- François Vanucci, Le vrai roman des particules élémentaires, Dunod, 2010.
9- Alain Mazure et Vincent le Brun, Matière et antimatière, Dunod, 2009.

Web
>>http://tinyurl.com/cern-antimatter
>>www.ams02.org/
>>http://tinyurl.com/cern-decelerateur
>>http://alpha.web.cern.ch/alpha/
>>http://asacusa.web.cern.ch/ASACUSA/

الأصولية والإرهاب والمقاومة

أحمد عمران الزاوي ✪

طَغَت في الفترة الأخيرة موجة من العنف قتلت ودمّرت وخرّبت لا على التعيين حيث عرف العالم أسلوباً جديداً.. لم يعرفه من قبل.

إنه أسلوب متميز، بهير العواطف، دامي الخطا، يستهدف حياة الناس وأمنهم وحضارتهم، لم يعرف التاريخ أشباهاً لمن نعرفهم اليوم.

هؤلاء تصل بهم «غيبوبة الوعي» إلى أن يتمنطق واحدهم بنطاق من الموت فيتفجّر مع نطاقه بين جمع من الناس، ويتحول جسده إلى شظايا من اللحم والعظم تقتل وتجرح.

الاستشهاديون في التاريخ الذين هم «أحياء عند ربهم يرزقون» كانوا يخوضونها ضد أعداء الحق أملاً في أن يعيشوا بقية العمر في دولة الحق.

ولكن متمنطق الموت هذا يذهب وهو مصمم على أن لا يعود.

فأية قضية، وأي عداء بينها وبين ذلك التجمع المدني الأعزل التعيس، وهو لم يقم بحركة خصامية أو كلمة عدائية؟

إن كانت لديه قضية أغلى عليه من نفسه فذلك لن نجادل فيه.

إلا أن ما يجب أن نسأله عنه هو: هل بين هؤلاء الصرعى الذين تساقطوا وتفتت أجسادهم من رجال ونساء وشيوخ وأطفال من كان خصماً لقضيتك؟

وإن كان بينهم واحد أو اثنان أو أكثر.. فما كان ذنب المئة الذين نَثَرَتهم متفجرتك أشلاءً وأعضاء؟؟

✪ باحث في التراث العربي وأديب ومحامي.

يظل السؤال قائماً في وجه ذلك التعيس، وفي وجه دافعيه إلى القتل، ويظل من دون جواب.

إن ما جرى وما يجري مؤسف حقاً.

وإن مما لا يقل عنه: أنه استُثمِرَ في الميدان السياسي.

لقد اتخذ منه رجال السياسة غطاءً ومبرراً لتصرفات ومواجهات أشد وأقسى ويبقى الشعب التعيس الأعزل هو الذي يدفع فاتورة الدم التي تصدر عن كليهما منذ أن وقف «دبليو بوش» أمام البرجين المتداعيين معلناً أنه سوف يخوضها حرباً صليبية تذكر الناس تلك الخطب النارية التي ظل البابا أربانوس يُشعِل بها عواطف الجماهير في المدن الأوروبية محرضاً على حرب مدمرة ضد العرب والمسلمين.

الفرق بين «بوش» و«أربانوس» أن الأوّل لم يقدم مبررات في حين أن بوش قال: القتل هو عقيدة المسلمين وقتل كل من هو غير مسلم هو جهاد يُثاب عليه بالخلود في الجنة.

القتل والعنف: هما الإرهاب.

القتل والعنف: هما المقاومة.

القتل والعنف: هما الأصولية.

جميعها صناعة إسلامية تطبّق أوامر الإسلام وتعاليمه.

فمبدؤهم القرآني: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ..) البقرة ٢/١٩١ هو أمر عقائدي لجميع المسلمين في أن يقتلوا غير المسلمين.

وثمة أمر قرآني آخر جاء في الأنفال: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ..) الأنفال ٨/٦٠.

في المعاني اللغوية للمفاهيم الثلاثة:

الإرهاب: هو من الثلاثي «رَهَبَ» أي خاف، وفي حديث الدعاء: (اللهم زدني بك رغبة ورهبة).

إذ كلما ازدادت الرغبة في الله ازداد الزهد في مفاتن الدنيا.

وكلما ازدادت الرهبة من الله، أي الخوف منه، ازداد الابتعاد عن المعاصي حتى يلقى الخائف ربه وهو نظيف منها.

والأصولية: هي من «أصْل» ومن معانيه الحسب. وهو المعنى الذي عاد بالقتل والعنف إلى الحسب الإسلامي الذي يأمر أتباعه - كما يزعمون - بقتل الكفّار.

والمقاومة: مشتقة من فعل «قاوم» أو جابه وهي لا تكون إلا في حالة رد الاعتداء الذي سمته القوانين الوضعية في العالم (دفاعاً عن النفس أو العرض أو المال).

المقاصد القرآنية الحقيقية

الإرهاب:

لقد وردت كلمة الإرهاب بمشتقاتها في القرآن بالسور الآتية: «البقرة»، «الأعراف»، «الأنفال»، «النحل»، «القصص»، «الحشر»، «الأنبياء».

فلم يرد في أي منها ما يعني القتل أو يشير إليه.

إنها في أماكنها بالسور تتحدّى أي قارئ أو مفسّر أن يجد في أيّة آية من تلك الآيات دعوةً إلى القتل أو أمراً به.

حتى:

إن كلمة القتل بحروفها الصريحة، وباشتقاقاتها العديدة وردت في أكثر من ثلاثين سورة قرآنية تتحدى بدورها أن يجد أي قارئ لها أو مفسر أن آية منها تحلل «القتل العشوائي» أو «تحرض عليه» أو «تعتبره من عقائد الإسلام».

بلى: ثمة قتل.. ولكن وضع الإسلام له شروطاً شديدة وأحاطه بظروف خاصة[1].

الأصولية:

- هي في الإسلام:

- الإيمان بالله واليوم الآخر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبغي.

- الحض على التعارف بين البشر من دون تفريق في الجنس واللون واللغة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..) الحجرات ٤٩/١٣.

«الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» حديث شريف.

«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» حديث شريف

- وفي المسيحية:

تحددت الأصولية بما جاء في إنجيل متى نقلاً عن السيد المسيح أنه قال:

«قد سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (متى - ٤٣/٥ حتى ٤٨).

المقاومة:

التي قد تنتهي بالعنف والقتل..

إلا أنها لن تكون مقاومة إذا تجاوزت دفع الأذى حتى - ولو سمح بها الشرع

- حدد ظروفها وقيدها بشروط وأهم تلك الشروط ألا تنقلب إلى مهاجمة.

لقد أخذت المقاومة غايتها من اسمها الذي دلت عليه حروفه.

أي: هي مقاومة الهجوم الذي تأكد وقوعه.

حتى إذا كان لا بد من المقاومة بالمثل «القتل بالقتل».

برزت شروط الإسلام للقتل بأنواعه كافة.

المقاصد القرآنية من آيتي البقرة والأنفال

أ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) البقرة ٢/ ٤٠

فالآية: هي خطاب صريح يذكّر بني يعقوب (إسرائيل) بنعم الله عليهم وتأكيده على تحذيره لهم إذا لم يوفوا بالعهود فالوفاء المطلوب منهم هو «شكر الله».

لأن الحديث عن النعمة - كما جاء في الحديث - هو شكر.

فالرهبة هنا هي معتمد حديث الدعاء الذي سبق ذكره.

ومعناه: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله. فاتقوا بصدق الإيمان يوم تلاقونه فهو جبار لا نجاة من حسابه، ولكن رحيم كريم أغدق رحمته على خلقه لم يطلب غير الإيمان به.

مع أن الإيمان ليس حاجة لله بل هو حاجة للإنسان.

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ..) (الكهف ١٨/ ٢٩).

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان ٣١/ ١٢).

ب - (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ..) (الأنفال ٨/ ٦٠).

فالقوة في ذلك الوقت هي القدرة على الرمي.

وقد أثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» والخيل كانت أسرع وسائل الإيصال في ذلك الزمن.

فوسيلتا الإرهاب «القوة ورباط الخيل» - وإن تغيرتا مع الزمن - فقد ظلتا رمزاً لإخافة العدو.

في زمن القرآن كانت القوة بالرمي.

وكانت الخيل أسرع وسائل الإيصال ولكن بدل الرمي بالسهام صار الرمي بالرصاص والمدفع والصاروخ وقذائف الطيارات.

وبدل الخيل صارت وسائل الإيصال، «السيارة» و«الطيارة» و«الدبابة» و«البارجة»

ولكـن الاستعمـال الشرعي لهـذه الوسائل مشروط به نيـة تخويف العدو المهاجم وبث الذعر في نفسه لكي يعود عن عدوانه.

هذه الغاية القرآنية أباحت عرض أقصى مظاهر القوة أمـام العدو ليدرك أن ما هو مقدم عليه سوف يلقى مقاومة شديدة.

ومما يقطـع في اليقين بهذه الدلالة، أن الآيـة التالية في الأنفال بينت أن العرض إن فعل فعله وأقنع العدو بخطورة الأمر فطلب السّلـم حينئذٍ يجـب أن يُلبى طلبه فما كان مظهر الإرهاب للحرب بل للردع عنها.

(وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا..) (الأنفال ٨/٦١).[٢]

شروط القتل في القرآن:

أنـواع «القتـل» وأسبابـه متعـددة في القرآن.

فهناك:

- المقاومـة أي مقاومة القاتل، الذي لم يعد يردعه رادع.
- و – الـذي يحـارب الله ورسولـه (٥/٣٣).
- والقصاص (٢/١٧٨ – ١٧٩).
- فالمهاجم قاصداً القتل.
- والذي يحارب الله[٣] ورسوله.
- والمعتدي على المؤمنين بالقتل.
- والقاتل بغير حق.[٤]

أنواع القتل هذه لا يمكن أن تكون شرعية إلا إذا توافرت شروطها أو مبرراتها.

لأن فصل الـروح عن الجسد هو في يد الله وبأمره.

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) (الواقعة ٥٦/٦٠).

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) (ق ٥٠/٤٣).

فإذا قامت مـبررات من أحد من الناس أجـاز الشـرع تعجيـل العقاب عـن طريق البشر.

غـير أنهـا جميعها لا تخـرج من معنى الجزاء على ما قدم.

وجميعها يجـب ألا تتجاوز حجم الفعل السابـق لأنها «رد على فعـل» فإن تجاوزت حدود الرد كانت اعتداء محظراً في الشرع.

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (٢/١٩٠).

(.. فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٢/١٩٤).

فالإباحـة التـي منحـت إلى المسلمين بالقتال مشروطة بشرطين:

أولهما: أن يصـدر قتال ضده من الغير أي أن يكون الفعل الإسلامي ردّاً.

الثاني: أن لا يتجاوز الرد بالوسائل والحجم ما كان في الفعل الأول.

وإباحة الاعتداء للمسلم مشروطة بشرطين أيضاً:

أولهما: أن يقع عليه اعتداء.

الثاني: أن يكون الرد مماثلاً (بمثل ما اعتدى عليكم) لأن تجاوز المماثلة يصبح اعتداءً لا يحبه الله.

عفواً أيها القارئ:

فأنا لم أتوسع في عرض المعاني اللغوية والقرآنية لمفاهيم «الإرهاب» و«المقاومة» و«الأصولية» إلا لدحض سوء التفسير الذي جاء من الغربيين «الأميركي والأوروبي» فعبّأوا به عقول شعوبهم والأكثرية الساذجة من أمتنا.

أينما وقع حادث عنيف.

أينما وقع قتل أو تفجير أو تدمير.

ألبسوه قبّعة الإسلام وقالوا تلك هي أوامر الدين الإسلامي لأتباعه.

فقتل غير المسلم هو جهاد في سبيل الله يكافأ المجاهد القاتل عليه بالجنة.

هذه القناعة التي خلقتها «حرفية التربية» و«ضحالة الثقافة بالتراث الإسلامي» هي التي قولت بوش ما قاله عن الحرب الصليبية الجديدة.

وهي التي قولت وسائل الإعلام في الغرب عند كل تدمير وعنف.. ما قالوه.

نعم:

قد يكون بعض القتلة والمفجرين أو المتفجرين عرباً مسلمين أو غير مسلمين.

ولكن نعم أيضاً:

- لا يمكن أن يكون الإرهاب قتلاً.
- ولا يمكن أن تسمّى المقاومة قتلاً.
- ولا يمكن للأصولية الإسلامية أو المسيحية أن تسمّى قتلاً.

ومثلما:

- لا يمكن أن يوصف ثوار الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي ولا الاستشهاد الفرنسي ضد الاحتلال النازي ولا شهداء الروس في ستالينغراد بأنهم قتلة عشوائيون.
- لا يمكن أن يوصف بهذا الوصف الفدائيون الفلسطينيون ضد الاحتلال الإسرائيلي، ولا مقاومة لبنان ضد الغزو الصهيوني والأميركي ولا مقاومة العراقيين ضد الاحتلال الأميركي والإنكليزي.

قد يندس بين المقاومين والفدائيين بعض ذوي المطامع السياسية ولكن ذلك يظل ضمن الحدود غير قادر على حجب الحقيقة.

لولا الاحتلال الإسرائيلي، لولا قضمه المستمر من الأرض العربية، لولا تهجيره ملايين الفلسطينيين وتركيمه في السجون عشرات الألوف منهم، لما كانت المقاومة في الأرض المحتلة ولما كان الموت في نظر

الفلسطيني أهون عليه من عيش الهوان.

ولولا الاحتلال الأميركي على العراق واستيلاؤه على أرضه ومائه وسمائه ونفطه وخيراته، لما كانت المقاومة العراقية.

فلا نحن ولا أي منصف يستمرئ القتل دون سبب.

ولكننا نحن وسوانا نقول: صدق الشاعر إذ قال:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً

فما حيلة المضطر إلا ركوبها

الأصولي العربي الحقيقي سواء أكان مسيحياً أم مسلماً لا يمكن أن يقتل إلا دفاعاً عن النفس أو الأسرة أو الوطن.

قد يكون إرهابياً، ولكن بالمعنى الشرعي أي إظهار منتهى الاستعداد لردع المعتدي عن اعتدائه فإن لم يفعل الإرهاب الشرعي فعله تحوّل إلى مقاومة فالمقاوم العربي مسلماً أم مسيحياً ملزم أن لا تتعدى مقاومته حدود الاعتداء وألا تتجاوز المماثلة وإلا أصبحت اعتداءً مخالفاً لأحكام الدين لأن الله لا يحب المعتدين.

جميعنا استنكرنا:

تفجير برجي واشنطن والتفجيرات الأخرى ووصفناها بالوحشية وقلنا: إذا ثبت أنه كان بين المفجرين مسلمون فإنهم لم يحملوا من الإسلام غير الهوية الورقية أما الأخلاق والشريعة والأصول الدينية فهم عنها غرباء.

ولكننا أيضاً:

- استنكرنا - وما نزال - قول بوش «إن الإسلام دجل "ديني» وأنه «سوف يخوض ضد الإسلام حرباً صليبية».

- استنكرنا ولا نزال احتلال فلسطين من البحر إلى النهر واستنكرنا مجازرهم في قبية ودير ياسين وجنين ورام الله ونابلس والضفة وغزة واستنكرنا - وما نزال - اصطياد قادة الفكر والسياسة من فلسطين في السيارات والبيوت والطرقات مثلما تصاد العصافير.

- استنكرنا وما نزال ذلك الحصار والتجويع اللذين فُرضا على من تبقى من الفلسطينيين في فلسطين حصاراً وتجويعاً حتى الموت أو القبول بالمقايضة على المبادئ والأهداف القومية.

- استنكرنا- وما نزال:

- ما جرى ويجري في العراق.

- استقلال الأكراد في شماله إدارياً وتشريعياً وثقافياً وحدودياً حتى عَلَمُ العراق اختفى من سماء كردستان.

- انغماس وسطه وجنوبه بنزاع طائفي يتقاضى كل يوم مئات من القتلى والجرحى والمشوهين ومئات من السيارات المحترقة والبنايات المهدمة.

- قال العراقي لأخيه العراقي، وقال العربي للعربي.

قبل الاحتلال كان علم العراق يرفرف مؤكداً على وحدته شمالاً وجنوباً ووسطاً، أما اليوم فقد تشتت شمله وتقطعت أوصاله وبانت ملامح دولتين تاليتين: «شيعستان» و«سنستان».

اليوم اختفت كلمة عربي حتى أضحت حشرجة في الصدور.

قبل اليوم كان يسود العراق كبت ديكتاتوري غاشم، أما اليوم فقد ساد إلى جانب الكبت حصار وجوع وفقر ثقافي وحضاري كما صار القتل نهجاً يومياً بلا انقطاع.

في الثاني عشر من الشهر السادس من عام ٢٠٠٦م أذيع أنه نتيجة اشتباك بين قبضة من متطوعي حزب الله وبين دورية إسرائيلية في جنوب الجنوب اللبناني، فقد قتل سبعة من جنود الدورية وأسر اثنان ودمرت دبابة.

امتلأت الدنيا قلقاً بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها على مصير الجنديين.

تعاقبت الوفود وامحّت أسلاك الهاتف وسقطت كواهل البرقيات من أميركا رئيساً وحكومة ومن انكلترا وفرنسا وأوروبة بأجمعها رؤساء وحكومات.

كوفي عنان ومجلس الأمن والأمم المتحدة الجميع هددوا حزب الله بأنهم سوف يشنّون عليه حرباً تحرق الأخضر واليابس، وحينما رفض ما فرضوا وطالب بإبدال الأسرى بالأسيرين خاضوها في ثلاثة وثلاثين يوماً حرباً دمرت البشر والشجر والحجر واشتركت فيها الطيارات والدبابات والبوارج والقاذفات مع الجنود المدججين بالأسلحة حتى الأسنان.

وأسقطوا على الجنوب من المتفجرات ما يزيد على قوة قنبلتي «هيروشيما» و«ناغازاكي» ولم يتركوه إلا بعد ضغط دولي.

ولم يتركوه إلا بعد أن زرعوا في جنوبه مليوناً ومئتي ألف لغم وقنبلة عنقودية.

إن كانوا قد صنفوا حوادث «القتل» و«التدمير» و«العدوان» في حقل الإرهاب فهم:

- خاطئون خطأً لغوياً وشرعياً.
- وهذا التصنيف ينطبق على ما فعله ويفعله الاستعمار في بلادنا وفي كل مكان.

لن أقول: يا أبناء الأفاعي - كما قال السيد المسيح.

بل أقول: أيتها الأفاعي:

بأي منطق أخلاقي اعتبرتم أسر الجنديين تجاوزاً وعنفاً.

واعتبرتم ما جرى في لبنان وما جرى ويجري في العراق ديمقراطياً وعدلاً؟

بأي منطق اعتبرتم شارون «رجل السلام» وهو جزار صبرا وشاتيلا أحد أبرز الإرهابيين اليهود ورئيس حزب الليكود، واعتبرتم حسن نصر الله إرهابياً وعرضتم رأسه في المزاد حتى تجاوز العشرة ملايين دولار، مع أنه صاحب الوعد الصادق وسيد من قاوم الاحتلال ودافع عن الوطن؟؟

بأي منطق أضفتم جميع حوادث العنف والقتل والتدمير إلى المسلمين إضافةً دينية عقائدية مع أن الشرع الإسلامي حظر قتل النفس إلا بالحق؟؟ حتى القتل بالحق اعتبرته الشريعة قصاصاً يؤدي إلى تخفيف الجرائم؟

عرض بعض صور العنف

- أخبر يشوع بن نون شعب اليهود بأن الرب كلّفه أن يقول لليهود عن لسانه «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم أعطيه لكم..»

فاعتمد على راحاب الزانية في فتح أبواب سور أريحا فحرقها وقتل من فيها من البشر وما فيها من الحيوان وهكذا كانت إرادة الرب - كما قال يشوع.

وكلفه الرب أن يعلن لليهود سماحه بقتل «الكنعانيين والحثيين والحوّيّين والفرزيين والجرجاشيين والأموريين واليبوسيين» وامتلاك أراضيهم.

ذلك كان من الماضي.

وأما اليوم فموجات اليهود العسكرية ومروحياتهم الحربية وطياراتهم وبوارجهم ومدافعهم وسجونهم التي تناولت غذاءها جميعاً من اللحم الفلسطيني.

هل هذا.. صناعة إسلامية.

- الحربان العالميتان خلال القرن العشرين اللتان تقاضتا من الجنس البشري أكثر من سبعين مليوناً عدا الآلاف المؤلفة من الآليات والأسلحة المحطّمة.

هل كان ذلك من دَجَلٍ ديني إسلامي؟؟

- وما جرى في الفيتنام وكوبا وصربيا وأسكتلنده..

هل قام به مسلمون؟؟

عرض بعض الآراء

سوف أعرض صوراً ثلاث لافتتاح مدينة القدس..

اثنتان: قام بهما المسلمون.

وواحدة: قام بها الصليبيون.

ولن أعرضهما من مرجع عربي أو إسلامي، بل من مرجع أميركي يهودي هو «قصة الحضارة» لمؤلفه «وول ديورانت».

وهو أي المرجع من أشهر المراجع

التاريخية يقع في /٢٠/ مجلداً وكل مجلد يحتوي على جزأين.

- قال وول ديورانت في /ص ٧٦/ من المجلد (١٣ - ١٤):

«وافق صفرونيوس بطريرك القدس على تسليمها صلحاً بشرط أن يأتي الخليفة بنفسه فيشرف على وثيقة الصلح فكتب أبو عبيدة بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقبل وقدم إلى القدس، فدخلها ببساطة دونها كل فخامة في التاريخ كان يحمل كيساً من الحب وكيساً من التّمر ووعاء فيه ماء وصحناً من الخشب فكُتبَت وثيقة الاستسلام تحت إشرافه وسميت العهدة العمرية».

يقول ديورانت:

«لقد أمنهم عمر على كنائسهم وطقوسهم وأعمالهم ولم تنزل نقطة من دم، ومكث في القدس عشرة أيام ثم غادرها عائداً إلى المدينة».

- وفي /ص٢٥/ من المجلد (١٥ - ١٦) قال ديورانت:

«وقف الصليبيون في السابع من يونيو سنة ١٠٩٩م (أي بعد أكثر من أربعة قرون على دخول عمر) عند أسوار أورشليم - إيليا - .

وفي ١٥ يونيو قاد جودفري وتانكرد رجالهما فتسلقوا الأسوار وسقطت المدينة بعد أن استسلمت الحامية.

يقول القس (ريموند الإنجيلي) شاهد العيان:

شاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقُتل غيرهم رمياً بالسهام أو أُرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم يُعذّبون عدة أيام ثم أحرقوا في النار.

ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدق وأوفى فيقول:

النساء كنَّ يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضّع كانوا يُختطفون بأرجلهم عن أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأبراج أو تهشّم رؤوسهم بدقّها بعُمُد الحديد وذُبِح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة.

- لما اقترب صلاح الدين الأيوبي من المدينة خرج أهلها يعرضون عليه الصلح.

قال لهم: سوف أترك لكم حرية تحصينها وحرية الزراعة حتى على بعد /١٥/ ميلاً عن أسوارها، وسوف أسدُّ كلَّ ما ينقصكم من المال والغذاء منتظراً إلى يوم عيد العنصرة فإذا حلَّ هذا اليوم ورأيتم أنكم قادرون على حمايتها فاحتفظوا بها وإلا يجب أن تستسلموا، فرفضوا هذا العرض

وتمسكوا بالمدينة، ولكنهم استسلموا بعد مرور سبعة أيام على حصار صلاح الدين.

فدخلها ولم ترق فيها نقطة دم وغيّر اسمها من «إيليا» إلى «القدس أو بيت المقدس» الذي لا تزال تحمله إلى الآن مجلد (١٥ - ١٦) ص٣٧.

وتابع ديورانت في ص٣٨:

«لعل بعض العارفين وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى في الفتح الصليبي فقالوا:

(هنا عمت الرحمة فضاء المدينة وهناك عمت شراسة الوحوش)».

أيها الحاقدون علينا القائلون قول السوء فينا:

هي صور ثلاث، تحدثت عن افتتاح مدينة واحدة خلال خمسة قرون.

اثنتان منها إسلاميتان لم ترق فيهما دماء ولم يقتل واحد من الأهالي ولم ينهب بيت أو محل ولم يُعاكس أي بيت للعبادة.

وواحدة هي الوسطى بينهما صليبية مثل ما توعد بها بوش ذاقت المدينة من الأهوال ما تشمئز منه النفوس، فلم يسلم رجل ولا امرأة ولا شيخ ولا طفل ولا رضيع والمسجد الأقصى الذي أسسه عمر وبناه الوليد غيروا معالمه فاتخذوا من بعضه مسكناً لفرسانهم واتخذوا من بعضه الثاني مستودعاً لذخائرهم. (الميسرة ص٣٦١ - الجزء الثاني)

لو سأل ذلك الذي قال في خطاب جماهيري: «إن الإسلام دَجَلٌ ديني» نفسه عن الأسباب التي جعلت الرحمة عنواناً وصفة بارزة للصورتين الإسلاميتين لوجد الجواب: هو أن رسوخ الإيمان في صدري عمر وصلاح الدين جعل من كل منهما جبلاً من التواضع والحنان والرحمة.

مفردات.. التواضع والحنان والرحمة خلت تماماً من الصدور الصليبية حتى اضطر واحد من أشهر مؤرخي العالم (ديورانت) أن يصفهم بالوحوش.

تلك صور قدمتها عن افتتاح مدينة القدس اثنتان إسلاميتان والثالثة ما سوف يقتدي بها «بوش» لكي تتبينوا مقدار الحقد الذي ملأ صدر ذلك الرجل.

فإذا قال قائل:

إن ما تقدم منبوش من جيوب الزمن القديم..

أما في هذا الزمن فقد تلألأت أنوار الحضارة وغمرت الأخلاق الفاضلة تصرفات الناس وبالتالي لن يتكرر أبداً ما جرى في زمن يشوع والصليبيين.

لهؤلاء البسطاء المخدوعين نقدم تحت العنوان التالي صوراً مجبولة بالدم لا تزال إلى اليوم تسعى بيننا مثلما تسعى السواهي.

الهوامش

١- سوف نتحدث تحت عنوان مستقل عن شروط القتل في القرآن.

٢- جاءت كلمة: السّلم مؤنثة لأنها تعني السلامة هنا.

٣- الله لا يحارب والمقصود هنا «دين الله».

٤- وردت الأحكام القرآنية كالتالي:

- (إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ..) (المائدة ٥/٣٣).

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى.. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ) (البقرة ٢/١٧٨ - ١٧٩).

- (.. مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) (المائدة ٥/٣٢).

الترويج لنهجٍ سياسي جديد قائم على مفهوم «سياسة الحضارة»

إبراهيم سلوم °

مـع مطلع الألفيـة الثالثـة التي نعيش غمارهـا اليوم بـدأت المنتديـات الفكرية السياسية ووسائـط الإعلام في شتى أنحاء العـالم تتناقل فيمـا بينها مفهومـاً سياسياً جديـداً مـن أجل معالجـة المشـاكل التي تبدو جوهريـة وشاملة ومرتبطـة ارتباطاً وثيقـاً بالمصـير الإنساني، يدعـى «سياسة الحضـارة»، الذي أطلقـه الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي المعاصـر إدغار موران. وهـذا الأخير هو من مواليـد عام ١٩٢١م، ويُعتبر من كبار المفكرين والفلاسفة الأحياء في زمننـا الحاضر. فَقَد أمـه وهو لا يزال في سـنّ العاشـرة فوصفهـا «بهيروشيمـا عائليـة». عانت زوجته مـن مرض الإدمان علـى الكحول قبـل موتها فعاملهـا أفضل معاملـة. في العام ١٩٣٨م انضم إلى الحزب الشيوعي. وفي العـام ١٩٤٢م نال إجازة في التاريخ والجغرافيا. وخلال الحرب العالمية الثانيـة انضـوى تحت رايـة المقاومة ضد الاحتلال النازي حيث التقى آنذاك بالرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران. في العام ١٩٤٩م طُرد من الحزب الشيوعي الفرنسي نتيجة مواقفه المعاديـة لنظام ستالين. وفي العـام ١٩٥٥م شكّل لجنة معادية للحرب في الجزائر. في العـام ١٩٦٠م شارك في إنشاء الحزب الاشتراكي الموحد. ثم سافر بعد ذلك إلى أمريـكا اللاتينية حيث عمل مدرساً في بعض جامعاتها. يشغل حالياً منصباً فخرياً

° باحث ومترجم.

كمدير أبحاث في المركز الوطني للأبحاث العلمية بباريس، ويتمتع بنفوذ قوي في بلدان البحر المتوسط وأمريكا اللاتينية وحتى في الصين وكوريا واليابان. كما يترأس رابطة «الفكر المركّب».

من مؤلفاته: «النقد الذاتي» (١٩٥٩م)، «فيدال وأبناؤه» (١٩٨٩م)، في إشارة إلى والده الذي قام برعايته. «روح الزمان» الصادر في العام١٩٩٥م، «الفكر والمستقبل» (٢٠٠٤م)، «التسامح وسياسة الذاكرة» (٢٠٠٥م)، «السبيل» (٢٠٠٦م)، «ثقافة أوروبة الهمجية» (٢٠٠٧م).

دافع عن قضية الشعب الفلسطيني ومقاومته للاحتلال الإسرائيلي، وكتب مقالات عدة في الصحافة الفرنسية بهذا الشأن، مما جعل الدوائر الصهيونية تصفه بأنه معادٍ للسامية، وتحيله أمام القضاء الفرنسي كمجرم يجب أن ينال جزاءه. كذلك أدان الحرب الأمريكية على العراق في ربيع عام٢٠٠٣م واعتبرها بمثابة الكارثة التي أدت إلى اقتلاع بلدٍ من جذوره.

وموران يكتب بلغة عصرية شيقة إذ إن المنبر الذي ينطلق منه كلامه هو منظومة القيم الأخلاقية والروحية التي شكلت وما زالت تشكل الهوية الثقافية لمعظم سكان العالم. كما دخل في سجال حاد مع الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي حين حاول هذا الأخير اقتباس مفهوم «سياسة الحضارة» في إحدى لقاءاته مع الصحفيين الفرنسيين مشدداً على ضرورة العمل به. وعلى أثر ذلك انتفض موران ليعلن بأن سياسة ساركوزي لا تمتّ بصلة لا من بعيد ولا من قريب إلى مفهومه الفلسفي الجديد الرامي إلى إصلاح الحياة المضطربة التي نعيشها اليوم، فكلاهما على طرفي نقيض فكراً ونهجاً، ولا يمكن لهما أن يلتقيا. والجدير بالذكر أن مفهوم سياسة الحضارة هو مفهوم يساري لأن موران كما ذكرنا، شيوعي سابق، ومعروف عنه بأنه إنسان ودود ومثقف ثقافة عالية، وقد أوضح مفهومه في كتابه الصادر في العام ٢٠٠٧م بعنوان: «السبيل» الذي جمع فيه خبرته في علوم كثيرة مثل: البيولوجيا، والفيزياء، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والإنتروبولوجيا. وفي هذا الكتاب يحاول موران أن يعالج مشاكل نشعر بوجودها في تجربتنا الحياتية اليومية وتتعلق بواقعنا الحياتي الملموس الذي يجب إخضاعه إلى تغيير. ويتعلق الأمر بحاجتنا

وآمالنا التي لم تعد حاجات مادية فقط بل روحية. إن تغيير هذا الواقع لم يعد يمثل مطمحاً للفرد وحده بل يفترض أن يكون مطمح العصر. ومن خلال وجهة نظر موران إن الإنسانية تواجه اليوم تحدياً كبيراً يتمثل بالبيئة حيث يعاني كوكب الأرض من تلوث خطير بدأ يهدد حياة الجنس البشري أينما وُجد. كما ويتمثل بجشع الإنسان حيال المادة مما جلعه كائناً مستهلكاً وعبداً لها. ومن هنا ينبغي على الإنسان المثقف أن يضع علمه في خدمة إصلاح الحياة مشدداً على ضرورة الحوار بين الحضارات من خلال تسويغ سياسة حضارية لا غنى عنها ليصار إلى مجابهة هذه التحديات الكبرى المطروحة على البشرية لضمان العيش السعيد بقوله: «أنا لا أسطر في كتاب «السبيل» برنامجاً سياسياً بالمعنى الضيق للكلمة بل درباً مشكلاً من التقاء طرق متعددة لا بدّ أن نتوجه نحوها من أجل مواجهة التحديات التي تواجه البشرية جمعاء». مع التأكيد على أن تمر «سياسة الحضارة» هذه عبر إصلاحات بيئية واقتصادية وسياسية وتربوية، وعبر تجديد الفكر السياسي الذي أحاول رسم معالمه حسبما يلي»:

أولاً: إن كوكب الأرض منخرط في مسار جهنمي قد يقود البشرية إلى كارثة متوقعة وذلك عبّر المخاطر التي تهدده من تلوث وغازات وانحباس حراري وثقب الأوزون وغيرها.. يجب ألا نكون بعيدين عن هذه الهواجس وعن الأمل في أن نترك لأجيالنا عالماً قابلاً للحياة. ويطالبنا موران بأن ندرك بأننا نسير في طريق تقودنا إلى كوارث وبأنه يتعين علينا تغيير كل شيء. وهنا يجب الإشارة إلى آفاق هذه الطريق الجديدة، إنها في البدء تكمن في فكرة أن الطريق الجديدة ليست مرسومة سلفاً. الطريق تنفتح أثناء السير والمشي، ثم يجب بعدها أن ندرك أن الطريق سياسية واقتصادية واجتماعية وبيئية وتربوية في آن واحد. لا يمكن أن نعزل الإصلاحات التي يجب إجراؤها عن بعضها بعضاً لأنها متداخلة. لا يمكن أن نوجد حلاً لمشكلات العالم، التي هي ليست مشكلات محلية بقدر ما هي شاملة، عن طريق إصلاح اقتصادي واحد، عن طريق إصلاح سياسي واحد بل عن طريق إصلاحات شاملة، فالكل مترابط فيما بينه. وهذا يفترض منا إصلاح الفكر لكي يقودنا إلى معرفة ربط المعارف المنفصلة من أجل أن تكون جاهزة

لمواجهة مثل هذه الكارثة المحيقة بنا. وهذا ما يسمّيه موران «بالفكر المركب».

ثانياً: يرى الكثيرون من الناس أن المجتمعات المعاصرة قد حققت لهم ما كان يعتبره أجدادنا حلماً، أي الرخاء المادي والرفاهية، في الوقت ذاته اكتشفنا أن الرخاء المادي لا يجلب العيش السعيد، بل الأسوأ من ذلك كله هو أن الثمن الذي ينبغي دفعه لقاء الوفرة المادية قد تبدّى ثمناً إنسانياً باهظاً، وحصيلته الضغط النفسي وسباق السرعة والإدمان والشعور بالفراغ الداخلي. لقد انتشر المال والربح في ميادين كانت بالأمس محفوظة للمَجّان والخدمة الطوعية أو للمقايضة أو للهبة، مما ولّد لدى البعض جشعاً وشراهة لكسب المال، في حين أحسّ البعض بغمّ النقصان ومن ثم الضغط وقلق الوجود.

لطالما اعتبرت المجتمعات الغربية نفسها مجتمعات متحضرة مقارنةً بمجتمعات العالم الثالث التي تصفها لسوء الحظ بالهمجية. وفي حقيقة الأمر أنتجت الحداثة الغربية هيمنة همجية جليدية هي همجية الحساب والربح والخسارة والتقنية ولم تكبح بما يكفي جماح همجية داخلية ناتجة عن عدم فَهْم الغير وعن الشعور باللامبالاة حياله. وعلاوةً على ذلك نحن ما زلنا في الغرب همجيين لأن هذه الصراعات من أجل كسب المال تشبه معارك حربية مبنية على الكراهية وعلى رفض فَهْم الآخر، فتسود في المجتمع زمر وأنفار يضنيها الحسد والحقد والبغضاء. إن هذه الكراهية تسمّم ليس فقط حياة المحسودين بل حياة الحاسدين. وهنا تُعطى الأولوية إلى القيام بالتعاطف والتعايش ليصار إلى فَهْم الغير. وهذا الفَهْم هو إحدى المقومات الأساسية لإصلاح الحياة.

إن التعاطف والرفق والتعايش والاهتمام بالآخر موجودة كلها لدى بني البشر باعتبارها استعدادات جوهرية، وقد نرى ذلك أحياناً عند وقوع الكوارث الكبرى من زلازل وغيرها حين ينشط وبصفة عفوية زَخْمٌ من الناس لمناصرة سكان منكوبين بعيدين جداً عنهم. لقد بجّل الغرب معرفة الطبيعة وإخضاعها بدلاً من معرفة النفس والسيطرة عليها. إنه تمرين صعب لأنه يتعلق بطرد الأفكار الثابتة والمسبقة من أذهاننا وإخضاع معتقداتنا ويقيناتنا إلى النقد، وهذا ليس أمراً سهلاً سهولة ميلنا إلى انتقاد الآخرين وإلى تحقير الخصم.

ثالثاً: إن إصلاح الحياة يستتبع أيضاً أن نزيل عنا جميع سموم إدماننا للاستهلاك الرديء وهذا لا يعني التضحية بملذات الاستهلاك من أجل حياة التقشف والزهد والصرامة والحرمان، بل على العكس من ذلك فإن الاستهلاك الجيد هو تعلّم مذاق الأشياء من جديد. يجب على المجتمع اليوم أن يُشفى من حمى الابتياع والشراء الزائد عن حده، وأيضاً من الاستهلاك المفرط، «لأن التخلي عمّا هو أفضل في العالم لا يعني التخلي عن عالم أفضل»، بحسب رأيه. المهم في الأمر هو أن يعيش المرء حياته بكل هدوء بدلاً من أن يجري لاهثاً وراءها.

وموران لا يدعو الناس إلى الانعزال عن الحضارة المعاصرة بل على العكس من ذلك يحثهم على أن ينشطوا بدينامية من أجل بناء المدنية الأرضية العادلة المتسلحة بالقيم والمبادئ الأخلاقية والروحية التي ورثوها عن الآباء والأجداد. وهذا يقتضي إعادة تثقيف الإنسان المعاصر ليتمكن من بثّ حياة جديدة في الأرياف ومن إعادة أنسنة المدن المكتظة بالسكان. لقد كان الكاتب أندريه جيد يتساءل ليعرف إن كان ينبغي البدء بتغيير المجتمع أو بالتغيير الشخصي. وبالفعل يجب البدء بالجبهتين في الوقت نفسه. أما غاندي فكان يقول: «يجب أن نحمل بداخلنا العالم الذي نريد».

رابعاً: لا يظن موران أن نوعاً واحداً من الإصلاح يمكن له أن يحسّن الحياة الإنسانية والمجتمع بل يرى أن كل شيء متصل ببعضه البعض. هذا هو الفكر المركب، ونعني بذلك الفكر الذي يتطلع إلى معرفة متعددة الأبعاد ناجمة عن جملة العلوم الفيزيائية والبيولوجية والكيميائية وعلم الاجتماع والآداب، مما يدفعنا إلى أن نتعلم كيف نفكر بشكل جديد وشمولي. وهنا يتعلق الأمر بخلق طاقات لطيفة، والمراهنة على المناهج التربوية الجديدة في مجال البيئة والجينات من أجل إصلاح الزراعات، وأيضاً المراهنة على الأجيال الجديدة في الحواسب الذكية القادرة على تغيير برامجها. وباختصار ينبغي علينا التفكير في عصر جديد للتقنية والعمل على تعزيزه. وباعتقادنا فقد بات عالمنا بحاجة إلى الفكر المركب لأنه الوحيد الذي بمقدوره مواجهة تحديات عصرنا التي هي شمولية وجوهرية. فمثلاً بخصوص العولمة ثمة تفاعلات بين ظواهر سياسية وديموغرافية واقتصادية واجتماعية

ونفسية ودينيــة، وبالتالي لا يمكننا أن نضع معارف العلماء واحدة إلى جانب الأخرى بل يجب أن تكون هنــاك معرفة علمية رابطة وجامعــة، وهذا تحدٍّ ليــس بالهيّن. من هنا ينبــع التأكيد علــى دور المثقف لأن الإنسان المثقف بالإضافــة إلى نشاطه كفيلسوف أو أديب يتوجــه إلى الرأي العــام مثلما يقول نيتشه: «الكاتــب أو الفيلســوف أو الأديب يتوجــه إلى الجميــع ليعالج مشــاكل تبدو جوهرية وشاملة ومرتبطة بالمصير الإنساني وبالسياســة والعدالة والقانــون للدفاع عن النزاهة». وهكذا يلعب المثقف دوراً أساسياً في عــالم أكــثر تخصصــاً ويعــرف توحيداً للمعايــير على الرغم مــن أن الإنصات إليه للأسف قلّما يحدث، لكنْ قد يحدث أحياناً وبشــكل غير متوقع أن تجــد رسالة المثقف إشعاعهــا، وهذا ما حدث مؤخراً في فرنسا مع الكاتــب (ستيفان هيســل) الذي أصدر كتاباً مؤلفاً من عشرين صفحة فقط بعنوان: «استنكروا» الــذي كان بمثابة الشرارة التي لقيــت انتشاراً واسعاً حيث بيعت منه مليون نسخة. وفي هذا الكتــاب يؤكد هيسل على دور التكنولوجيــا والسيبيرنتيــة (التسيير الذاتي) التي أحدثت ثورة في العالم. والسؤال الذي يراود ذهننا هو ما علاقة التكنولوجيا والسيبيرنتيــة بإصلاح الفكر؟ في الحقيقة إن السيبيرنتية بالنسبة لنا يمكن أن تساعد الفكر إذ إنه مــن الملح أولاً إصلاح المعرفة. وهــذه المعرفة هي اليوم متفرقة، فهي تُلقّن وتُملــي علينا حسب فــروعٍ لا تتواصل فيما بينها، في حــين عندما ننظر إلى العالم فإننا نــراه غير منقسم. نعــود ونؤكد أن كل شيء في العالم يترابط ويتواصل فيما بينه. وضمن هذا السياق يؤدي إصلاح المعرفة إلى إصلاح الحياة بشكل أساسي.

خامساً: سياسة الحضــارة هي سياسة التنوع التي تعترف بأن جميع البشر متساوون في حقوقهــم وواجباتهــم وكرامتهــم، وهي سياسةٌ تضع المصالح الحيوية للبشر في مركز الاهتمــام أي أنها سياسة التنمية المستدامة والعدالة. لذا فــإن الاعتراف بها هو شرط الســلام والأخوة والتطــور البشري وبالتالي إصلاح الحياة. ذاك هو المرتكز الذي ينبغي أن يؤسس عليــه سياسة الحضارة لأن العالم أصبــح اليوم بأمس الحاجــة إليه. لا يتعين علينا أن نفرض نموذجــاً موحداً للحضارة بــل أن نشير إلى السبيل الواجب سلوكه، لأن فرضــ نموذج واحــد قد يــؤدي لاحقاً إلى

إنكار الهويات وبالتالي خدمة التطرف، أي إلى إثارة العنف والحروب والإرهاب، إذ إنه ما من شيء أخطر من هوية مجروحة أو هوية مُهانة. وعلى هذا الأساس فإن مفهوم سياسة الحضارة يهدف إلى تمدين العولمة ودمج البعد الثقافي والأخلاقي والروحي بسياسة تنبذ صدام الحضارات وتعمل على كل ما من شأنه احترام تنوّع الآراء والثقافات والمعتقدات وتحولها إلى مبدأ كوني. ما من شك أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يعتقدون بإله واحد ولكن ليس بالطريقة نفسها. أما من حيث الجوهر فهو الإله نفسه خالق السموات والأرض وهو الديّان في يوم الحشر، الذي يتوجهون بصلواتهم إليه. إله واحد، وهو على الرغم من التباينات فيه لا يزال يرسل إلى أبناء البشرية الذين هم أبناؤه رسالة المحبة والسلام والأخوة، رسالة التسامح والاحترام. فالإنسان ليس موجوداً على هذه الأرض لكي يدّمرها بل لكي يبنيها. ليس موجوداً على هذه الأرض لكي يكره بل لكي يحب. وإذا عاد كل جانب إلى منابع كينونته ومعتقده فسيجد الجذور المشتركة التي تقرّب الديانات من بعضها بعضاً. إن الاحتكاك والتأثير المتبادل للتقاليد الدينية والثقافية هما لا يحفظان بقاء الهوية الثقافية فحسب بل يعملان على تبادل الإثراء أيضاً. وهنا نخلص إلى القول: إن سياسة الحضارة هي هذا العمل الذي يقوم به كل الذين يعملون من أجل انبعاث السلام. وبهذا نعمل على تجنب صراع الحضارات. إن الوقت ليس جاهزاً لكي تتقاتل الأديان فيما بينها بل لكي تقاتل من أجل الحدّ من تراجع القيم الروحية والأخلاقية، وضد المادية وإفراطات النزعة الفردية. علينا أن نقبل بفكرة التنوع والتعددية داخل مجتمعاتنا لأنها الشكل الوحيد لترسيخ الديمقراطية، ذلك أن رفض الآخر الذي تدعو إليه جماعات متطرفة عنصرية هو أمرٌ مرفوض. ولهذا السبب ينبغي على المجتمعات المتحضرة ومن بينها فرنسا أن تنتهج دبلوماسية الوفاق والحوار مع الآخر لأن الأسرة الدولية ستذهب نحو الصدام إذا لم تتوصل الدول إلى خلق جبهة موحدة بينها من أجل رفع شأن القيم الإنسانية. لن يقوم الشمال الأوروبي بتلقين الدروس إلى سكان الجنوب بل سيكون هناك تبادل بين الجانبين بحيث يتعلم كل واحد من الآخر وسيكون هذا جهداً مشتركاً بين الجانبين. اليوم لا

يوجد في العالم واحة تعطي المرء شعوراً بالأمان نتيجة المخاطر المحدقة بالبشرية بحكم طابعها العالمي. لذا، فإننا نعيش في عالم مزدحم ومترابط يتطلب التغلب على هذه المخاطر جهوداً مشتركة تبذلها البشرية كلها. ومن المعلوم أن وحدة الدولة وتلاحمها الداخلي يتعززان في وجه خطر خارجي يهدد أمن وحدتها. ويجبر الخطر الخارجي أبناء هذه الدولة على وضع خلافاتهم الداخلية جانباً. وإذا لم يحدث ذلك فلن يتوافر لهذه الدولة إلا فرص ضئيلة للقضاء على هذه المخاطر. اليوم تواجه البشرية كلها عدواً مشتركاً يتمثل في مسألة وجودها على هذا الكوكب، حيث وقعت الحضارة الإنسانية كلها في حالة حصار. ومن أجل مواجهة هذه المخاطر لا بديل أمام البشرية عن الوحدة، ونعني بها وحدة العمل في النضال من أجل بقاء البشرية. لقد جعل مرض الإيدز هذا الاعتماد المتبادل مفهوماً حتى للناس العاديين، لأنه إذا لم نضع أمامه كل الموانع التي تعيق انتشاره فإنه سيتكاثر ويهلك العالم. فالشر يحمل في طياته الفوضى ونوعاً من الاضطراب وينتهي بالموت والعَدَم، فهو نذير شؤم بالغ الخطورة إذ يؤدي إلى انقراض النسل وبالتالي تفكّك الأسرة.

إن الدعوة إلى تبنّي مثل هذه المواقف هي بمثابة ردّة فعل منقذة لنا من مشكلات حضارتنا، وهي أمورٌ لا غنى عنها في سبيل مجابهة التحديات الكبرى المطروحة على البشرية. وهنا لفتة للمساهمة الفعالة التي يمكن أن يقدمها الجنوب الذي نسميه متخلفاً وهمجياً أو سائراً في طريق النمو، وأحياناً صاعداً. إن الفكرة التي مؤداها أن الشمال لا يقدم سوى المنافع والحلول الجيدة للبشرية جمعاء هي معيار خاطئ. فالجنوب لا يزال يحافظ على مزايا الوفاء البشري وفنّ العيش، والروح الجماعية، والتضامن التي تخلى عنها الشمال. لذا، يجب إجراء مصالحة بين كل هذه الوقائع. إن الحكمة الأفريقية والهندية والآسيوية يجب أن تتمازج مع أنوارنا المضيئة ولكن المُعَمّيّة كثيراً. يجب أن نتوقف عن اعتبار أنفسنا أسياداً كي نصبح شركاء في هذا الموعد الكبير للأخذ والعطاء الذي كان يحلم به رئيس السنغال الراحل ليوبولد سينغور. وهذا ما يذكرني بأحداث العام ١٩٨١م في الصين حين اعتقد معظم المراقبين المختصين بالشأن الصيني بأن الصينيين ليسوا سوى مجرد نمل أزرق لا يريد سوى خلخلة الكتاب الأحمر. ولقد

لاحظنا قَمْع شباب ينشدون الحرية. وهذا يؤكد أن الصينيين على الرغم من اختلافهم عنا فهم مثلنا ونحن مثلهم. إننا أشباه على الرغم من اختلافنا الثقافي ويجب الاحتفاظ بهذا الاختلاف لطالما أنه توجد لدينا نفس الطموحات والتطلعات إلى الحرية.

وفي كتابه «السبيل» لا نشتم إطلاقاً رائحة الحَجْر على الحريات الإنسانية إلا أنه يشدد على مفهوم الحرية الممكنة وعلى تناغمها المنسجم مع محيطها البشري والبيئي. فالحرية لا تُنزع من الإنسان لأنها جزء من طبيعته، وأنا أعتبر هذا عنصراً مهماً يخرجنا من وَهْم تمّ تكريسه في أنفسنا بذكاء من أجل خدمة قوى الاستكبار والاستبداد. وبرأي موران إن الحرية المطلقة، كما قال هيغل: «تعادل الجريمة، غير أن الحرية الممكنة هي حرية المعرفة والتسامح والصراع ضد التحديات الكبرى التي تواجه الإنسان من كوارث بيئية واجتماعية وسياسية كالصراع ضد الاستبداد».

وهناك أيضاً الحالة العراقية حيث إن التدخل الأمريكي في الحرب على العراق لفرض الديمقراطية هو مجرد ادعاء وهمي، لأن الديمقراطية لا تُفرض بالعنف خصوصاً أن ما فُرض هو شبه اقتلاع لبلد. وهذا يُعد جريمة بحق الشعوب. كذلك يدين موران أعمال القمع الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني. إن كل ما يكرهه موران هو أن تتحول الضحية إلى جلاد. وبرأيه أن العرب كانوا أرأف باليهود من المسيحيين الأوروبيين. إن إسرائيل تسير نحو الكارثة إذا لم تغيّر منطقها السياسي وأساليبها مع الفلسطينيين. إن عليها أن تقبل بالسلام مع جيرانها العرب بناءً على المبادرة العربية للسلام التي تقدمت بها القمة العربية المنعقدة في بيروت خريف عام ٢٠٠٢م.

إدغار موران أحد ضحايا الصهيونية

يعتبر إدغار موران آخر ضحايا العنصرية الصهيونية في فرنسا بسبب مقال نشره في صحيفة «لوموند» بعنوان: «إسرائيل – فلسطين، السرطان»، حيث دافع فيه عن الشعب الفلسطيني، وفضح العدوانية الإسرائيلية. وفي هذا المقال كرّس موران قطيعةً كبرى بينه وبين الكثيرين من المفكرين اليهود الذين اتهموه بمعاداة السامية على الرغم من أن المقال يستعرض معاناة الشعب الفلسطيني، ويدين سياسة القمع التي تمارسها إسرائيل في الضفة الغربية

والقطاع. ونقرأ في هذا المقال «إن الضحايا المدنيين الفلسطينيين أصبحوا الآن يشكلون بين ١٥-٢٠ ضعفاً مقارنةً مع الضحايا الإسرائيليين». ولقد رأى فيه العديد من المثقفين الفرنسيين من أصول يهودية الذين لم يستسيغوا رنّة المقال تشجيعاً على الجرأة في انتقاد إسرائيل بل وعلى الحقّ في قول أشياء سيئة عن اليهود. وبالنسبة لإدغار موران «فإن العدالة للشعب الفلسطيني هي شرط السلام والأمن حتى بالنسبة للشعب الإسرائيلي. لذا ينبغي فرض العدالة على كل الشعوب المضطهدة التي تتألم من عدم الاعتراف بها وبكرامتها كبشر. هذا هو واجبنا تجاه كل النساء والأطفال. وإذا ما أردنا أن نعيش بسلام فوق هذه الأرض. وإذا أردنا أن ننجح في نزع شعور الضغينة والثأر من قلوب البشر فإن على الشمال الأوروبي ألا يقوم بتلقين الدروس «الأخلاقية» إلى دول الجنوب بل أن يتفهمها جيداً».

ولكن الأمر الغريب الذي وقع بعد نشره لهذا المقال هو استدعاؤه إلى المحاكم الفرنسية بدعوة معاداة السامية، مما جعله يمتعض كثيراً من إصباغ الطابع القضائي على الآراء في فرنسا. وبرأيه أن المؤسسات الإعلامية يجب أن تكون منبراً للنقاش والسجال حيث تتواجه وجهات نظر متناقضة لا أن تحال القضية إلى المحاكم للبتّ فيها كما حصل سابقاً مع روجيه غارودي الذي أدان الهولوكوست واعتبره أمراً مبالغاً جداً فيه، وضمن هذا المنظور كتب موران مدافعاً عن نفسه يقول: «إني أعرف بأنني لست سوى ضحية من بين ضحايا آخرين لعدم الفهم. ويبدو لي الأمر غير مقبول حين يدافع المرء عن إدراك الآخر، وهذه هي حالتي. ويصل الأمر إلى نوع من المرارة، ولكنها مرارة متحكم فيها: ليس أول مرة يقودني فيها شعور بالحقيقة وبالعدالة أو الشرف إلى أن أتّهم بالخيانة، خائنٌ لفرنسا لأنني أسهمت في المقاومة أثناء الحرب الكونية الثانية، أو لأني عارضت حرب الجزائر. خائنٌ للاشتراكية لأني قاومت الستالينيين، أو لأني لم أثق بالبرنامج المشترك لليسار. وها أنا خائن لليهود لأني عبّرت عن تعاطفي مع الفلسطينيين الذين يتعرضون لويلات وإهانات الاحتلال. إن الكثير من الأصوليين الذين يمنحون تبريرات لا مشروطة لإسرائيل يسبغون، في حقيقة الأمر، على أيديولوجية مجرّدة - التعبير عن

تعاطف ملموس». وعلى غرار كبار مثقفي فرنسا ومثل العديد من العقول النيّرة التي أحست ولاحظت انحراف الحزب الشيوعي في بيروقراطيته وطابعه الستاليني، أصابه ما أصابهم، أي الطرد من الحزب لأسباب عدة كالانحرافية أو الثورة المضادة وغيرها من التبريرات التي كان يُراد منها تكميم الأفواه ومَنْع كل فكر نقدي.

ويصف موران الشعور العارم بالحرية بعد الطرد من حزب لم يكن يستطيع أن يتفهّم وجود عقول نيرة تختلف أحياناً مع القيادة بقوله: «في ثمانية أيام (أيام الاستنطاق والمساءلة) اكتشفت هذه الأعجوبة، وهي أن الرحى السوسيولوجية الرهيبة لم تسحق أفكاري لتستبدلها بأيديولوجيا البورجوازية الصغرى. كنت شيوعياً، دائماً، وإلى الأبد، ولكني كنت حراً، كنت نفسي، مسؤولاً عن نفسي، كنت أخيراً شيوعياً، كنت حراً في أن أصبح كل صباح ما أريده متحرراً من الأغلال ومن سترة المجانين.

إدغار موران يرى في ساركوزي نقيضاً تاماً له

كانت دهشة المفكر إدغار موران عظيمة عندما علم بأن الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي قام في يوم ٢٠٠٨/١/٨م بعقد مؤتمر صحفي في قصر الإليزيه حيث التقى مع كبريات الصحف الفرنسية، وفيه تحدث عن سياسة الحضارة مشيراً إلى أفكار استمدها من كتابه «السبيل»، ويطالب الشعب الفرنسي بضرورة وضعها موضع التطبيق.

وهنا ثارت ثورة موران فقام بنشر مقال في صحيفة «لوموند» أوضح فيه بأن ساركوزي لا يعرف شيئاً عن سياسة الحضارة لأنه يريد أن يعود بفرنسا إلى عهدها الاستعماري الذي أصبح بائداً، ويؤكد على ضرورة كسب المال، ويحب أن يضع فرنسا تحت الهيمنة الأمريكية، ويعتبر الفكر عاهةً. ناهيك عن إثبات حالة أنه إذا كانت حضارتنا الغربية قد أنتجت منافع فقد ولدت أيضاً أضراراً لا تقل أهمية. والفكرة التي أدافع عنها تتمثل في كيفية إيجاد حلٍّ لهذه الأضرار من دون خسران منافع حضارتنا.

ومن المفيد أيضاً أن نشير إلى أن الرئيس ساركوزي طالب بعقد لقاء مع الكاتب إدغار موران. وفي هذا اللقاء تحدث ساركوزي معه لمدة ٤٠ دقيقة، وكان ردّ موران كما يلي: «يا سيادة الرئيس، أنت صادق في ثلاثة أرباع ما قلته في حديثك معي وفي مؤتمرك

الصحفي، لكنك لست على النوع نفسه من الصدق والصراحة والشفافية في الربع الباقي».

وضمن هذا السياق كتب فرانسوا بيرو زعيم حزب الوسط الفرنسي الذي خسر انتخابات الرئاسة في فرنسا عام ٢٠٠٧م التي انتهت لصالح ساركوزي: «أن ساركوزي هو نمط آخر من الرؤساء الفرنسيين، وطريقة أخرى في الأيديولوجيا، فهو يريد أن يخلق مصالحة بين فرنسا والنقود لأن جَمع المال بالنسبة له يعني النجاح في الحياة». كما يعتمد ساركوزي على وسائط الإعلام وعلى أضواء من أجل ملامسة شغاف قلوب الفرنسيين. إنه صبياني بذلك إذ إن الرئيس يجب أن يتمتع بمثل عليا وقيم أخلاقية يدافع عنها. مثلاً هو يدعي بأنه سيغير كل شيء دفعة واحدة في حين أن المجتمع معقد للغاية ولا تُحل مشاكله في ضربة عصا ساحر. ألم يقل الكاتب الفرنسي الشهير «مونتيرلان» يوماً: «ويلٌ للمدينة التي أميرها ولد». أو كما يقول ألبير كامو فيلسوف اللامعقول: «إن تسمية الأشياء بشكل سيِّئ قد يضيف مصيبة جديدة إلى العالم». يتحدث ساركوزي عن سياسة الحضارة وعادةً ما يتخلى المرء عن الحضارة إذا كان جشعاً للمال والمادة. كذلك يتحدث في خطبه الرسمية عن الديمقراطية النموذجية، علماً أن سلوكه أنهى الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لكونه يتدخل في كل شيء، وغالباً ما يخلط بين الدولة والاقتصاد».

أما على الصعيد الأخلاقي فقد جاء وصفه في كتاب نشرته مطلقته سيسيليا الصادر في عام ٢٠٠٨م بعنوان: «هكذا تكلمت سيسيليا في كتابها». وسيسيليا هذه هي زوجة ساركوزي حين أُعلن عن فوزه في رئاسة الجمهورية الفرنسية في شهر أيار من العام ٢٠٠٧م، لكنها سرعان ما طلَّقته بعد مضي عام على ذلك لتقول: «إن نيقولا هو إنسان نطّاط وبعيد جدّاً عن الرصانة. ناهيك عن أنه شحيح، ولا يحب أحداً من الناس حتى إنه لا يحب أولاده. ليس هو إنساناً فاضلاً وموضع ثقة الغير. لذا فهو لا يستحق أن يكون رئيساً لفرنسا نظراً لسلوكه الشاذ والغريب. خلاصة القول: إن فرنسا يترأسها نطاط مغلّف بالبخل، إنسان مضطرب غير قادر على الحب ولا يحتفظ بالهدوء والوقار».

يقول الشعار الفرنسي الذي أطلقه

الفيلسوف الفرنسي ديكارت: «أنا أفكر إذاً أنا موجود». بيد أن ساركوزي بدأ عهده الرئاسي في العام ٢٠٠٧م حيث أعلن وبكل صلف في مناظرة تلفزيونية أجراها التلفزيون الفرنسي معه: «أنا لست مولعاً بالأيديولوجيا، وأعترف بأنني لست مثقفاً». ثم تلته وزيرة المالية كريستين لاغارد لتقول في البرلمان الفرنسي: «أناشد الشعب الفرنسي بأن يكفّ عن التفكير والتنظير، وأن يشمّر عن ساعديه للعمل ليكسب المال ومن ثم يتمتع بحياة أفضل. كفانا ما يوجد في مكتباتنا من فلسفة وتنظير فهي تكفينا لعدة قرون أخرى». إن مثل هذا الطرح في نظر موران يعني بأن هناك إعلاناً عن موت الإنسان المثقف لأن الإنسان المعاصر من وجهة نظر ساركوزي يجب أن يتكل على المعلومات التي بدأت توفر له كل شيء بحيث لم يعد بحاجة إلى كتّاب مثل: إميل زولا، أو ليون تولوستوي بل إلى عامل فني لشبكة الإنترنت والتلفزيون. ويلمس المرء من خلال هذا الطرح دعوته إلى الثراء وجمع المال. وساركوزي يعتبر أن الفكر عاهة ويجب الانفتاح على العمل فقط، فهو على عكس الرؤساء السابقين: مثل جورج بومبيدو الذي كان أستاذ جامعة، وألّف كتاباً عن الشعر المعاصر، أو مثل الجنرال شارل ديغول الذي كان كاتباً إستراتيجياً، أو مثل فرانسوا ميتران الذي كان يصرّ على أنه أديب قبل أن يكون سياسياً. أما بالنسبة لجاك شيراك فهو على رغم حبه للبيرة الألمانية فلا يزال مرجعاً في الثقافة الآسيوية. في مذكراته التي صدرت قبل أشهر عدة بعنوان: «الزمن الرئاسي» وصف الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك خليفته نيقولا ساركوزي «بأنه عصبي المزاج، نزق، ولا يمكن الثقة به بما فيه الكفاية، ولم ينسَ وصفه أيضاً بأنه «أمريكي النزعة بإفراط». وفي هذا الكتاب نسمع صرخة برناديت زوجة شيراك عند سماعها نبأ إعلان فوزه برئاسة فرنسا خلفاً لزوجها وهي تقول: يا إلهي، هذا الرجل لقد شاهدناه بملابس النوم».

ما من شك أن تفحص دلالات هذه المواصفات، مزاج عصبي، وإنسان نزق وليس موثوقاً به، تبعية مطلقة لهيمنة واشنطن ولصهيونية الفيلسوف الفرنسي برنار هنري ليفي مهندس التدخل العسكري في ليبيا، كلها مواصفات تدل على أن مَن يملكها هو بعيد تمام البعد عن مفهوم «سياسة الحضارة».

ومع ذلك يعود الفضل إلى ساركوزي في منح الفيلسوف إدغار موران شهرةً إضافية في فرنسا تُزاد إلى شهرته الكبيرة في العالم حيث تُدرّس مؤلفاته في جامعات أميركا اللاتينية، ويُطلق اسمه على كبريات معاهدها. ألم يقل عنه المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه: «إن المرء يجد نفسه أمام خيارات عدة في تناول هذا الرجل الذي يُعد من كبار العمالقة الذين لايزالون على قيد الحياة، فهو يمثل إدغارات عديدة: السوسيولوجي، الرائي، الأوتوبيوغرافي، الصحافي، الفيلسوف، والمناضل، والمؤرخ، وأخيراً كاتب يوميات. إن بإمكان المرء أن يأخذ ما يريد من هذا الواحد المتعدد الاتجاهات. ويبدو أنه حتى رجال السياسة أحسوا بحاجتهم إلى النهل من منابع فكره وروافده الكثيرة. من الصعب الإحاطة بالرجل بكلمات، فالملامح والبراهين على نزوعه الإنساني وعلى قدرته على فهم الآخر وعلى التسامح أكثر من أن تُعد. وليس غريباً أن يظل قريباً من منظمة اليونسكو ومن روحيتها في إفشاء روح السلام والحق في الاختلاف وفي الحاجة إلى الثقافة والتربية والتعليم، وفي حفظ تراثات البشرية. إن اتباع سياسة الحضارة يساعد على إنهاض كل نفس بشرية تنشد إصلاح الحياة وبالتالي الخلاص».

المراجع

١- كتاب «السبيل» إدغار موران.
٢- جريدة «لوموند» الفرنسية، ٢٠٠٨/١/١٨م.
٣- جريدة «لوموند» الفرنسية، ٢٠٠٨/١/٢٢م.
٤- جريدة «لوموند» الفرنسية، ٢٠١١/٨/١٠م.

قصائد صغيرة

٭
سليمان العيسى

وأكتُبُ

أجُرُّ ورائي الزمنَ الثقيلا
وأكتُبُ..
ما أزالُ أخُطُّ
ما يهوي على قلمي
وأملأُ بالسَّوادِ بياضَ أوراقي،
قصاصاتي..

أسمِّيها:
رؤايَ..
خواطري..
حُلُمي..

٭ ٭ ٭

لِمَ الوَرَقُ؟
لِمَ الأرَقُ؟
وهَلْ أجْدَتْ حرائقُنا فتيلا؟

٭ ٭ ٭

وتَفْتَحُ دفتري.. لتقولَ لي:
إني أُحِبُّكَ..
أيُّها اللحنُ الممزَّقُ..
أنتَ أقربُ ما تكونُ إليَّ
حينَ تَخُطُّني بيتين..
يختزلانِ في بيدائنا السَّفَرَ الطَّويلا

٭ ٭ ٭

أعودُ إذاً..
أعودُ إذاً إلى الوَرَقِ
إلى الأرَقِ..
لأنَّ رفيقةَ الصحراءِ والرَّمْضاءِ
والسَّفَرِ الطويلِ مَعي

٭ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

تُفارقُني..
تُعانقُني..
تَظَلُّ معي
تُزيحُ الشوكَ من دَرْبي
تُضيءُ بلمسةٍ غَسَقي
أعودُ إذاً
وأكتُبُ..
والعياءُ يَلُفُّ خاطِرتي
وأنْمُلَتي..
ولستُ بعارفٍ
كم قطرة بَقِيَتْ بِمحبرتي
سأكتُبُ..
أيها الحرفُ الجميلُ المُشْتهى
في غَمْرةِ الوَجَعِ
لأن رفيقة الصحراءِ والرَّمْضاءِ
والسَّفَر الطويلِ
مَعي

* * *

لقــاء

وتلاقينا..
كما تعتنقُ الرملةُ عطشى
قطرةَ المَطَرْ
لقاءَ شَطرَيْنِ بِبَيْتٍ غَزِلٍ
يُنْشِدُهُ القَمَرْ

الظامئانِ.. كُلَّما أوغَلَ في الليل
السَّفَرْ
تشابكتْ أيديهما.. على التَّعبْ
وأشعلا معاً بقايا النارِ في الحَطَبْ

وواصلا خُطاهُما..
يخترعانِ النجمَ
إن لم يَطْلُعِ السَّحَرْ

* * *

مخبَأ
إذا انفجر الكونُ الغبيُّ..
ودمَّرتْ
شظاياه أعشاشَ الطيورِ
على الأرضِ

خَبَأْتُكِ في بيتٍ من الشعرِ حالمٍ
وضِعْنا معاً
في همسةٍ منه..
في نَبْضِ

ترنُّماتُ ملائكية

ياسين الأيوبي *



حبيبتي ملاكْ،
أطْهَرُ من ترنيمة الأفلاكْ
تَرقُّ.. حتى يدخل الشّذا
بأهدابها

ويَغْتدي المساءُ مفتوناً
بآهاتٍ تخطَّتْ مرقَد السِّماكْ

• • •

حبيبتي.. الصفصاف غنَّى
سامراً، برشفة من ومضةٍ
باحتْ بها شفةٌ
وأرختْ مقلةٌ
من ذَوْب بُرْديها
وهامتْ وجنتانْ

• • •

* أديب وشاعر وناقد ورئيس تحرير مجلة «قطوف» اللبنانية.
العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

هاتي ابْعثيها
في كياني..
خلجات ظامئات
لحنين.. خلتُ أني
نَزَحَ الشعرُ بعيداً
خلْفَ غابات من النسيانْ؟..

• • •

سرَّحْت إحساسي
فكنت الخَفْقَةَ المثلى
تدبُّ على حَفافي البوح
فارتابتْ..
هل العمرُ انفلاتٌ
من فَضاء القَدَر المرقوم
من قَبل الزمانْ؟..

• • •

طوِّقيني يا ملاكي
بِغُلالات، مَداها
السُّحْبُ تنهلُّ رذاذاً من رحيقْ!..
طوِّفي بي فوق معْصور جَنانٍ
لم يَرِدْ في خاطر الساعينَ
في البيت العتيقْ!..
مَرِّغيني بِخُصيْلات تدلَّتْ
مُثقلات بتواشيح العذارى
لا أراكِ الآنَ..
يَغْشاكِ انْبهاتٌ من صِباكِ
انسابَ شلاَّلٌ
من الإيقاع فوق الثغر..
أوثقتُ به ركْبي
لعلِّي أسْتفيقْ!..

• • •

لَمْلمي عني غُباراً..
لم أعدْ أذكرُ شيئاً قَبلَهُ!..
هل كنتُ إلاّ ذلك الواردَ مِلءَ الشَّدْوِ
من غيد العشيَّات؟..
ما لأذكاري ارتَقتْ..
بَعضي يشمُّ الآسَ
والبعضُ انتشاءٌ من رياحينِ الجَوى
المنداح في أبهاء ذاتي
الموهنات؟
حَصْحَصتْ ناري
انطوى في رقادٌ
كدتُ أثْوي فيه
ما شاء ليَ الديّانُ
أبدعت مصيري
فاجْتباني خَطَرانٌ من لهيبٍ
مسَّني منه شُواظٌ
فأنا أختالُ من شَجْوٍ
ومن حُمَّى دمائي الزاكيات؟..

الشَّابُ والملك، وبناء المملكة

جبرائيل جرجي عبدوكة ✿

حدّقت في تجاعيد الحياة التي رسمتها على الورق، فرأيت قلباً متعباً من «صدمة الحياة». ذلك القلب الذي تهجّى درب الحبّ من ألفه إلى يائه، وقرأها-مفردات.. مقاطع.. جملاً.. دون أن يتذمر أو يشكو لقد حفظها عن ظهر قلبٍ أو كاد يقع فيها على غير موعد.

شعر بعقدة الذّنب، قال:

– كن مطمئناً يا قلب.. لن أعذّبك بعد اليوم، وسأريحك من عناء العشق.. وصدمات الحياة. فما هي الأشياء التي تشعر أنها تعذّبك؟

أتاهُ الرّد على الفور:

• لا أعرف شيئاً يعذبني، وكلُّ الأشياء التي تحيطُ بي تعذّبني.

– وما الأمور التي تحسُّ بها أنّها تؤلمك؟ ساد صمتٌ قصيرٌ، ثم جاء الجواب بتثاقل:

• بالحقيقة لا أعرف أموراً تؤلمني، ولا أستطيع أن أميّز بين المؤلم والمعذِّب.

ولئنَّ الأحلامَ غير ممنوعة، وهي تقف على أهبة الاستعداد يومياً، كان لابدَّ لي أن أحلم.

-٢-

صبيّةٌ بيضاء كالثّلج، جميلةٌ كالرّبيع، تلملم شعرها، لترميه يميناً أو شمالاً فتلامس خصلاته وجهها المعبّأ بالتجاعيد والأثلام. وقفت بعيداً عنّي، بدأت تديرُ عينيها

✿ أديب وقاص سوري.

في كلِّ اتّجـاه، كغزالةٍ أحاطـت بها مخالب ذئـبٍ جـارحٍ وراحت تبحث عـن أملٍ أخير يقيها السقوط، والاستسلام، والموت.. قالت بوضوح:

– ألك أعداء يا بنيّ؟

• لا أرى أمامـي عـدوّاً.. وإني لأرى أعداءً؟!

تذكرت لاحقاً أعداء «الكار».. الزُّملاء، والأصدقـاء، والأقربـاء.. تذكّـرت أولئك الواقفين قريباً منّي، وهم على أهبة التّغيُّر، والتّحوُّل، والتّبديل.

أسندتُ ظهـري إلى الحائط وأنا أبحث علـى أيِّ جانب أميل. وحين أعياني البحثُ، أدرت ظهـري صـوب الإرب الفسيح المليء بالأمل والتفاؤل، وسرت حتى وصلت.. كانت تلاحقني.. ثم اختفت.

كانـت مغامـرة حقيقيـة عندما راحت تتفحّص وجهـي بدقّة، فـترى فيه مخلوقاً بسيطـاً تعلّم منها أشياء كثيرةً، بل تعلّم منها كلَّ شـيء. بدأت تلك السّيـدة تتمتم كلاماً مُبهماً، أثار انتباهي. نظرت إليها بابتسامة الفوز والنصـر، وكأنَّ أمراً عظيماً تحقّق أو كاد. وبعد انتظـار طويل، والسّيدة ما زالت تتراخـى وتتلكّأ، وأنا ألحُّ وأستعجل، تحركت بتثاقلٍ ثـمّ تنحنحت. ففهمت أنَّ شيئاً مهمّاً سوف تقوله.

دخلـت فجـأة تحـت وطـأة الفضول الخائـف، الذي يرفع النســاء إلى انفعالات خطـرةٍ، فيريـن في ساعـة الخـوف نموراً مكشّرة، وثعابين زاحفةً، ورعباً يملأ قلوبهنَّ الضّعيفة باليأس الحقيقي..

-٣-

قالت:

«كان في قديم الزّمـان، وسالف العصر والأوان– ملكٌ لم تسمع بمثله الإنس والجان. ملكٌ، وما من ملك إلا الله.. ومن عليه ذَنبٌ يقول: أستغفر الله..».

تركت ابتسامة تحمل معـانٍ كثيرةً.. ثم تابعت قائلةً:

«ملـك، كان قبيح المنظـر، شنيع الهيئة، جافي الخلقة. كان ظالمـاً مستبدّاً لا يعرف قلبه الرّأفـة والرّحمة، ذلـك الملك الكؤود اسمه «نمـرود»، يجمع الرِّجـال من جميع أنحاء مملكته الواسعة ليعملوا في حقوله بلا أجر.

كان مستبـدّاً بهم، ظالماً عليهم، لئيماً في

تصرفاته، حتّى صار كلُّ واحدٍ منهم منهوك الجسم، معروق العظام، ساهم الوجه.

تداعى الرّجال إلى اجتماع في «الهيكل»، لمناقشة أمر ظلم الملك، مفضلين الموت في ثورة جارفة قبل أن يميتهم فرداً فرداً.

غافل حارس «الهيكل» المجتمعين وأعلم سيّده بأمرهم، فطلب منه خنق الثورة في مهدها قبل فوات الأوان.

استشاط «نمرود» غضباً ثم خاطب نفسه قائلاً:

- ثورةٌ ضدي؟! أيجرؤ الأنذال على ذلك؟

وعلى الفور، أمر بقتل الرّجال جميعهم وكلّ من بلغ الخامسة عشرة من عمره فما فوق. وعملت سيوف جنوده القساة في رقاب الأبرياء حتّى لم يبق في المملكة شابٌّ ولا رجلٌ. وراح «نمرود» يتمادى في غيّه، فجمع الأطفال والأولاد بعد أن منع عنهم العلم والطّعام والشّراب ليعملوا في أرضه، وهدّدهم بأمره الصّارم القاضي-«أن يرمي كلُّ شابٍّ والده في وادي الأفاعي والثعابين قبل بلوغه سن الأربعين وإلا فالموت لأفراد العائلة جميعهم» - وحين اطمأنَّ الملك إلى خضوع شعبه المقتصر على الأرامل واليتامى والأطفال القصّر، راح يخطب فيهم قائلاً:

• «الثورة يا أولادي عملٌ بطوليٌّ مقدسٌ لا يقوم بها إلاّ الشُّجعان من أجل تحسين الأوطان، لا من أجل هدمها وحرقها، وتخريبها. الثّورة يا أولادي، تقف بوجه ظلم ظالم خسيس. وكلُّ ثورة تقوم ضدّ الظلم، يجب أن تكون نظاميّةً لقمع الفوضى، وتمتاز بالعدالة والحقّ».

كان في تلك المملكة المنكوبة شابٌّ صالحٌ جريءٌ، لا يهاب الموت. يحبُّ النّاس محبّة خاليةً من المآرب، عمل كغيره في أراضي «نمرود» وقاسى من الظّلم الشّيء الكثير، وذاق مرارة العيش وشظفه، فلاذ بالصّبر الجميل، وتجلّد على مضض المحن، حتى كَبُر ابنه الذي كان كأبيه ثابت الهمّة، قويّ الشّكيمة، وكان هذا الشّاب بلغ الأربعين من عمره، فوقف مع ابنه على مفترق طريق الحياة.

فكّر الابن بينه وبين نفسه، فلم يجد حلاً مقبولاً. فإمّا أن يرمي والده، تنفيذاً لأمر الملك «نمرود» في وادي الثعابين والأفاعي، وإمّا أن تذهب العائلة جميعها.

حمل الابن أباه في «شوال» كبير إلى

الجبل. وبعد الوداع الأخير قال الوالد لابنه:

- لاتنسَ بنيَّ، أن تسترجع «الشوال» معك.

• وهل زعلت يا أبي، على «الشوال» وأنت ذاهبٌ إلى الموت المحقَّق؟

- كلا يا ولدي، إنَّني لم أزعل على «الشوال» ولم أفكر بقيمته، بل بقيمة صاحبه، وبقيمة أمثالك من الذين أرهبهم الظُّلم، فأطاعوا الظَّالم خائفين مستسلمين. أعد «الشوال» معك، ليحملك فيه ولدك عندما تبلغ -الأربعين يا ولدي.

صَفعت العبارة الولدَ صفعاً قويّاً.. قال بصوت خافت:

• وهل سيرميني ولدي في هذا الوادي السَّحيق، المليء بالأفاعي والثَّعابين؟

- نعم يا ولدي، مثلما تفعل بوالدك، سيفعل ولدك بك. فانتظر حصاد ما زرعت يداك.

• فماذا أفعل إذاً يا والدي؟!

أعدني إلى البيت، وضعني في «معشّة» الدَّجاج، وستكون ساعدي القوي وأكون عقلك المفكّر.

- أعاد الابن والده إلى المنزل تحت عتمة الليل وظلامه، من دون أن يحسَّ به أحدٌ، ووضعه في «معشّة» الدَّجاج، وتظاهر بالحزن والأسى واللَّوعة، لئلاَّ يثير من حوله الشُّبهات.

أمن «نمرود» جانب الحكمة، والتَّوجيه، والمعرفة، والدِّراية، بعد قضائه على شيوخ المملكة ورجالها، فأمر بأخذ الشَّباب إلى حصاد الأشواك، وإن طالبوا بطعام أو شراب، أمر الحارس أن يكون جوابه «تأكلون ممَّا تحصدون..».

وكان الابن يُخبر أباه يوميَّاً بما يفعل الملك الـ«نمرود» بهم فقال له والده:

• «عندما يأتي الـ«نمرود» لتفقّدكم، قُل له: أنهينا عملنا في حصاد هذا الحقل فانقلنا إلى آخر. وهكذا.. حتى إذا نقلكم إلى حصاد قمح أو شعير. فساعتها تأكلون ممَّا تحصدون».

- حضر الـ«نمرود» في اليوم التالي لتفقد العمَّال، فقال له الشابُّ الابن كما علَّمه والده. فقال «نمرود» بخبث:

«هذه الأرض مليئة بالسَّنابل، فاحصدوا من دون رفع رؤوسكم، ومن يرفع رأسه يُقتل قتلاً».

أجابه الشَّاب الابن:

- نحن جائعون يا مولانا، نريد أن نأكل. نحن شعبك. وشعب الملك العظيم لا يجوع.

أجاب «نمرود»:

• كلوا ممّا تحصدون.. وحذارِ من أن يرفع واحدُكم رأسه؟

تذمّر الشّباب من رفيقهم ولاموه على فعلته. فوعدهم خيراً في اليوم التّالي.

وعند المغيب، عاد الولد إلى منزله وأخبر والده بما حصل، فقالَ له:

«حين تريد إراحة ظهرك، تظاهر بأنّك تفرك حبوباً براحتيك، تنفخ عنها الأحساك، وترمي الحبوب في فمك، وتُريح ظهرك ولو قليلاً»

عمل الجميع بنصيحة والد الابن الشّاب، واتّخذوا من هذه النّصيحة وسيلةً لإراحة ظهورهم. أخبر الجنود ملكهم بما حصل. فجاء على عجل في مركبته المذهّبة وراح يراقب بدقّة ويسأل العمّال عمّا يفعلون.

أجابه الشّاب الابن:

- نفرك السّنابل ونأكلها.

قال الملك بغضب:

• أين السّنابل يا هذا؟

إنّنا نأكل ممّا نحصد يا مولاي.

• يبدو أنّك شابٌّ فطن وذكيٌّ أيّها الشّاب المتهوّر. آمرك أن تأتيني في الغد راكباً- ماشياً، محتذياً- حافياً، ومعك صديقك وعدوُّك وكاتم أسرارك، وإلاّ سأجعل منك «عبرة لمن يعتبر».

لطم الابن رأسه بالحائط، وشقّ ثيابه.

قال في نفسه:

«راحت السَّكرةُ.. وإجتْ الفكرة» وأسرع على الفور قاصداً مخبأ والده. وحين التقاه. عنّفه في كلامه وصبَّ جام غضبه عليه قائلاً بندم:

«ليتني رميتك في وادي الأفاعي وخلصت».

أجابه والده بهدوء وروية:

• «هدّئ من روعك يا بنيَّ.. «العقل زينة». وفي العقل الخلاص للإنسان. اهدأ.. وأخبرني بحكايتك، وستجد الحلّ عندي».

روى الابن لوالده ما جرى معه، أطلعه على مطالب الـ«نمرود» فهزَّ برأسه ثم قال له:

• «الصّباح رباح يا ولدي» اذهب الآن إلى فراشك، ونمْ ليلتك هادئاً مطمئنّاً، وستجد غداً كلّ شيء حسب ما تريد وتحبُّ».

نفّذ الشّاب ما قاله والده. لكنّه لم يعرف طعمَ النّوم في تلك الليلة، الأمر الذي لفت

نظر زوجته عليه وبعد حوارٍ بينهما. أخبرها بالقصَّـة كاملـةً. فصاحت بخبـث وحقد: «والـدك في «معشّة» الدجاج؟.. لمَ لم تخبرني قبل الآن؟.. هذا هو الهلاك بعينه».

مضى الليل بين عويل الزّوجة وتعنيفها، وهواجس أفكاره وقلقها، حتّى انبلج الصُّبح مسفراً عن حلول الأب الذي قال لولده:

• «انزل الآن إلى الإسطبل، فتجد حذائي القديم الذي تهرأ نعله فاحتذيه».

نفّذ الابن ما قاله الأب. فظهر محتذياً في الظّاهر، حافياً في الواقع!.. وهكذا انقشعت الغمامة الأولى. تابع الأب قائلاً:

• اركـب جُحيشنـا الـذي لا يستطيـع حملك، فتكون بذلـك راكباً عليه، ورجلاك على الأرض. فتكون راكباً- ماشياً في الوقت نفسه.

فعـل الابن مـا قالـه الأب. فانقشعت الغمامة الثانية.

وأيضاً تابع الأب قائلاً:

- «واذهـب إلى الملك الـ«نمـرود» وخُذ معك عصـاك وامرأتك وكلبنـا الهرم وإنّ سألـك غير هـذا فقل له: «عقلـي الآن في البيت وسآتيك غداً بما تريد».

وصل الشّاب إلى مجلس الملك الـ«نمرود» راكبـاً- حافيـاً، بـين ضحـك الحاضرين وإعجابهم، ثمّ قلبَ قدمه قائلاً:

- انظـر يا مولاي. إنّك تراني حافياً مع أنني محتذي.

قال الملك:

• أين صديقُك؟!

- هذا هو صديقي.. «وأشار إلى الكلب» فانظـر كم هو صادقٌ معي، وهل أصدق من الكلب وأوفـى؟ ثمّ ضربه ضربةً قويّة، فعوى متألماً، وبعد دقيقة، ناداه.. فأتى الكلب وهو يحرِّك ذيله استئناساً بصاحبه، ويتمرّغ على قدميه، غافراً مُستغفراً.

قال الملك:

• وأين عدوُّك؟!

صمت الشّاب قليلاً ثمّ أجاب:

- لم أرَ عـدوّاً غـير الإنسان الذي ينسى صحبة العمر.

نـادى امرأته من الغرفـة الثّانية. وقال لها:

«كم مرّة قلـت لكِ، لسانُك حصانُك، إن صنته صانـكِ. ولم تصنهـه..» ورمى عليها الطّلاق بالثّلاث.

انفعلـت الزّوجـةُ وردّت عليـه بغضب وحقدٍ:

• أنا طالق أيُّها اللئيم.. أيها الخائن. لقد صبرت عليك طويلاً، ولن أصبر أكثر..

نظرت نحو الملك ثمّ تابعت قائلة:

• أيهـا الملك العظيم.. إنَّ والده مخبأً في «معشّة» الدّجاج.

قال الشّاب:

عشر سنوات احتضنتُها تحت سقف واحد في بيتي. تأكل معي، وتصرف من تعبي وتنام على وسادتي. وها هي الآن تتخلّى عنّي عند أوّل عقبـة. فهل هناك عدوٌّ للإنسان أعدى من زوجته الجاهلة.

قال الملك:؟!

أين كاتمُ أسرارك؟

هزَّ الشّاب بعصاه قائلاً:

هذه العصا كانت معـي منذ صباي إلى الآن. معـي في الجبل عندما أرجعت والدي معي، وخبّأتـه، ولم تفضح سرِي، وما تكلّمت عن أمري.

-٤-

صمتت السّيـدة دقيقة ولم تنبس بكلمة. وأنـا مشـدوه بها. طلبـتُ منهـا أن تتابع. فانهمرت الدُّموع من عينيها، وبدأت تتلعثم بالكلام، قالت:

لقد انحدرت دمعةٌ كبيرةٌ على خدِّ الملك الظّالم «النمرود» بعد تلك الحادثة على حدٍّ ما قالـه عارفوه. ثمَّ وقـف في شعبه وقال لهم:

«ليُكرم كلٌّ منكم أباه وأمَّه فيطول عمره علـى الأرض».. «فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا».. ويسمع كل منكم نصيحة والده، ويعمـل بتوجيهاته.. ولينتبـه كلُّ رجلٍ من حمق زوجته.

ثم توجّه بكلامه إلى الشّاب وقال له:

ستكون منذ اليوم معي في قصري فأنت مستشاري، ومساعدي. ونادى على البنّائين وأمرهم أن يحفروا فوق باب القصر العبارة التّالية:

«العدلُ أساسُ المُلك، تُبنى الممالكُ بحكمةِ الشّيوخ وقوّةِ الشّبابِ وعدالةِ الحاكم».

تداعيات امرأة مهزومة

إبراهيم عواد خليف ✿

حتى القطع التي ألعب بها سوداء.. أعطانيها دون أن يسألني أو يترك لي فرصة الاختيار!! يقولون: (إن النساء الأسعد مثل الأمم الأسعد.. لا تاريخ لها).(١)

لذا فإنني خارج محيط هذه الدائرة لأني أمتلك -وليتني ما كنت- تاريخاً عريقاً بالقتام وأشياء أخرى.. على أيّ حال ينبغي أن أحرك أحد التماثيل الصغيرة، على الأقل لأشعره أنّي معه!

بيدق، أجل، ذلك الأسود المسحوق، إنه يتملقني، يريد الهروب من لونه، حسنٌ، لك ذلك يا مواطن المملكة المهجنة، ولكن تذكر أنك جنديٌّ ليس إلا.. خطاك قصيرة، وطريقك مسدود!، وربما كنتُ كذلك أيضاً، أعني إذا حاولتُ أن أجد من يشبهني في هذه الرقعة، فلن أجد إلاك أيّها السّادر في مربّعك الضيق.

أرفع بصري نحوه، فيبدو وجهه لي متموجاً من وراء عدستين دائختين تحيطان بعينيّ، وشعرات انثالت من ليل وخطه البياض، ولعلّي وجدت لتوّي بياضاً ما كنت لأراه في صفحة تخصّني!.

أنقل الوزير من مكانه، أضعه في مربّع أبيض، هو ذا مكانه فلم يُخلق إلا لهذا..، ينظر إليّ بتوجّس، وما زالت أناملي تمسكُ وزيرها الأسود، وشيءٌ من الرّيبة لفّني خوفاً عليه، امتدت أصابعه بحصانه الأبيض قرب جنودي، لمست يدي، رعشةٌ أوقفت الدماء في عروقي، وأجدني رهينة تداعيات لا تختلف كثيراً عن هذه الرّقعة.. هل تقصد ذلك؟.. هل تقصد أن يطلق حصانه الأبيض رسول شوق؟.. آهٍ يا «دونكيشوتي» المتيّم، فقط لو

✿ قاص سوري.

أنك تشعر بما يلفني من هذا الانسحاق المرير، إنّه يطوّح بي، يجعلني أتقزّم كحشرة؛.. أرجوك لا تجعلني أحسُّ أنّك بليد! عُذراً، فلم أقصد إهانتك.. ولكن!! سأسحب كلمتي، وأسحب وزيري كذلك، لن أتركه لحصانك الجامح هذا.

– أراك تطيلين التفكير، أهو الخوف على جنودك؟!

– هو حقي على ما أعتقد، بعيداً عن قضيّة الموت والخوف..

– ولكن أصبح الموت سلعةً في بلادنا.

– ربّما!

– وأصبح ليتر (البيبسي) أغلى من ليتر الدم العربي.

– ..اصمتْ.

أحرّك القلعة المنتصبة في الزاوية، سأخيفه بها، سأريه المهلة ربّما تثير الانتباه على أقل تقدير.. لو أنّي أمتلك كبرياءك أيتها الواقفة دائماً.. ودونما راحة!

أوّاهُ لو أستطيع أن أمزّع ذلك الشّيء الأسود في خلاياي، فيتهاوى أمام عينيّ جذاذات ترتمي في الفراغ الهشّ من حولي!

أنا التي حسبت نفسي قلعة... أهزم أمامي!

تمتدُّ أصابعي، أضع الوزير دون الملك ليحميه من حماقات صديقي، يجمع حصانه بين تماثيلي الصغيرة، ويرتمي الجندي إياه شهيداً.

الوزير... مرة دخلت حماماً عاماً في الجامعة، كان أحدهم قد كتب على بابه:

نحن لا نختلف كثيراً عن أولياء الكراسي ومن في حسابهم، فجميعنا نلج هذا المكان!

وكنت فكرت كثيراً في ما قرأت، وخلصت إلى أنّ كاتبها حاول جاهداً أن يجد شيئاً مشتركاً بينه وبين مدير مثلاً، أيّاً كان ذلك الشيء نافلاً!.

يشعل خصمي سيجارةً يودعها شفتيه، يشهق نفساً عميقاً دون أن ينظر إليّ!.

فقط لو تصطاد عيوني وراء عدساتها الثخينة، فالعيون تظلُّ أخطر منافذ الجمجمة نحو المخ، ولم تغلقها النظارة، ثق بي!

لماذا صنعت هذا الحاجز بيننا؟ (السؤال للزمن) فأنا طبيعيةٌ، وهو موظفٌ عادي، وهل كان من الضروري أن يراني كشرنقةٍ ألتفُّ بخيط حرير واه، فلا يجرؤ على العبث بذلك الخيط، خشية أن يراه يغطي بقايا كائن هلامي رخو.. يتصاعد دخان سيجارته في الفضاء الضيق المغسول بتداعيات غزيرة، ليرسم تفاصيل وإيحاءات لا يقوَ على البوح بها.. تشتدُّ المعركة ضراوةً بيننا، تتراكم الضّحايا وأنا بأوّلهم، تختلط القطع البيضاء والسّوداء، تتقاطع كلها في المربّعات الرّتيبة، يدي اليُمنى ويُسراه تعبثان بمصائر كثيرة على الدّروب المرصوفة برقعة الشطرنج.

خسرتُ كلَّ صراعاتي مع الحياة، فلن

أخسرَ لعبتي معك أيّها الحبيب الجّاهل حبي، سأهزمك!.

لكنه ردّ من غير قصد على ما يلوبُ بداخلي، حين تساقط رماد سيجارته على الطاولة أمامي..

ليتك تجاملني، تتصنّع الخسارة، ما يحدث فقط: سقوط عرش من البلاستيك! وآنئذٍ ستكسبُ الكثير... أعدك، وربما فعلتها... أنت ذكيٌ وأنا أستحق منك ذلك؛ وما المشكلة في أن أكون طبيبةً، وأنتَ.. أنتَ موظفٌ عادي! ما زلت أتوسّم بحصانك الأبيض خيراً، ذاك الذي يجوس مضلعاتي وأضلاعي لن يكون هدّية طروادة، ويدمّرني في النهاية..

ولكن هل ينبغي عليّ أن أمزّق ستار الأنفة الذي تبرقعت به منذ صباي، اتشفّعُ حصانه الأبيض يهمي إليّ من مدارات بيضاء وسوداء ودخانية، يحمل بشائر بلون القطع التي يلعب بها... لا أعلم.. لا أعلم، والسّؤال هذه المرّة لثالوث القلب، والعقل، وشهادة بقدّ الدنيا؛ إشارات تتقاسمني مثل كلاليب حادّة.

وأخيراً..

هو ذا يحدّق في، يمسح ملامحي المتجهّمة بنظرات باردة، بل متجمّدة، لتبدو له عيناي ممزوجتين بسحرٍ خفيفٍ بلّوري من وراء عدستين ثخينتين، وشيءٌ من السواد ينثال حول محيطهما، لم تنجح الأصبغة الخفيفة بإخفائه.. عطرٌ لطيفٌ يتسرّب حذراً في الفراغ الواجم بيننا، ويجول ببصره متفحّصاً جسدي، يبتلع ريقه، يضطرب قليلاً قبل أن يرفع بصره ثانيةً لتلتقي نظراتنا، فأراني شبحاً بمرآة أحداقه، أرى شعري المتناثر بهمجيّة فوق صدري وجيدي، أرى بعينيه مخاوف تفلّي أركاني!! يستعيد ثانيةً صلابته أمامي، يرفع قطعةً لا أعلم ما هي، بل أخشى النظر إليها إشفاقاً على حلم مازال يمتطي حصانه، لا لن ينهيَها! إنّه يخيفني ليس غير، لكنّ نظراته بدّدت ضباب الشكّ الجميل؛ هي ذي النّهاية؟! أسأل كل شيءٍ حولي...، خاتمة اللعبة، وخاتمة الحلم المفترّ، وخاتمتي!

أضع النظارة جانباً، وتهوي دمعةٌ لوّنها الكحل سواداً بالصّباغ الأبيض، فتبدو كرقعة شطرنج صغيرة، تجتاز شفتيّ لتهوي على رأس مليكي الأسود، تعزّيه بمصابه وتعزيني بمصاباتي!

زمّ شفتيه، ثم انتصب بقوامه الممتلئ، ودون أن يلاحظ دمعتي، أو دموعي، ضرب حصان (الأحلام) قريباً من الملك، ليقول بسخرية من تخامره نشوة الانتصار، وكسب الرّهان: كشّ ماتْ، مات الملك.

الإدارة التربوية بالقيم

أ. د. صالحة سنقر ✿

تواجه المجتمعات الحديثة أزمة حقيقية في القيم التي بات الأفراد يؤمنون بها، حيث طغت النزعة المادية على قيم الكثير من الأفراد ومعتقداتهم ومثُلهم، وكان للعولمة من جهة والتطور السريع في عالم التكنولوجيا من جهة أخرى آثارها الواضحة في هذا المجال، فكان لابدَّ من إجراءات فعالة تعيد للإنسان إنسانيته.

وتعد القيم ذات أهمية خاصة كونها تشكل مجموعة الأحكام والمعايير التي تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، والتي تمكنه من تحديد توجهات حياته وأهدافها، ولاتقتصر أهمية القيم على المجتمع بل يمتد أثرها إلى حياة الفرد الخاصة، فتكامل صحة الفرد النفسية يعتمد على مدى اتساق منظومة القيم لديه.

وتترسخ القيم لدى الفرد من خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريق مباشرة أو غير مباشرة، وهي بما تحمله من خصائص نفسية اجتماعية تعمل على توعية الإنسان من الاندفاع وراء رغباته وشهواته، فهي تلعب دوراً هاماً في تنظيم سلوكه حاضراً ومستقبلاً وبناء شخصيته المتوازنة، وهي تحدد الإطار المرجعي العام الذي يربط الأفراد فيما بينهم، إلى جانب أنها تساعدهم في فهم العالم من حولهم والتكيف معه، مما يكفل استقرار المجتمع وحفظ كيانه. وبسبب ضرورتها فقد اعتُبرت دستور حياة الأفراد

✿ وزيرة التعليم العالي سابقاً، وأستاذة التربية في جامعة دمشق.

والجماعات، ووصفها الفلاسفة بالخير الأسمى والكمال.

ولأن المجتمعات المعاصرة تعيش مرحلة تحديثية تطويرية فلابدّ من إعادة التوازن القيمي لها، وذلك بترسيخ القيم الفاضلة في نفوس الأفراد وخاصة للناشئة منهم، وتلك مسؤولية أفراد المجتمع جميعاً وليست مسؤولية المربين وحدهم. ولما كانت للقيم أنواع وأصناف حسب المنطلق والتوجه، فمن المفيد التطرق لها.

أنواع القيم:

للقيم أنواع وتصنيفات عديدة تعكس منطلقاتها، فقد يكون المنطلق فلسفياً، فالفلسفة المثالية تنظر للقيم على أنها خالدة لاتزول، وغير قابلة للتغيير، والفلسفة الواقعية تنظر إلى القيم على أنها حقيقة موجودة في عالمنا، ويمكن للمرء أن يحصل عليها بالأسلوب العلمي، أو من خبرته في الحياة. والفلسفة البراغماتية ترى أن القيم ليست مطلقة، وأنها قابلة للتغير، وتُقدَّر القيمة بما يعود على الفرد والمجتمع من فائدة، والفلسفة الوجودية تترك للفرد حرية اختيار قيمه، وتتجلى فيما يمارسه من أعمال بملء حريته، والفلسفة الماركسية ترى في القيم سمة اجتماعية، فلايمكن فهم القيم بعيداً عن البيئة الاجتماعية، وما يصلح لأفراد المجتمع عامة يصلح لكل فرد فيه. أما الفلسفة الإسلامية فقد عبرت عن القيم بألفاظ أخرى كالخير والمعروف والفضيلة والحسنة وجميعها من مبادئ الإسلام ذاته. وتأخذ الإدارة بالقيم من الفلسفات السابقة كل ما يمكّنها من تحقيق الفلسفة التربوية والأهداف التربوية وترى في العملية التربوية عملية ديناميكية واقعية متطورة ومستمرة.

وإلى جانب المنطلق الفلسفي هناك المنطلقات التربوية، والاجتماعية والاقتصادية...إلخ.

وهناك القيم المطلقة وهي قيم لاحدود زمانية أو مكانية لها، إنها قيم تُطلب لذاتها لا لسواها، مثل قيم الحرية والعدالة والأمن...إلخ، وهناك القيم المحددة لهدف معين والتي تكون وسيلة لسواها مثل قيم الشجاعة والتعاون والطاعة. وقد تكون القيم إيجابية كقيمة إتقان العمل، أو سلبية كقيمة حب الثأر.

وتصنف القيم في الحياة العملية بحسب مضمونها والمجال الذي تتبع له، كأن تكون قيماً تربوية أو اجتماعية أو اقتصادية أو

سياسية أو دينية. ومهما كان نوع القيم فلابدَّ من تحقيق الانسجام والتكامل فيما بينها، فلا يمكن للفرد مثلاً أن يتحلى بقيمة توظيف الوقت والحرص على الاستغلال الأمثل له ولا يتحلى في الوقت نفسه بقيمة ترشيد الاستهلاك وعدم الهدر.

ويرى بوجاردوس Bogardus أن هناك علاقة وثيقة بين القيم والاتجاهات، فكل اتجاه مصحوب بقيمة، والاتجاه والقيمة وجهان لعملة واحدة، فإذا كان اتجاه الفرد أو الجماعة اتجاهاً إيجابياً، كانت القيمة التي تصحب هذا الاتجاه وترتبط به قيمة إيجابية أيضاً، وإذا كان اتجاه الفرد أو الجماعة اتجاهاً سلبياً كانت القيمة المرتبطة به قيمة سلبية.

أهمية القيم في الإدارة عامة والإدارة التربوية خاصة:

تشكل القيم منطلقات السلوك وقواعده ومبادئه، وتعد القيم ذات أهمية كبيرة على المستوى الفردي والجماعي، فهي الأساس السليم لبناء منهج حياة صحيح، ولها أهمية بالغة في حياة الشعوب والأمم، وفي توجيه سلوك الأفراد، فأي عمل يقوم به الفرد يعكس قيماً وأخلاقاً معينة، ولكل فرد قيمه، وتعد القيم المحرك والموجه لسلوك الأفراد، ومن دونها يشعر الفرد بالضياع والاغتراب عن مجتمعه. ولكل أمة تراثها الفكري والثقافي الذي يحقق لها الاستقرار والذي يحمل في طياته الكثير من القيم، والقيم تحفظ للمجتمع وجوده وكيانه واستقراره، وهي الركيزة الأساسية لنشوء الحضارات، فالأمة العربية بفضل القيم الصحيحة التي حملتها أوجدت حضارة عريقة كانت آثارها جلية في حضارات الآخرين.

ويعد تكوين القيم محور العمل التربوي وجوهره، فالتعليم بما يوفر للمتعلم من معارف ومهارات لامعنى له إن لم يوظف لصالح قيم إيجابية في نفس المتعلم. وبفضل القيم تتحقق الأهداف التربوية الموضوعية والبناءة، ويتحقق الأداء الأمثل للفرد وصولاً للجودة الشاملة، وتعد الإدارة التربوية بالقيم مرساة النجاة كما يصفها البعض، لما لها من أثر بين في بناء الإنسان، المستفيد الأكبر منها في حياته وحياة أسرته ووطنه ومجتمعه. والمربي هو الربان الذي يعزز قيم المتعلمين ويوجه سلوكهم ويدربهم على الممارسات الصحيحة معتمداً على قيم ومعايير أخلاقية محددة لضبط سلوكاتهم،

مما يؤهلهم للتفاعل الإيجابي مع ذويهم ومعلميهم وأقرانهم.

وسبيله في هذا كله هو تربية الأخلاق، فلا نجاح في العمل من دون القيم والأخلاق، ولكل أمة تراثها الفكري والثقافي الذي يحقق لها الاستقرار والذي يحمل في طياته الكثير من القيم، والأمة العربية لها من القيم والمبادئ التي تسهل على خبراء الإدارة التربوية تبني نمط الإدارة التربوية بالقيم.

فما هي الإدارة بالقيم؟ والإدارة التربوية بالقيم؟

عرّفها «مايكل أوكوتور» مؤسس مركز الإدارة بالقيم، بأنه الأسلوب الذي يعمل وفق معايير معينة وضوابط محددة، بحيث يرسم ملامح السلوك الإنساني في الإدارة كما يجب أن تكون.

وعرّفها «بشير التجاني» بأنهامجموعة القيم والمبادئ الفاضلة والمعايير الصحيحة التي تحكم السلوك الإداري لتحقيق كفاءة المؤسسة ورضا العاملين، وأنها أفضل أسلوب يجمع بين العمل الإداري والقيم الإنسانية التي تعلو على القيم الأخرى، كالثروة والسلطة.

والإدارة بالقيم ترتكز إلى نظرية العلاقات الإنسانية واهتمامها بالإنسان، والاستفادة القصوى من طاقاته للمساهمة في تحسين الإنتاجية المادية، ولا يعني مفهوم الإدارة بالقيم البعد عن المعايير العلمية القائمة على تحديد احتياجات العاملين وقدراتهم والعمل على تلبيتها، أو عدم اعتماد التجريب والتقويم لضمان سلامة العمل، إنها إدارة تضم تحت جناحيها إيجابيات أنماط الإدارات الأخرى وتُوظف ذلك كله بمنطق سليم لصالح الإنسان وضميره خُلُقاً وعقلاً وسلوكاً، أي إنها تحرص على الربط والتكامل بين الجوانب الثلاثة: المعرفية والمهارية والوجدانية. وهذا النمط من الإدارة ظهر بديلاً عن أنماط إدارية أخرى،كالإدارة التقليدية والإدارة العلمية، وسواها...

وتُعرَف الإدارة التربوية بالقيم بأنها منهج عمل متميز يحمل في طياته الفضائل والقيم العليا والتي تهدف إلى تحقيق الأداء الجيد، ويُجمع عليه العاملون في المؤسسة التربوية،حيث يتم تحديد الدور المطلوب من كل منهم، ولتحقيق الأهداف وتوفير البيئة المناسبة يقوم كل فرد بما يترتب عليه من أدوار ضمن منظومة عمل متعددة الأبعاد،

فهناك الأدوار الخاصة بالمدير، والأدوار الخاصة بالمعلم، وأخرى خاصة بالمتعلمين، والتي تسعى جميعها لتنمية القدرات البشرية وتطويرها.

خصائص الإدارة التربوية بالقيم:

تعد الإدارة التربوية بطبيعتها ممارسة أخلاقية تلتزم بمجموعة من القيم والفضائل الضرورية لتحقيق الأهداف التربوية، والإنسان في هذا النمط من الإدارة هو المستفيد الأول، كونها إدارة مثلى تسعى إلى تنمية الموارد البشرية وتحرص على احترام إنسانية الإنسان، وتكوين القيم الصحيحة فيه، والتي تعكس فكر المجتمع وأخلاقه.

وتتصف الإدارة التربوية بالقيم بخصائص تميزها عن غيرها من أنماط الإدارة منها:

- **النظر إلى الإدارة كظاهرة مجتمعية** متجددة تشكل جزءاً من نسيج المجتمع، تتأثر بقيمه وتؤثر فيه بقدر زيادة فاعليتها.

- **الموضوعية في التعامل** والتي تتجسد في احترام النظام وتحقيق تكافؤ الفرص وتحديد المسؤوليات وتقدير جهود العاملين.

- **القدرة على تلبية حاجات العاملين** وتيسير الحصول على ما يلزمهم وتوفير فرص التحدي لكل منهم، لتوسيع نطاق قدراتهم تحقيقاً لأهدافهم، وإتاحة المجال أمامهم للتميز. ومن القيم التي يسعى المدير لتعزيزها لدى المعلمين: قيم الانتماء لمهنة التعليم، قيم الاحترام والتقيد بالقوانين والتعليمات،قيم الخير، قيم الدعم والمساندة، قيم الاستقلال.

- **الاستخدام الأمثل للموارد البشرية** وتوفير البيئة الإبداعية المناسبة للاستفادة من الطاقات الكامنة لدى كل فرد.

- **تحقيق التوازن والتوافق بين القيم** التي يؤمن بها الفرد وبين ممارساته بحيث يفعل ما يؤمن به، ويؤمن بما يفعله.

- **الشفافية والوضوح،** فهي إدارة تتجنب اللبس وتحرص على اتفاق الجميع على قيم محددة، وتحديد موقفهم من الحياة، ويتجلى ذلك فيما يمارسه كل منهم من دور مناسب لطاقته وحسب خبرته مما يجعل العمل متقناً ومتكاملاً.

- **تأمين جو مشبع بالعاطفة الإنسانية** وذلك بإتاحة الحرية للجميع وتشجيع كل فرد على تحمل المسؤولية وإثبات الذات.

- **التشاركية في العمل:** فالإدارة التربوية بطبيعتها قضية مجتمعية،وبسبب كثرة

المتغيرات التربوية والاقتصادية والسياسية والقانونية والتكنولوجية والاجتماعية والسكانية والجغرافية، وتعدد المؤثرات وتشابكها، فإن الإدارة بالقيم تقوم على التشاركية وتعاون الجميع في التخطيط والتنفيذ والتقويم والمتابعة...الخ. للتصدي للمشكلات الحقيقية التي قد يواجهها العاملون في الإدارة وتذليل الصعوبات.

– **تأكيد أهمية الرقابة الذاتية:** كقيمة عملية ضرورية للتطوير، واستثمار الإمكانات الفردية والجماعية كلها لصالح العمل، سواء ما يتعلق بالتشخيص أو اتخاذ القرارات، والتي تتم في هذا النمط من الإدارة في جو طبيعي آمن بعيداً عن الممارسات البيروقراطية.

– **الشمول:** تعد الإدارة بالقيم تنظيماً شمولياً، فهي تُحدث تغييراً شاملاً في بنية التعليم وبرامجه وطرائقه والخبرات التي تعتمدها المؤسسة التربوية. والقيم مهما كان نوعها لابدَّ من تحقيق الانسجام والتكامل فيما بينها، والقيم الإيجابية تترافق مع بعضها البعض، فلا يمكن أن نتحلى بقيمة توظيف الوقت والاستغلال الأمثل له ولا نأخذ بقيمة ترشيد الاستهلاك وعدم الهدر.

– **الثبات والاستمرار:** فالقيم التي يحملها الفرد تصبح جزءاً من شخصيته، يؤمن بها ويتبناها، فهي لديه من الثوابت التي يدافع عنها ويعمل على ترسيخها في نفوس الآخرين.

– **الواقعية:** فالإدارة التربوية بالقيم تنطلق من الواقع في توجهاتها،إنها تهتم بفردية كل معلم ومتعلم أكثر من الاهتمام بقيمة النظام، وهي تسعى وبالتعاون مع الآخرين إلى ترسيخ القيم وتعزيزها وحث المعلمين والمتعلمين إلى التنافس في ممارستها على أرض الواقع.

– **المرونة:** من حيث الزمان والمكان، ومن حيث تلبية رغبات الأفراد وميولهم، وحسب قدراتهم الذاتية.

– **خلق المناخ التنظيمي الملائم** لبناء علاقات إنسانية بين العاملين في المؤسسة تقوم على التفاعل والتواصل مع الآخرين وحسب متطلبات الموقف والجهة المتعامل معها، حيث يتفق الجميع على القيم الجديدة كالرضا الوظيفي والاستقامة في العمل تحقيقاً للأهداف التربوية.

آلية عمل الإدارة التربوية بالقيم:

إن الالتزام بنمط الإدارة التربوية بالقيم يتطلب تبني آلية ذات مراحل ثلاث من قبل المعنيين بالإدارة التربوية، من إدارة عليا، ووسطى، وعاملين،وهذه المراحل هي:

١- مرحلة التهيئة:

ففي البداية وكخطوة أولى لابدَّ للمدير من تكوين ثقافة العمل الجماعي وتنمية قدرات المعلمين وتمكينهم، وتوعية الأفراد بالقيم الإيجابية الكامنة في أعماقهم والتي تفيدهم في عملهم التربوي، كقيمة الاستقامة والنزاهة في تصرفاتهم كلها، وقيمة الإخلاص للمؤسسة وللعاملين فيها، وقيمة احترام الآخرين والثقة بقدراتهم وتقدير جهودهم والتحلي بالموضوعية في التعامل معهم، وقيمة الانتماء للمؤسسة والرضا الوظيفي وقيمة إتقان العمل والسعي الجاد لتحقيق أفضل النتائج وتحقيق الجودة...إلخ

ولابدَّ للمدير من توضيح القيم المراد التأكيد عليها للعاملين في المدرسة، معلمين ومتعلمين، والمعايير التي استندت إليها، وما هو التغيير المحتمل لمواكبتها.

ونتيجة ذلك فإن الأفراد يقارنون بين القيم التي يحملونها وبين القيم الجديدة التي يتداولون فيها، فيقبلون على التغيير، وهذا يتطلب من المدير أن يقوم بجهد كافٍ لتوضيح ضرورة التغيير والأخذ بالقيم الجديدة، إلى جانب السعي الدؤوب لجعل تنظيم المدرسة عاملاً ميسراً لهذا النوع من الإدارة، وذلك بتوفير التسهيلات الفنية والتقنية والمادية، وخاصة البيانات الكمية والنوعية المساعدة في اتخاذ القرارات الخاصة بتكوين القيم وترسيخها.

٢- مرحلة التخطيط:

يسعى المهتمون بتطبيق مفهوم الإدارة التربوية بالقيم إلى تحديد الأهداف التربوية التي ينشدون تحقيقها، واستنباط القيم التي تحملها تلك الأهداف،والتي سيتم التقييم بموجبها.

إذ لابد من أن تتوافق أهداف المدرسة مع نمط الإدارة بالقيم، ومن ثم يتم وضع الخطط التربوية على تعدد مستوياتها من خطط طويلة المدى ومتوسطة وقصيرة المدى والتي ترتكز إلى فلسفة تربوية، وسياسة تربوية واضحتين، تضمنتها الأهداف التربوية. وبهذا تصبح النظرة إلى القيم التي تمَّ الاتفاق عليها وكأنها هي المحور الرئيس للمؤسسة.

وفي ضوء ذلك يتم وضع رؤية واستراتيجيات مرنة ومناسبة من قبل صانعي القرار التربوي وواضعي السياسة التربوية تخدم قيم المؤسسة التربوية لإحداث التغيير ولغرس القيم الجديدة في ثقافة المؤسسة التربوية وتجذيرها واستمرارها ضمن إطار مؤسسي متكامل.وبهذا تكون القيم والأخلاق إن أُحسن التخطيط لها هي البعد الموضوعي الموجه للمدير عند صنع القرار.

ولما كان التركيز يجب أن يتمحور حول القيم المراد تمثلها في الإدارة فلابد من التربية الصحيحة للإنسان الذي هو مفتاح التطور، وهو العنصر الحيوي لنجاح المدرسة.

ولابد للإداريين الذين تبنوا نمط الإدارة بالقيم من أن يدركوا أن الإدارة بالقيم تحتاج إلى فضاء زمني واسع لتعطي ثمارها.

٣- مرحلة التنفيذ:

يتطلب التنفيذ تجنب كل أشكال التسلط والهيمنة، والتعامل مع كل فرد على أنه إنسان له قيمة وموقف ورأي، ولابد من توفير جو يسوده الاحترام والتعامل الإنساني والشعور بالكرامة ليختار القيم التي يراها الأفضل لتحقيق الأهداف التربوية.

فعندما يقبل المعلمون على تمثل القيم الأكثر جدوى في العمل التربوي يحدد المدير الطرق المساعدة لهم على اعتمادها والعمل بموجبها وبذلك تتعزز ثقتهم بأنفسهم فيضفون الطابع الذاتي على تلك القيم.

ويتحقق الارتقاء بمستوى القيم عامة والتربوية خاصة عند الإعداد الأمثل للمعلمين ووضع برامج ذات أثر إيجابي في مجال تميتهم مهنياً. ومما لاشك فيه أن ترسيخ القيم في المؤسسات التربوية يقع على عاتق المديرين الذين يمارسون الإدارة، فعلاً لا قولاً، ومن خلال الآخرين وليس عليهم، والذين يجب أن تنصب جهودهم على إثارة القدرات الكامنة لدى العاملين وتكوين المهارات اللازمة لهم لاتخاذ القرارات لافرضها عليهم.

يقول(تشارلز جارفيلد) إذا كان الآباء مسؤولين عن قيم أبنائهم، فإن مديري المؤسسات التربوية مسؤولون عن قيم المعلمين والمتعلمين.

فالقيم تلعب دوراً أساسياً في سلوك مديري المدارس، وفي اتخاذهم لقراراتهم،

وكيفية تعاملهم مع الأفراد الذين يعملون معهم، وكذلك مع أفراد المجتمع المحلي.. وهذا كله يساعد في تطوير عملهم التربوي ليصبح أكثر حياة ومعنى، وفي نجاحهم في عملهم الإداري.

والمدير الكفء هو الذي يحرص على تطوير التربية لتصبح أكثر حياة ومعنى، وعلى ترسيخ القيم الجوهرية في نفوس العاملين معه في المؤسسة التربوية، وهذا يمثل مكوناً أساسياً لفلسفة الإدارة بالقيم. وبدهي أن المدير الذي لايؤمن بقيم معينة يعجز عن تكوينها لدى من حوله.

والمتفحص للواقع يلحظ أن بعض المديرين يخافون التعامل مع القيم، ويعمدون إلى فرض ما يؤمنون به على من حولهم بأسلوب الفوقية والوعظ وبعيداً عن الحوار والإقناع، وبدلاً من أن يتوجه اهتمامهم إلى المعلمين كافة، يتركز على الأغلب على المعلم الذي يعاني من مشكلة تسبب له خللاً بأدائه التربوي.

ويمكن القول إن آلية العمل وفق نمط الإدارة بالقيم تتطلب:

- **خلق مناخ تنظيمي** في المؤسسة التربوية يتسم بالعلاقات الإنسانية بين العاملين، ويقوم على الرقابة الذاتية لكل من المدير والمعلمين والمتعلمين.

- **التحليل المنطقي للأدوار الإدارية**، والعمل وفق ما تتطلبه المنظومة القيمية التي يعمل بها المدير والتي يجب أن تتضمن الأمانة والإخلاص والعدل والتعاون والانتماء وغيرها، والنظر إلى مفهوم القيم كسبيل لنجاح الإدارة التربوية.

- **جعل القيم التربوية المنطلق الرئيس**، والهاجس للمديرين في عملهم يغلبهم الحماس لتحقيقها فيما يقدمونه من معارف، وما يمارسونه من سلوكيات. وأن يتم توجيه المدير للمعلمين نحو قيم معينة على نحو يشعر المعلم والمتعلم فيه أن إيمانه بها جاء نتيجة اختياره الحر لها وتقويمه الصحيح لمضمونها.

- **التروي عند الاختيار بين القيم**، وهي عملية تعد من صميم العمل الإداري والحياة التنظيمية، وتتطلب الحكمة في استخدام السلطة والتحلي بالعلاقات الإنسانية والتأثير في الآخرين عبر قنوات الاتصال من دون تعجل أو تبسيط.واختيار المدير لقيم ما، من دون أية مرتكزات عقلية منطقية لاتمكنه من السلوك الصحيح، وكل قيمة

لاتوجه الحياة العقلية للفرد أولاً، ومواقفه السلوكية ثانياً،واستمرارية إيمانه بها ثالثاً، ليست بقيمة على الإطلاق.

- **توافر قيم بديلة**، تمكن المدير من المقارنة والموازنة، وتتيح له الاختيار، وكل قيمة لابدائل لها لامعنى للاختيار فيها.

بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها مدير الإدارة التربوية بالقيم:

لما كان المدير أحد أركان العملية التربوية، وكانت التربية بطبيعتها عملية قيمية، فإن الإدارة بالقيم تحتاج من المدير إلى:

- **تبني نسق قيمي واضح** في تعامله مع الأفراد العاملين معه، ومع المؤسسات التربوية الأخرى، وأن يمتلك رؤية واضحة عن ماهية القيم وعمليات ترسيخها، وأن يكون مؤمناً بأهميتها في بناء الإنسان، متفهماً للفروق الفردية بين العاملين وملبياً لحاجاتهم.

- **أن يتحلى بحساسية واضحة للمعايير** الأخلاقية والقيمية، وأن يمتلك قدرة على التخطيط السليم والفهم التام لمدخلات العمل التربوي وما يتعلق بالنسق الثقافي والفلسفة التربوية.

وكلما كانت الإدارة مبنية على سلطة المعرفة والعلم كانت أقرب إلى الموضوعية والفاعلية في تحقيق الأهداف.

- **أن يؤمن بالقدرة على التغيير** الذي من دونه يصبح المرء فريسة للجمود واليأس، فالتربية بمفهومها المعاصر عملية تغيير وتطوير مجتمعي، وأن يعمل وفق أهداف وقيم جديدة تختلف جذرياً عن سابقاتها، وبطرق وأساليب جديدة. خاصة وأن كل تغيير يواجه مقاومة لأن من طبيعة الإنسان أن يتخذ موقفاً عدائياً تجاه ما يجهله.

- **أن يتحلى بالقيم والفضائل**، وأن يقدم أنموذجاً يحتذيه الآخرون،وأن يعزز المحبة والتقدير المتبادل بين العاملين معه، ويتيح المجال لكل فرد منهم للتعبير عن القيم التي آمن بها من خلال أسرته ومجتمعه المحلي، وأن يتسم بالحكمة في توظيف سلطته كمدير لصالح المؤسسة التربوية، ليتمكن من مساعدة العاملين معه على فهم القيم التربوية والارتباط بها وممارستها، وتجنيبهم التخبط والعشوائية.

- **أن يعتمد اللامركزية في التعامل مع** العاملين في المؤسسة، وأن يتحلى بالمرونة ويمتلك القدرة على إدارة التغيير والتوجيه وتعزيز القيم والفضائل، بحيث يحسن

قراءة الواقع واستيعاب التطور الحاصل في الثقافة العالمية والتفاعل معها، ودراسة انعكاساتها على الفرد والمدرسة والمجتمع واستقراء المستقبل.

- أن يمتلك خبرة كافية في بناء الثقافة التنظيمية الملائمة للقيم، وفي هندسة العلاقات والعمليات، وأن يحرص على التطوير والنمو المهني المستمر لتحقيق الجودة في العملية التعليمية التعلّمية وصولاً إلى مجتمع التعلّم.

- أن تكون لديه رغبة صادقة في التعاون مع المعلمين والعاملين في المدرسة لتعزيز القيم والاتجاهات الجديدة في ثقافة المؤسسة التربوية من خلال البرامج التربوية المتنوعة وتصويب مسارها في حال إساءة التعبير عنها.

فالمدير الكفء هو القادر على تحمل المسؤولية والإبداع في تنفيذها، يؤدي دوره الصحيح كموجه ومرشد ومشرف، ويحرص على ترسيخ القيم الجوهرية في نفوس العاملين معه، وهو الذي يأخذ بيدهم لممارسة أدوار قيادية، ويشجعهم على النقد البنّاء والمراقبة والتخطيط المشترك، وهي أدوار تمثل مكوّناً أساسياً لفلسفة الإدارة بالقيم.

- أن يمتلك مهارات اتصال كافية ومتنوعة تمكنه من بناء شبكة واسعة من العلاقات داخل المؤسسة ومع المجتمع المحلي. فترسيخ قيم أصيلة يتطلب توفير فرص تفاعل حقيقي مع الآخرين، معلمين ومتعلمين وأولياء أمور وأفراد المجتمع المحلي، على تنوع أعمارهم ومستوياتهم وثقافاتهم وهذا يتطلب منه الخبرة الكافية لإيجاد العلاقات الصحيحة بين الأفراد إلى جانب التحلي بروح إنسانية منفتحة على الآخرين. لأن مهارة الاتصال مهارة مركبة تشتمل على مهارات فرعية،مثل الاستماع، وطرح الأسئلة، ووصف السلوك، والتحقق من التصورات، وتبقى مهارة الاستماع الأكثر أهمية في الاتصال الفعال الذي يقوي العلاقات بين المدير والعاملين معه، وبالتالي يعزز القيم المرغوبة.

والمدير في أثناء قيامه بمهامه الإدارية يتأثر بعوامل عدة، منها عوامل ذاتية، تتعلق بقدراته وميوله واتجاهاته وقيمه، ومنها عوامل تتعلق بالبيئة المدرسية من معلمين وإداريين وطلبة، وتقنيات تربوية وغيرها.

مما سبق يتبين أن للقيم أثرها البين في الإدارة عامة والإدارة التربوية خاصة، فهي تساعد على إيجاد إدارة نموذجية يكون العنصر البشري فيها هو الأقدر على تحقيق الجودة في العمل التربوي. ويبقى المطلب الأساسي لكل مجتمع هو إعداد القادة الإداريين وخاصة في المجال التربوي، لأن الإدارة بالقيم ليست عملية سهلة أو بسيطة، وإنما هي عملية متشابكة في عناصرها متداخلة في مكوناتها، ويعتمد نجاح تحقيقها على أمرين أساسيين هما: إيمان واضعي السياسة التربوية والمربين بهذه القيم من جهة، ومدى توافق هذه القيم مع القيم التي يؤمن بها المجتمع من جهة أخرى، ولأجل ذلك لابد من تقويم المدراء على أسس حسن القيادة وفق المنظومة القيمية، فالمدير الذي لايمتلك المهارات المساعدة على تعزيز القيم لدى من حوله سيواجه مشكلات عديدة في مؤسسته تؤدي إلى الاضطراب في العمل ومقاومة العاملين معه وضعف الانتماء للمؤسسة التي يعملون بها.

وبدهي أن نظام المؤسسات التربوية التي تضع في أولى اهتماماتها تحقيق التحصيل الجيد للمتعلمين من دون الاهتمام بالقيم والاتجاهات الصحيحة تجعلهم يعانون من مشكلات كثيرة لها آثارها السلبية على المجتمع برمته.

والأجيال القادمة وهي تواجه تحديات متعددة الأنواع والمستويات ليس لها إلا أن تتمسك بالقيم والفضائل حصنها الوحيد، وتلك مسؤوليتنا تجاههم نحن معشر المديرين والمربين.

مراجع البحث

- الزدجالي، أمينة (١٩٩٩م) القيم المؤثرة في السلوك الإداري لمدير المدرسة الثانوية في سلطنة عُمان، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمّان.
- موسى، سلمان (٢٠٠١م) علاقة القيم الاجتماعية والتربوية في ممارسة التعليم، ومدى التزام المعلمين بها، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمّان.
- Catherine, Marshal.(1992) School Administrators Values, Educational Administration Quartly,Vol,28,No3,August.

الأمن الفكري والبنية الاجتماعية.. المفهوم والدوافع

د. أحمد غنام *

تطور مفهوم الأمن بصورة ملحوظة في السنوات الأخيرة، واندمج مداه ليشمل مفاهيم وآفاقاً جديدة لم تكن مجالاً في الماضي للدراسات الأمنية، بل استحدثت مسميات جديدة دالة على شمول وترابط العملية الأمنية في الجماعة الإنسانية، كالأمن الوطني، والأمن السياسي، والأمن الفكري، والأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي، والأمن الغذائي، والأمن البيئي.. وغير ذلك. ولقد كان الأمن ومازال الهاجس الكبير الذي يبحث الإنسان عن سبل تحقيقه وتتنافس الدول على توفيره لشعوبها، وبتعدد مصادر تهديد هذا الأمن تعددت تخصصات الأمن وفروعه، وأصبح الأمن علماً منفرداً بذاته تخصص له الميزانيات والبحوث والقوى البشرية والمادية والمعنوية، ومن ضمن هذه التهديدات التي تحاصر المجتمع كان هناك تهديد فكر المجتمع، ويكون ذلك بتهديد ثقافة المجتمع وسلوكياته وأعرافه، وذلك بتسليط أفكار أو معتقدات دخيلة على هذه المجتمعات بغية تدميره وانحلاله فكرياً وسلوكياً، ولذلك برزت أهمية حماية الأمن الفكري للمجتمع، وذلك بتحصينه من أي أفكار أو سلوكيات هدامة أو مضللة، ووضع هذا الفكر وما يمثله من سلوك نفسي وظاهري في دائرة الأمان.

ومما لا شك فيه أن مفهوم الأمن بشكل عام يلعب دوراً مهماً في حياة الشعوب والدول، فهو يمثل الحماية والنظام وهيبة الدولة في الداخل والخارج، ويوحي بالحياة

* أديب وناقد.

الرغيدة وبالتنمية والتطور. والأمن في مفهومه الواسع ومن منظور الدولة هو (أي تصرفات يسعى إليها المجتمع للتعرف على مصادر التهديد ومواجهتها لتوفير الحماية للتطور والتنمية في المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية).

ولما كان الأمن الوطني بمفهومه الواسع هو توفير الحماية للتطور والتنمية بكل أنواعها، فإن الأمن يتخصص في توفير الحماية لمجال من مجالات التنمية، وبحسب ذلك فإن الأمن الفكري يوفر الحماية للفكر بمواجهة مصادر التهديد المحيطة بالفكر. وبحسب ما تقدم، فإننا يمكن أن نعرّف الأمن الفكري بأنه (إجراءات أو تصرفات سابقة أو لاحقة يسعى إليها المجتمع للتعرف على مصادر تهديد الفكر المختلفة للإعداد لها ومواجهتها وتوفير الحماية لكل ما يتعلق به الفكر من سلوك وأفكار وتوجيهه الوجهة الصحيحة والآمنة).

وتتحقق هذه الحماية بالتعرف على مصادر تهديد الفكر ومواجهتها والقضاء عليها بتوفير حماية مسبقة ضد هذه المصادر والتهديدات. وتتنوع هذه التهديدات بتنوع مصدرها، فمنها الغزو الثقافي أو الغزو الفكري والمتمثل في العديد من الأشياء من وسائل البث المباشر كالفضائيات، وما تبثه من مواد إعلامية من أفلام وبرامج تهدف إلى السيطرة على خاصية من خصائص المجتمع وزعزعتها وإضعافها. ومن مصادر تهديد الأمن الفكري، الأفكار المتشددة المنحرفة التي تنتهجها فئة ضالة تهدف إلى السيطرة على عقول قليلي الحيلة ممن لم يتحصنوا بالأفكار والمعلومات الصحيحة لنبذ أفكارهم ومعتقداتهم. ومن الملاحظ أيضاً أن هذه التهديدات الفكرية المنحرفة لا تستهدف سمة مجتمعية فحسب، بل تستهدف فئة عمرية بحد ذاتها وهم الشباب وصغار السن.

ويرتبط الأمن الفكري بالأمن الاجتماعي ارتباطاً وثيقاً، ففي كل حضارة وكل تنظيم اجتماعي لابد أن تظهر مجموعة من التوترات الداخلية والانحرافات السلوكية لأسباب متعددة منها تعداد المعايير والقيم الضابطة للسلوك، وفشل النظام الاجتماعي في السيطرة على تلك الانحرافات والتعامل معها وإيجاد السبل الكفيلة بحفظ التوازن من خلال تفعيل آليات الضبط الاجتماعي يدلل على عجز النسق الاجتماعي عن أداء

وظائفه وتحقيق متطلباته الوظيفية التي تربطه بالأنساق الاجتماعية الأخرى فتسود حالة من التفكك الاجتماعي في النظام كله، كما أن انفجار التوترات الداخلية يدل على وجود خلل في النظام الاجتماعي وفشل في عمليات الضبط الاجتماعي وعدم فعاليتها في تدعيم عناصر البناء الاجتماعي وربطها، وعدم كفاءة موجهاته الأساسية في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع ومؤسساته التنظيمية الأمر الذي يسبب اختلالاً في تحديد المراكز والأدوار الاجتماعية للأفراد وأدوارها المترابطة، على أن أخطر المشكلات التي تصاحب التفكك الاجتماعي هي ظهور مشكلة الخلل في الأمن الفكري، وظهور الخلل في الأمن الفكري يعني أن القيم الاجتماعية قد فقدت قدرتها على ضبط سلوك الأفراد والجماعات، وفشل النظام الاجتماعي في تحديد مراكز الأفراد وأدوارهم المتبادلة بشكل يؤدي إلى بلوغهم أهدافهم بصورة مرضية، وأهم الحلول في نظر علماء الاجتماع هي في تفعيل وسائل الضبط الاجتماعي للتعامل مع حالة الخلل في الأمن الفكري ويتمثل ذلك في اتجاهين:

- **أولهما**: يرى تحقيق ذلك من خلال توسيع نطاق النظام وتمتين قواعده، بحيث يكون صالحاً لمواجهة أي انحراف مهما صغر في المجتمع رعاية للنظام.

- **والاتجاه الثاني**: يرى أن الجماعة كلما كانت محببة للفرد ازدادت فاعلية وسائل الضبط الاجتماعي في رد الفرد إلى طريق الجماعة، ولعل الجمع بين الاتجاهين ممكن.

فالجماعة من وجهة نظر علم الاجتماع هي (الوحدة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد وتؤثر في سلوكياته وأخلاقيته تأثيراً كبيراً)، والأمن الفكري مهمة داخلية في المقام الأول، وأي عوامل أو قوى خارجية تعمل على تقويض الأمن الفكري الداخلي وتصعيده لا تتعدى كونها عوامل ثانوية أو مساعدة تعمل على استثارة عوامل عدم الاستقرار الداخلي وصولاً إلى عرقلة أمنه الفكري المنضبط مع مبادئه وقيمه التي يؤمن بها، ولبناء مجتمع آمن فكرياً مطمئن لابد من أن تقوم مؤسسات المجتمع المدني بالدور المناط بها المتمثل في تفعيل مؤسسات الضبط الاجتماعي، وقد عرف عالما الاجتماع «راوسك» و«راين» الضبط الاجتماعي بأنه: (جميع العمليات التي بوساطتها يستطيع

المجتمع والمجموعات المكونة له كافة التأثير في سلوك الأفراد الذين هم أعضاء فيه بحيث يكون ذلك السلوك متطابقاً مع قواعد تلك المجموعات)، كما عرف «لندز» الضبط الاجتماعي بأنه: (يشير إلى العمليات المخططة أو غير المخططة والتي بوساطتها يستطيع المجتمع أن يجعل الناس يخضعون للقواعد الجماعية)، أما «نيرنر» فقد أكد على أن الضبط هو: (ذلك النشاط المعاكس لتلك العمليات التي تؤدي إلى الانحراف ومخالفة القواعد الاجتماعية والتي تدعم النظام القائم وتعيد المنحرفين إلى السلوك المنسجم مع القواعد الموضوعة أو تعزلهم أو تقلل من حالات التمرد ضد المجتمع وتخفف من حالات الصراع الاجتماعي).

والنظرة التقليدية إلى مؤسسات الضبط الاجتماعي في المجتمع المدني ذات شقين الأولى ما يسمى «الاتجاه السلبي»، وترى أن الضبط الاجتماعي عبارة عن (وسائل وأساليب الخوف والضبط والإكراه مسلطة على الفرد من الخارج أي من قوى المجتمع وعلى الفرد أن يطيعها خوفاً منها)، والثانية ما يمثله «الاتجاه الإيجابي» فهو ينظر إلى الضبط الاجتماعي على أنه (ظاهرة اجتماعية مكونة من قواعد اجتماعية تنمو تدريجياً في البيئة الاجتماعية الحضارية وعلى وفق الحاجات الاجتماعية)، ومن خلال «التفاعل الاجتماعي» تتبلور وتصبح قواعد ملزمة يرتضيها الجميع ويلتزمون بها، وإن قسماً كبيراً من هذه القواعد تصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيات الأفراد نتيجة للتنشئة الأسرية والاجتماعية فيطبقونها لا شعورياً ويرغبون بتطبيقها رغبة شديدة.

وقد أكدت النظم الاجتماعية على أهمية الأسرة وموقعها في المجتمع بوصفها الخلية الأساسية في بناء المجتمع، فالأسر هي الوحدات الاجتماعية التي يتم فيها تجمع أفراد المجتمع على شكل جماعات أولية، وكل جماعة منها هي جماعة اجتماعية اقتصادية تتميز بالتعاون والعطف وتوفر السكن والاستقرار والحماية، كما أن الأسرة هي «صلة الارتباط» ما بين الفرد والمجتمع، فهي التي تؤسس رابطة العضوية ما بين أبنائها ومجتمعهم، والأسرة هي المجتمع ذاته ولكن بشكل مصغر، حيث إنها تعكس عاداته وتقاليده وقيمه، وهي تحول الفرد الذي هو في طفولته مجرد كائن مادي إلى شخص يكتسب الشخصية الاجتماعية، وذلك بعد

أن تعلمه أسس وأساليب السلوك، ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الخلل الذي يصيب كيان الأسرة، أو الذي يصيب العلاقة ما بين الأسرة والمجتمع له انعكاساته الخطيرة على الأمن الفكري، ولذلك فإن التنشئة الأسرية هي: (تلك العملية التي يكتسب الطفل عن طريقها السلوك والعادات والعقائد والمعايير والدوافع الاجتماعية التي تقيمها أسرته والفئة الثقافية التي تنتمي إليها). ولقد أكد «بوغاردس» على دور الأسرة في الضبط عند تحديده لخصائصها، فهي بالنسبة إليه (جماعة صغيرة تتكون من الأب والأم وواحد أو أكثر من الأبناء يتبادلون العاطفة ويشتركون في المسؤولية، وهي تقوم بتربية الأطفال لكي تقوم بتوجيههم وضبطهم ليصبحوا أشخاصاً يتصرفون بطريقة اجتماعية)، على أن أهم مهام الأسرة التي تنميها بالفرد ما يلي:

١- **العضوية**: يتعلم الفرد داخل الأسرة فكرة العضوية التي تعد أساساً لتقبل الضبط، حيث إن الفرد إذا تعلم فكرة العضوية في داخل الأسرة سهل عليه تقبل فكرة العضوية في المجتمع الأوسع بعد ذلك وما يترتب على هذه العضوية من التزامات تجاه ضوابط المجتمع.

٢- **التعاون**: كذلك فإن الفرد في داخل الأسرة يتعلم فكرة التعاون، حيث إنه يجد نفسه يعيش في أسرته يتعاون فيها الأب والأم والأبناء على توفير أسباب المعيشة وإدارة شؤون الأسرة والمحافظة على سلامتها وسعادتها.

٣- **رموز الضبط**: وهي العناصر الأساسية في تعلم الضبط والتي تقوم الأسرة بمهمة تعليمها للطفل، كالإشارات التي تعبر عن وجوب الامتناع عن عمل من الأعمال أو نوع من التصرف، والإشارات التي تدل على التهديد بإنزال العقاب والكلمات والأصوات التي تحمل معنى المنع أو اللوم أو التشجيع.

٤- **أساليب الضبط**: إن الطفل يتعلم في الأسرة ولأول مرة أن هناك أسلوبين يواجه بهما بحسب مواقفه من القواعد وأساليب السلوك التي يفترض به تطبيقها وطاعتها، فهو إن خالفها فسوف يواجه بالعقوبة وإن أطاعها فسوف يواجه بالاستحسان والتشجيع والمكافأة، فهو يتعلم في الأسرة على هذا الأساس أسلوبي الضبط الإيجابي والضبط السلبي.

٥- **المعتقد والتقاليد:** الأسرة هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الفرد قواعد المعتقد الذي يؤمن به مجتمعه، دينياً كان أم سياسياً، وما يحتوي عليه هذا المعتقد من نواة وأوامر وقواعد خلقية وشروط للسلوك، وكما تعلم العائلة الطفل المعتقد فإنها تعلمه تقاليد المجتمع وأعرافه وما يتوقعه المجتمع من السلوك من قبل الفرد، وعلى هذا فالأسرة بوصفها وسيلة ضبط مسؤولة أمام المجتمع وبوصفها أيضاً وسيطاً ما بينه وبين أبنائه الذين يأتون إلى الحياة، فهي وسيط اجتماعي يقوم بنقل التراث الاجتماعي وضوابطه إلى الأبناء، ويقوم بإيجاد الصلة ما بين الأبناء والمجتمع، كما أنها مسؤولة في بعض الأحيان أمام المجتمع عن تحدي أبنائها للضوابط الاجتماعية، فالأسرة تقوم بنقل المعتقد والتقاليد إلى أبنائها، وفي بعض المجتمعات تتعرض الأسرة إلى العقوبة إذا ما لقنت أبناءها بعض التعاليم التي تخالف المعتقد السياسي للدولة من حيث خلق الصلة ما بين الفرد والمجتمع، فعلى عاتق الأسرة تقع مسؤولية تعريف الأبناء على مؤسسات المجتمع وضمان العضوية لهم في هذه المؤسسات كالمدرسة والمؤسسة الدينية، كذلك تعد الأسرة مقصرة بحق المجتمع إذا ارتكب أبناؤها بعض المخالفات كالاعتداء أو تخريب المؤسسات العامة، كذلك تعد الأسرة مسؤولة أدبياً عن التستر على أبنائها في حالة ارتكابهم الجرائم، وفي بعض المجتمعات تعمد الأسرة إلى إخبار السلطات عن مخالفات أبنائها، ولقد جرى العرف في كثير من المجتمعات على أن يوجه اللوم إلى الأسرة في حالة اعتداء أبنائها على الآخرين، وبناء على هذا فإننا نستطيع أن ندرك طبيعة الآثار المترتبة على الخلل الذي يصيب بناء الأسرة ووظائفها في مجال الضبط الاجتماعي وانعكاس ذلك على الأمن الفكري.

إذ إن للأسرة وظائف اعتيادية متخصصة، ولكي تكون حياة الأسرة حياة طبيعية وتكون انعكاساتها سليمة على حياة أفرادها وأبنائها يجب أن تنجز وظائفها بشكل ناجح، ولكن فشلها في أداء مهماتها من شأنه أن يؤدي إلى انعكاسات سلبية على سلوك أبنائها وعلاقتهم بالمجتمع مما له آثاره الخطيرة على الأمن الفكري، ولكي تكون الأسرة ناجحة بالقيام بدورها في تحقيق الأمن الفكري يجب عليها أن تؤدي المهمات الآتية:

١- أن تقوم بمهماتها التربوية بشكل كامل وسليم وأن تعتبر نفسها مسؤولة كاملة عن تربية أبنائها على الرغم من وجود المدارس وتشعر أن التربية هي قضية متكاملة، وهي ليست قضية إطعام الأبناء فقط وإنما يجب تعليمهم قواعد المجتمع وقيمه، وأن يتعلموا السلوك والخلق القويم المستمد من الدين، كما يجب عليها أن تعلمهم أن عليهم واجبات مثلما أن لهم حقوقاً في المجتمع.

٢- أن تعلم الأسرة أنه يجب أن يكون هناك تنسيق وتكامل بينها وبين المدرسة في مجال العملية التربوية من خلال التواصل فيما بينهما لمتابعة أبنائها في الدراسة وما يعترضهم من مشاكل دراسية أو نفسية.

٣- أن على الأسرة أن تفهم أن المجتمع يمر بمرحلة التحول التي هي آخذة طريقها منذ زمن، وهذه المرحلة تنطوي على نقله من المجتمع التقليدي إلى المجتمع شبه الحديث، وعلى هذا فالدولة تستخدم نوعين من المعايير، وهي المعايير التقليدية والمعايير الحديثة، ولابد أن يكون هناك صراع بين القيم وصراع ما بين جيلين، وهنا تكمن الخطورة فهناك من الآباء من يقف موقف المتزمت وبعضهم يرى أن يترك الأبناء يندفعون وراء كل ما هو جديد بصفة أن هذا هو تيار الحياة.

٤- أن تقف الأسرة موقفاً مع السلطة والنظام بما يخدم المصلحة العامة، وذلك لتنفيذ التعليمات الصادرة إليها والتعليمات العامة وتعليم أبنائها ضرورة الالتزام بالتعليمات والأنظمة الصادرة من الدولة.

٥- أن تفهم الأسرة أن من أعظم واجباتها هو تحصين أبنائها فكرياً وخلقياً ضد الانحراف الخلقي والقيم والاتجاه نحو الجريمة أو مخالفة النظام.

٦- أن تقوم الأسرة بتحقيق الحصانة الوطنية لأبنائها، وذلك بأن تغرس فيهم حب الوطن والحرص والأمانة فيما يتعلق بالقيام بالواجب وممتلكات الدولة وأسرارها وعدم الانخداع بالإشاعات والدعايات التي يبثها الأعداء في الداخل أو الدول المعادية والطامعة في الخارج وعدم التهاون مع أية فئة خطرة أو مخربة في الداخل.

وفي الختام نقول، إن عدم الاكتراث بالأمن الفكري من شأنه أن يولد بيئة صالحة لنشوء التيارات الفاسدة، وأن يحدث الخلل في الواقع الأمثل المؤمل، وتأتي انعكاساته الخطيرة على الأجيال اليافعة

من شبابنا الصاعد الذين هم بلاشك محل الاهتمام من قبل القائمين على المؤسسات الثقافية في بلادنا، وذلك لتوجيه طاقاتهم وإبداعاتهم نحو الأمثل من الأفكار والرؤى، ولعل هذه المهمة تقع على عاتق المؤسسات الفكرية والثقافية في بلادنا، فهي المسؤولة عن توطيد دعائم الأمن الفكري ورعاية مفاهيمه والسير بمحتواه نحو الواقع المأمول.

إن مهمة تحصين فكر الشباب والذود عن حياضه تعد من المهام التي لا يمكن أن تكون حصراً على جهة دون جهة بل هي رسالة سامية لكل فرد تحمل على عاتقه مسؤولية الإشراف على الشباب وتأمين فكرهم، فالمؤسسات الثقافية لا تنكر جهودها بالطبع في هذا المجال، ولها مجال فسيح في حماية فكر الشباب وصقله بالمحصنات الفكرية الفاعلة، إلا أن هذه الجهود بحاجة إلى دعم وصقل ومتابعة مستمرة وتكثيف فعالياتها بالشكل المطلوب الذي يناسب حجم الروافد الجانحة التي تحاك للإيقاع بشبابنا الناهض حتى تنأى به عن مهمته الأساسية في بناء مجتمع متماسك متعاضد لا تقتحمه النوازل الفكرية الفاسدة التي من شأنها أن تقوض هذا البنيان المتماسك.

شبكات التواصل الاجتماعي ومخاطرها على اللغة العربية

د. تركي صقر ✪

زاد التهافت على مواقع شبكات التواصل الاجتماعي المنتشرة والمتزايدة حول العالم والمتجاوزة لحواجز الزمان والمكان وبالتوازي بدأت تنتشر لغة خاصة بمستخدمي هذه الشبكات لاهي عربية نقية سليمة ولاهي عامية مقبولة وإنما هي خليط عجيب من عربية مكسرة وعامية بلهجات غارقة بالمحلية أو لغة هجينة تدخل عبارات باللغة الأجنبية وعلى الأخص اللغة الإنكليزية والفرنسية وأحيانا تستخدم الحروف اللاتينية بدلاً عن الحروف العربية حسب الأصوات..

وبات من يطلق على هذه اللغة الجديدة تسميات تأخذ اسم المواقع الأجنبية ومن أشهر الشبكات الاجتماعية الموجودة حالياً «فيس بوك، ماي سبيس، تويتر، لايف بوون، هاي فايف، أوركت، وجوجل بلس» واللغة الأكثر شهرة اللغة الفيسبوكية نسبة إلى موقع الفيسبوك أو اللغة التوترية نسبة إلى موقع التيوتر أو اليوتيبية نسبة إلى موقع اليوتيوب وهناك من أطلق عليها «الفرانكو أرب» وبعضهم لقبها بـ«العربيزي» أي العربية السهلة..

تتميز هذه (اللغة) بوجود مصطلحات خاصة لا يعرفها إلا مستخدمو الشبكات الاجتماعية الدائمون، ويستخدمها الشباب العربي أثناء محادثاتهم عبر الإنترنت، فتحولت اللغة العربية إلى مزيج من لفظ عربي يكتب بأحرف لاتينية ورموز وأرقام،

✪ كاتب إعلامي وسفير سابق.

لتُشكل لغة جديدة بدأت تطالعنا يومياً أثناء التواصل عبر الشبكة العنكبوتية أو رسائل الجوال، فبات حرف الحاء مثلاً يكتب رقم «٧»، والعين «٣» فكلمة «حزين» تكتب «7zeen» وكلمة «سعيد» تكتب «s3ed»، واللغة العربية تكتب «All3'a al3rabih».. إلخ.

واختلفت الآراء حول تأثير هذه اللغة الجديدة على اللغة العربية وهناك من برر وجودها وحتى ضرورتها بسبب بروز وسائل الاتصال الحديثة التي لايمكن الاستغناء عنها لأن تأثير الإنترنت على مفردات اللغة المتداولة بين الشباب على مواقع الإنترنت والمدونات وغرف المحادثات ومواقع التواصل الاجتماعي موجود وبشكل واضح ويعود ذلك لطبيعة الشبكة العنكبوتية كوسيلة اتصال سريعة الإيقاع وقد واكبتها محاولات لفرض عدد من المفردات السريعة والمختصرة للتعامل بين الشباب، أو أنَّ الضرورة فرضت نفسها كعدم وجود لوحة مفاتيح تمكن المستخدم من الكتابة باللغة العربية لدى البعض وأخص بالذكر الشباب العربي في بلاد الاغتراب.

بينما نظر الكثيرون نظرة سلبية إلى استخدام لغة أخرى بعيدة بهذا القدر أو ذاك عن اللغة الأم ومكنت هذه اللغة من ظهور «لغة موازية» يستخدمها الشباب العربي في محادثاتهم عبر الإنترنت، وهي تهدد مصير اللغة العربية في الحياة اليومية لهؤلاء الشباب وتلقي بظلال سلبية على ثقافة وسلوك الشباب العربي بشكل عام. إنها ظاهرة شاذة وهي انهزامية محضة لاتعبر سوى عن نفسية مهزوزة غير واثقة بنفسها وتحاول التعلق بظواهر هشة ظناً ممن يستخدمها بأن المتحضر هو من يتحدث العامية مدرجاً فيها كلمات إنجليزية، أو المتحضر هو من يكتب العربية بحروف لاتينية..

وتطرح أسئلة عديدة حول أسباب انتشار هذه اللغة وتمكنها من جيل الشباب فهناك سبب عام لايخص اللغة العربية وحدها ألا وهو طغيان العولمة الإعلامية واجتياحها لثقافات ولغات الشعوب الأخرى.. وما يهمنا هنا النظر في الأسباب الذاتية المتعلقة باللغة العربية وقبل ذلك لابدَّ من العودة إلى الوراء قليلاً لنرى أن هذه الظاهرة المتمثلة بالكتابة

باللغة العامية أو البعيدة عن اللغة العربية السليمة ليست جديدة.. فالحملات الداعية إلى الكتابة بالعامية والخط اللاتيني بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر في وقت كانت تعاني الدولة العربية من ضعف وشتات، وكانت الدول الغربية تسعى لاقتسام تركتها ومحاربة اللغة العربية على وجه الخصوص دليل قوتها، لما للغة العربية من مميزات يدركها جيداً علماء اللغة بداية من صوتياتها الجميلة وبلاغتها وإيجازها وتفوقها على غيرها من اللغات، إضافة لعامل ظهر بصورة بارزة في العصر الحديث وهو القوة العلمية التي تمتلكها بعض الدول الأجنبية الغربية والشرقية، فأصبحت مصدرة للغتها عن طريق تقدمها العلمي، وهناك أيضاً عوامل داخلية من فعل أبناء اللغة العربية، كالتعليم، تعليم اللغة الأجنبية، والتعليم باللغات الأجنبية، سوق العمل، الإعلام،... وما نتج عن هذه العوامل مجتمعة من صراع لغوي، وضعف الاعتزاز، إضافة لهجرة العقول ما أدى لتلاشي الهوية..

نعود إلى الأسباب التي أدت إلى الانتشار الواسع لهذه الظاهرة وخاصة بين الشباب العربي فنرى أنّ واقع شبابنا اليوم وابتعاده عن المشاركة في قضايا المجتمع بشكلٍ فاعل أصبح لايُبشر بالخير على الإطلاق خاصة في مجتمعنا العربي الذي يبتعد فيه الشباب عن الأنشطة السياسية والاجتماعية نتيجة التأثر بالإعلام الخارجي ويعود سبب لجوء الشباب إلى استخدام لغة خاصة بهم أثناء استخدامهم للإنترنت إلى وجود شعور بالاغتراب لديهم يدفعهم للتمرد على النظام الاجتماعي وتكوين عالمهم الخاص بعيداً عن قيود الآباء..

وينظر إحدى التربويات: «إنهم يؤلفون هذه اللغة كقناع في مواجهة الآخرين وهناك سبب جوهري يتمثل في أن المدارس تلعب دوراً كبيراً في تعليم اللغة، ويركز حالياً بشكل كبير على تعليم اللغات الأجنبية والتي أحدثت صراعاً واضحاً مع اللغة العربية، نتج عنه عزوف أفراد الجيل عن لغتنا، بل اتخاذ مواقف سلبية تجاهها، تتمثّل في تضخيم حاجز الصعوبة في تعلمها، ناهيك عن ضعف الطالب بالعربية نتيجة تدريس بعض المدارس المنهاج كاملاً باللغات الأجنبية»..

والسؤال الأهم ماهي الأخطار التي تشكلها هذه الظاهرة على لغتنا العربية؟؟

لايجوز أن يدفعنا هذا التهافت على مواقع شبكات التواصل الاجتماعي إلى التشاؤم حول مستقبل اللغة العربية أو ذوبانها في خضم ولادة لغة بديلة مشوهة للغة العربية كما لايجوز التقليل من تأثير لغة شبكات التواصل الاجتماعي وخاصة على بنية اللغة وجمالياتها فكل ضربة على لوحة المفاتيح لها ثمنها على الشبكة العالمية، ويؤدي هذا إلى اختزال النصوص إلى كلمات مفتاحية، الأمر الذي سيؤثر -في المدى البعيد- على جماليات اللغة العربية في عمومياتها، وأيضاً في طريقة شكلها أو رسمها. وربما بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من التعامل اللغوي بهذه الطريقة، نجد لغة عربية أخرى غير التي نتعامل بها اليوم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاللغة العربية تعتبر دخيلة على لغات البرمجة، فقد ظهرت بعض المشكلات في الحارف العربية على مستوى الصرف والنحو، الأمر الذي يؤدي إلى انغلاق نصي يؤدي بدوره إلى انعزالية وثائقنا الإلكترونية، وسرعة اندثارها، وضعف فاعلية مواقعنا العربية.

لقد قلل بعضهم من تأثير اللغة المستخدمة على شبكات التواصل الاجتماعي بالنسبة للغة العربية ووصفوها بالعربية المشوهة التي تستعمل في المراسلات وخاصة في مراسلات سطحية لا علاقة لها بالثقافة، وإنما عبارة عن تبادل آراء وكلام من باب المزاح في أغلب الأحيان، وقال عنها: «إنها لغة عجيبة على اعتبار أنها تستعمل حروفاً ليست بالعربية، ونظراً لأن اللغات الأجنبية تخلو من بعض الأصوات الموجودة في العربية، ولذلك وقعوا في حيرة كيف يعبرون عن الحاء، والقاف، والضاد والعين مثلاً وهي أسلوب الناس البسطاء الذين لا يريدون أن يشعروا بانتمائهم للغة ذات تاريخ وأمجاد وحقائق في العلوم والأدب والشعر، هذه اللغة لايجوز أن تمسخ وأن ننقلها إلى حروف لا تمت لها بصلة».

وقال أيضاً: «إنَّ هذه اللغات المصطنعة لا يمكن أن تؤثر على اللغة العربية أبداً لأنَّها لا تنقل فكراً أو ثقافة ولا تنقل تاريخاً ولا تنقل أي شيء، بل هي عبارة عن كلام بين أفراد يجمعون على الاصطلاح نفسه لكن

هذا لا يجعل منها لغة تنازع اللغة العربية في مواقعها وقيمتها وعمقها، وإمكانياتها على التعبير فما يمكن التعبير عنه باللغة العربية بكلمات قليلة بما يسمى المجاز مثلاً حين نستعمل كلمة بمعنيين هذا غير موجود في اللغات الأخرى بهذه الدقة ولا بتلك الصلة مع التاريخ القديم للأدب العربي واللغة العربية وهذه الظواهر لا تدخل في سياق اللغات».

ولكن مهما يكن لابدَّ من الوقاية من هذه الظواهر التي تحمل آثاراً سلبية كونها جزءاً من الغزو الفكري والثقافي، وينبغي على المجتمع متمثلاً في الأسرة والمؤسسات التعليمية مراقبة أجيال المستقبل، فالإنترنت أصبح كالبحر المتلاطم الأمواج، ومن واجب المجتمع أن يوفر للشباب أطواق النجاة لكل ما هو على وشك الغرق، فلقد دخل الإنترنت إلى المجتمع، وأصبح واقعاً مادياً ملموساً لايمكن إغفاله، ومن واجبنا كأفراد ومجموعات مثقفة أن نستغل كل موارده المفيدة لتقدمنا ورقينا.. وأن نحاول تسخير هذا المفيد للوقوف به كدرع يقي مجتمعنا من أمواج الظلام الكاسح ويجب تكثيف الجهود للنهوض بالشباب من الضياع وإفلاس القيم الأخلاقية وتدمير لغتنا العربية عبثاً، بتحويل هذه الطاقات والإمكانات إلى طاقات إيجابية تبني المجتمع ..وبالنسبة للغة العربية بشكل محدد فقد أثبتت أنها لغة الفن والإبداع والفكر على مدى التاريخ وأنها كانت السباقة في مجالات الطب والخوارزميات والفلك والعلوم المختلفة قبل أن تخرج أوروبة من عصور الظلام ولابد أنها قادرة على هضم لغة العصر وعصية على الانقراض طالما توافرت عزائم لدى أبنائها الغيورين عليها..

الخطأ الطبي..
ضعف مهني أم خلل إداري

د.حسين فاضل ٭

كـثرت في الآونـة الأخـيرة الأخطـاء الطبيـة، وصارت هاجسـاً مزعجاً ومخيفاً للمرضـى وذويهم، حيث إن الخطأ يمكن أن يكـون مقبولاً في بعض الأمور، ويخفف عنه بالاعتـذار، ولكن حينما يتعلق الخطأ بحياة الإنسـان، ويحدد مصيره في الحياة، فالأمر هنا يختلف كثيراً، والعديد من الأخطاء التي يتداولها الناس هنا وهناك، لم تكن أخطاء بسيطة، بل كانت مميتـة، لأن الأخطاء الخفيفة لا يعرف عنها الناس شيئاً، وتنتهي في مكانها الذي حدثت فيه.. والسؤال هنا: هل هـي نتاج لضعـف الـكادر الطبي من الناحية المهنية؟..

أم هـي ضعـف في التجهيـزات التـي يتمتع بهـا المرفق الصحي الذي تحدث فيه الأخطـاء؟.. أو هو خلل إداري يتعلق بتهاون إدارة تلك الجهة مع الأخطاء لذلك لا يكترث لها الـكادر الطبي ولا يعيرهـا اهتماماً؟.. الظاهرة تكـررت، وراح ضحيتها أرواح من الصغار والكبـار، والخوف من تفاقمها ظل يكبر في نفوس الناس.

الخطأ والإهمال

ما الفرق بين الخطـأ الطبي والإهمال الطبي؟.. ومتى يجـب أن يعاقب الشخص المعالـج؟.. كانـت هذه القضيـة هي محور دراسـات أجريت مؤخـراً في النادي الطبي الدولي بجامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية تبين أن السبب الرئيسي في الخطأ الطبي هو الاعتقـاد بمبدأ خاطئ يتعارض مع الطبيعـة البشرية، وهذا المبـدأ هو أن

٭ كاتب وناقد.

الإنسان لا يخطئ، وتهدف هذه الدراسات إلى البحث عن أسباب حدوث الأخطاء وطرق معالجتها، وفي مقالنا هذا سنلقي الضوء على بعض نتائج هذه الدراسات.

يبدأ موضوعنا بحقيقة مهمة جداً وهي أنه على الرغم من أن العالم الغربي يعتبر أكثر الدول تخوفاً من الخطأ الطبي، وهذا التخوف ليس حرصاً على حياة المرضى ولكن بسبب القضايا الطبية التي تمتلأ بها المحاكم ضد المستشفيات، ودفع تعويضات قد تصل إلى مئات ملايين الدولارات في بعض الأحيان، إلا أن هناك أكثر من ٢٠٠ ألف شخص يموتون سنوياً نتيجة للأخطاء الطبية، وهذه حالات متفرقة تحدث في أكثر من خمسة آلاف مركز طبي، ويمكن أن نتوقع أن هذا الرقم يحدث بشكل مضاعف في بعض دول العالم وخصوصاً النامية التي لا تتمتع بالتقدم العلمي والإداري، ولكن الإحصاءات غير متوافرة وسبب الوفيات غير معروف في الغالب وهناك دراسات توثق هذه المعلومات.

وبناء على ذلك فإن التنظيم الطبي في معظم المستشفيات يعتمد على دقة المعالج وقدرته على تفادي أي خطأ بدلاً من أن يفترض أن الخطأ سيحدث لا محالة، وعلى التنظيم أو النظام الطبي معالجته ومنع وقوعه، وبذلك فإن الدراسات تشير إلى أن أي خطأ طبي هو في معظم الأحيان خطأ في التنظيم الطبي المتبع في المستشفى لا في الشخص المعالج، حيث أن الإنسان بطبيعته يخطئ ويسهو، وقد ساعدت هذه الدراسات في إعادة تصميم كثير من الأنظمة الطبية في كبريات المشافي في العالم، ومثال ذلك الخطأ الذي ارتكبته ممرضة في قسم العناية المركزة في المستشفى الوطني في ولاية بوسطن الأمريكية، حيث أخطأت تحت ظروف العمل القاسية والإنهاك فقامت بإيصال إبرة محلول الغذاء بالأنبوب الموصول بالشريان بدلاً من أن توصله بالأنبوب المتصل بالجهاز الهضمي مما أدى إلى وفاة المريض، وما كان ليحدث هذا الخطأ لو أن محلول الغذاء المفترض أن يوصل بالجهاز الهضمي لا يمكن إيصاله بأي حال في أي من الأنابيب الأخرى، وبذلك فقد تمَّ تغيير جميع الأنابيب والتوصيلات الخاصة بها، حيث لا تستطيع الممرضة أن تخطئ حتى لو أرادت ذلك، وهذا ما يسمى بنظام تفادي الخطأ، كما قامت الجمعية الأمريكية للتخدير

بوضع قوانين ولوائح موجهة لجميع أطباء التخدير، مما أدى إلى خفض نسبة الوفيات نتيجة التخدير من واحد في العشرين ألف إلى واحد في المئتي ألف.

وبذلك يمكن القول: إن الطريقة الصحيحة هي أن يفترض التنظيم الطبي أن الخطأ سيحدث لا محالة على يد أفضل الأطباء لأنهم بشر وكل ابن آدم خطّاء، وعلى التنظيم أو النظام الطبي منع وقوع الخطأ ومعالجته في مراحله الأولى في حالة حدوثه، وبذلك فإن الدراسات تشير إلى أن أي خطأ طبي هو في معظم الأحيان خطأ في التنظيم الطبي المتبع في المستشفى، وهذا في حد ذاته لا يخفف عن الطبيب عبء مسؤولياته تجاه الأرواح التي أؤتمن عليها، ولا تسقط عنه العقاب في حالات التعمد والإهمال أو المخالفة الواضحة للأنظمة والقوانين أو غيرها من الأسباب التي يستطيع الحكم عليها أولو العلم في هذا المجال، وإنما الهدف هو التركيز على التنظيم الطبي الذي أدى إلى حدوث الخطأ لكي تتم الاستفادة من الأخطاء وتفاديها مستقبلاً، وبذلك ينظر للخطأ كنافذة للدخول في تفاصيل النظام الطبي ودراسته بتعمق، وقد ساعد هذا المفهوم الصحيح لمفهوم الخطأ الطبي في إعادة تصميم كثير من الأنظمة الطبية في المشافي لتفادي الأخطاء.

ويمكن تلخيص ما ذكرناه في أن المفهوم الخاطئ للخطأ الطبي الذي لا يتجاوز محاولة معاقبة الشخص المعالج من دون دراسة جذور المشكلة وأسباب حدوثها لا يؤدي في النهاية إلى العوائد المرجوة من تفادي خطأ مشابه في المستقبل، بل أثبتت الدراسات أن تركيز الجهود على معاقبة الشخص المعالج يبعث في نفوس العاملين في النظام الطبي الخوف والرهبة من الأخطاء والعقاب، مما يؤدي إلى إخفاء الأخطاء وعدم الاعتراف بها بدلاً من محاولة معالجتها ودراسة أسباب حدوثها، وبالتالي تستمر الأخطاء في النظام وتتفاقم مع الأيام ويخسر المجتمع قاطبة فرصة الاستفادة من أخطائه، وقد بينت الدراسات أيضاً أن الأخطاء التي انتهت إلى المحاكم القانونية واستمرت لسنوات عديدة وكلفت الملايين من الدولارات لم تؤدِّ في النهاية إلى الغاية المرجوة من تعويض المريض، إضافة إلى تصحيح التنظيم الطبي حتى لا يتضرر مريض آخر مستقبلاً من خطأ مشابه.

وقد قامت دراسات عدّة كذلك لبحث الأسباب التي تؤدي بالمريض إلى رفع دعوى قضائية على الطبيب، وماذا يريد الطبيب.. وماذا يريد المريض من الطبيب أو المستشفى:

أسباب رفع الدعاوى القضائية:

ففي دراسة حديثة قام الباحثون بدراسة الأسباب التي تؤدي بالمريض إلى رفع دعوى قضائية ضد الطبيب، ودراسة الفرق بين الأشخاص الذين رفعوا دعوى ضد الطبيب والذين لم يرفعوا دعوى، ودراسة اختلاف شخصيات المرضى والأطباء واختلاف نوعية الأطباء، وقد وجدت الدراسات أن هناك علاقة عكسية بين احتمال رفع دعوى ضد الطبيب ومدى توطيد العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، ووجد أن أهم عامل في تحديد احتمال رفع الدعوى هو كيفية رد فعل وتصرف الطبيب المعالج للمريض بعد حدوث الإصابة والخطأ الطبي المباشر، ووجد كذلك أن رد الفعل الأول التلقائي والدفاعي من قبل المستشفى والطبيب يؤدي في أغلب الأحيان بالمريض لرفع دعوى قضائية ضد الطبيب والمستشفى، كان يمكن تفاديها لو تغير رد فعل الطبيب المعالج والمستشفى.

وقد أجابت دراسة أخرى عن السؤال: ماذا يريد أهل المريض من الطبيب حين يرفعون عليه دعوى قضائية؟.. حيث تمت دراسة حالات آباء الأطفال الذين ولدوا بإصابات عصبية نتيجة أخطاء أثناء الولادة، ودراسة الفرق بين الذين رفعوا دعوى ضد الطبيب وبين الذين لم يرفعوا دعوى، فكانت أسباب الآباء ما يلي:

- ٢٤٪ قالوا: إن الطبيب لم يكن صادقاً وأنه يكذب.
- ٢٤٪ قالوا: إنهم بحاجة لدعم مادي لتأمين مستقبل أطفالهم المصابين.
- ٢٠٪ قالوا: إنهم تصرفوا بموجب رد فعل تلقائي عندما علموا بمصير ومستقبل أطفالهم.
- ٢٠٪ قالوا: إنهم لم يجدوا من يخبرهم بحقيقة ما حدث وأنهم يريدون أن يعرفوا الحقيقة.
- ١٩٪ قالوا: إنهم تصرفوا نتيجة الغضب مما حدث ورغبة في الانتقام من الطبيب المعالج نتيجة خطئه وإصراره على أنه لم يخطئ أو أنهم يريدون أن يتأكدوا أن الخطأ لن يحدث مرة أخرى.

وفي معظم الأسباب لم يكن سبب رفع الدعوى مادياً، ولكنه وسيلة لتحقيق أحد الأمور التالية:

١ - فتح باب الحوار ودراسة سبب الخطأ.

٢ - تفسير وفهم ما حدث بكل صدق وأمانة واعتذار الطبيب والمستشفى عما حدث.

٣ - الرغبة الصادقة من قبل المستشفى والطبيب في تصحيح سبب حدوث الخطأ وأخذ خطوات إيجابية في هذا الطريق.

وجهة نظر المرضى:

- معظم الأطباء والمستشفيات ليس لديهم الرغبة في الاستماع إلى شكوى المريض.

- ليس هناك نظام واضح ومعلن في معظم المستشفيات ليسهل على المريض إبداء رأيه أو رفع شكواه إلى إدارة المستشفى للنظر فيها والتحقيق في حيثياتها.

- ردود فعل معظم المستشفيات عند شكوى المريض هي الدفاع ووضع اللوم على المريض، وليست هناك رغبة صادقة في دراسة شكوى المريض وتصحيح النظام المتبع إذا لزم الأمر.

- كثير من الأطباء يعيشون في أبراج عالية ويفترضون جهل المريض ويقصرون في تقديم شرح واف أو محاولة تبسيط المفاهيم والمصطلحات للمريض بحجة أن المريض جاهل.

- كثير من المستشفيات الخاصة أهدافها مادية بحتة وليست إنسانية.

- ليست هناك معلومات عن الأطباء والمستشفيات تساعد المريض على ترجيح طبيب على آخر أو مستشفى على آخر، وغالباً ما يحدث الترجيح على أسس غير علمية أو صحيحة ومعلومات غير موثقة.

- لماذا لا يكون هناك كتيبات طبيّة في كل مستشفى تحتوي على تقارير كاملة عن كل طبيب وشهادته العلمية وسنوات خبرته وغيرها من المعلومات التي تساعد المريض على اتخاذ قراره، مثل عدد العمليات التي أجراها ونوعيتها ومدى نجاحها.. إلخ.

- كثير من المستشفيات تنفق أموالاً طائلة في شراء المعدات والأجهزة الطبية الحديثة، ولكنها تقصر في جلب أطباء جيدين نظراً لارتفاع أجورهم.

وجهة نظر الطبيب والمستشفى المعالج:

- هناك شك عام في النظام الطبي،

والمريض ينظر من خلال نظارة الشك فيرى كثيراً من الأمور بمنظار خاطئ ويفسرها تفسيرات خاطئة.

- هناك مبالغة وتشويه من قبل المريض نتيجة الشك المستحكم في النظام الطبي.

- إن جهل الكثير من المرضى يجعلهم عرضة للفهم الخاطئ، فيخلطون بين مفهوم الخطأ الطبي الناتج عن الإهمال وبين المضاعفات المتوقعة لكثير من العمليات التي لابد أن تحدث بهذه النسبة في أفضل مستشفيات العالم وعلى أيدي أفضل الأطباء.

- الشك المستحكم في النظام الطبي يجعل المريض يتهم المستشفيات بالابتزاز والاستغلال، في حين أن المريض نفسه إذا ذهب للعلاج في مستشفيات أجنبية فإنه يدفع عشرات الأضعاف للعلاج ولا يبالي أو يستنكر ما يدفع.

- المرضى يطالبون برفع المستوى الطبي والعلاجي، ولكنهم في الوقت نفسه غير مستعدين لدفع ثمن ذلك.

وفي النهاية نستنتج مما تقدم حقيقة مهمة جداً وهي أن معظم أسباب رفع دعوى قضائية ضد الأطباء والمستشفيات عند حدوث الخطأ الطبي في أغلبها ليست مادية وإنما هدفها تصحيح الخطأ إن أمكن أو عدم تكرار هذا الخطأ، وعند محاولتنا إسقاط هذه المفاهيم على عالمنا العربي ومحاولة بحث وفهم الوضع الصحي الراهن، فإننا نجد أن هناك تفاوتاً كبيراً في فهم المشكلة وتحليل أسبابها بين المعالج والمريض.. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هو موقف أطبائنا والمراكز الطبية في عالمنا العربي تجاه شكوى المريض والأخطاء الطبية؟..

تنمية القدرات الإدارية.. المقومات والمعوقات

د. نزار عوني ✪

من المسلم به في عصرنا الحاضر أن الإدارة العامة تمثل جانباً رئيسياً في جميع خطط وبرامج التنمية، إذ لا يمكن لهذه الخطط والبرامج أن تحقق أهدافها المرجوة إلا إذا توافر لها جهاز إداري على مستوى رفيع من الكفاية والخبرة والدراية، كما أنها يجب أن تقوم على أسس ومبادئ إدارية وتنظيمية سليمة، وكذلك فإن نجاح هذه الخطط يعتمد على تزويد الهيئات والمؤسسات الحكومية والخاصة التي تقوم بوضعها أو الإشراف على تنفيذها ومتابعتها بالمديرين الأكفاء المدربين.



ومنذ زمن ليس بالبعيد كانت وظائف

✪ باحث وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان أسامة الهاشم

الدولة محدودة ونشاطها لا يكاد يتعدى تلك المرافق التقليدية الخاصة كالدفاع والأمن والقضاء والتعليم والصحة... وبالتالي كان عدد المرافق العامة التي تديرها الدولة محدوداً، كما كان عدد العاملين في خدمتها قليلاً، ولهذا كان تنظيم الجهاز الإداري في هذا النطاق الضيق يبدو قليل الأهمية، ولكن مفهوم الحكومة قد تغير في العصر الحديث، فقد ألقى التطور التقني والتقدم العلمي أهمية بالغة على عاتق الأجهزة الحكومية التي أصبح نشاطها يمتد إلى جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، ولقد تحولت كثير من الدول المتقدمة من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي، وتحولت العملية الإدارية من عملية مرتكزة على الإجراءات واللوائح وما يرتبط بها من معلومات وبيانات جامدة في كثير من الأحوال، إلى عملية ترتكز على معرفة ذات دعامة عقلانية راسخة تجعل القيادات الإدارية في حالة تعلم مستمر من أجل البقاء في عالم متشعب ومتداخل، وبالتالي أصبحت الحاجة إلى مواكبة التغير العالمي السريع حاجة أساسية وملحة.

ولاشك في أهمية الدور الذي تلعبه القيادات الإدارية المؤهلة والذي يرتبط به نجاح أو فشل الأجهزة الحكومية، ولذلك تسعى الأجهزة الحكومية إلى توفير القيادات الإدارية ذات التأهيل اللازم فكراً وممارسةً وسلوكاً، إلا أن عدم الأخذ بطريقة علمية في انتقاء القيادات الإدارية وعدم تفهمها لطبيعة التغيرات المجتمعية والعالمية أدى إلى عجز تلك القيادات عن القيام بأداء دورها الإداري المؤهل وبقائها متأثرة بالأطر التقليدية وقيامها بوضع العراقيل الإدارية لحماية ضعفها الإداري أو نقص كفاءتها، فالمعنى التقليدي للقيادة المبني على المهارات الشخصية، وانتهاز الفرص قد ذهب، فمن دون قيادة واعية وقادرة على العمل وراغبة فيه لا يمكن تحقيق الأهداف ولن نصل لتلك القيادات المؤهلة ما لم نتتبع المعوقات التي تواجه جهود التنمية.

مفهوم تنمية القدرات الإدارية

يقصد به رفع كفاءة القيادات القائمة بالعمل حالياً وإعداد صف ثان في إطار ما نتوقعه من تغيير وتطور في مجالات العمل الإداري وأعبائه لشغل مراكز أعلى في السلم

الوظيفي، وهي عملية منظمة ومستمرة تهدف إلى الاختيار السليم للقيادات الإدارية والتدريب المنظم لهم سواء على رأس العمل أو خارجه، والتثقيف المستمر والتقويم والتوجيه المستمرين، فبرامج القيادات الإدارية تعتبر إطاراً عاماً لتكوين وتنمية القدرات والمهارات الفكرية والإنسانية التي تهتم بإطار التفاعل الجماعي أكثر من اكتساب المهارات الفردية، كأهداف خطة طويلة المدى، في حين أن التدريب هدف لخطة قصيرة المدى، فالحصول على قيادات إدارية تتمتع بقدرات وكفاءات وفعالية عالية يتطلب أكثر من مجرد اكتساب أي مهارات متخصصة أو محددة، فكثير من القيادات الإدارية الفاشلة التحقوا ببرامج ودورات تدريبية وحصلوا على العديد من الشهادات العلمية ولكنهم يعودون إلى وظائفهم من دون أي تغيير يذكر في أدائهم.

والمفترض أن رئيس القسم أو مدير الإدارة سيقوم بعدة وظائف كالتخطيط والتنظيم والرقابة وتوجيه المرؤوسين، إلا أنه قد نجد أحد المديرين غير قادر على الاضطلاع بدوره لافتقاده للمقومات الشخصية والسلوكية، الأمر الذي يحد من فاعليته في التأثير على مرؤوسيه، فالقائد الإداري الذي يستحوذ على القدرات الإبداعية والانتقادية، والآخذ بزمام المبادرة والقادر على إحداث التغيير في ظل التحديات المعاصرة إنما يمثل حجر الزاوية في غالبية مسارات التغيير نفسها، من خلال كيفية معالجة تفاصيل القضايا الإدارية والاعتبارات ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة بتحقيق النتائج المرجوة وضرورة توافر القيادات الإدارية المتفهمة تماماً لطبيعة هذه التغييرات المعاصرة.

والقائد الإداري الفعال هو الذي لا يتكيف فقط مع التغيرات بل أيضاً يحاول استحضار آفاق المستقبل لاستكشاف الفرص المتاحة أمام المؤسسة حتى يحسن استغلالها، والتعرف على المخاطر المحتملة حتى يحاول تفاديها وتطويرها لاستغلالها لصالح المؤسسة، وفي كل الأحوال يجب أن تكتسب القيادات الإدارية مجموعة من القدرات والمهارات التالية:

- القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة.
- القدرة على إحداث التغيير.
- القدرة على التطوير الإداري.

- القدرة على اتخاذ القرارات الموضوعية.
- القدرة على التنفيذ بكفاءة وفعالية.
- القدرة على المتابعة والتقييم الذاتي.
- إشراك المرؤوسين في اتخاذ القرارات.
- تزويد العاملين بالمعلومات الكاملة عن العمل وظروفه.
- مراقبة الحال المعنوية للمرؤوسين.
- العمل على تهيئة صف ثان من القيادات الإدارية.
- القدرة على استخدام التقنيات الحديثة.

وقد ذهب أغلب كتاب الإدارة إلى أنه يجب أن يتوافر في القيادات الإدارية ثلاث مهارات هي:

١- المهارات الفكرية: وتتمثل في قدرة القيادات الإدارية التنفيذية على التفكير المنطقي وتصور الأمور ورؤية الأبعاد الكاملة لأي مشكلة ما وتحديد العلاقات المتغيرة.

٢- المهارة الإنسانية: أثبتت الدراسات التجريبية أن أهم سمة للإداريين الناجحين هي كفاءة الإداري في بناء علاقات إنسانية مع موظفيه، وسلوكه الجيد في التعامل معهم، ولذا فإن إيجاد روح الفريق بما يعمق الشعور بالرضا والانتماء يعد من أهم واجبات القيادات الإدارية.

٣- المهارة الفنية: وتتمثل في الإلمام بالعمل وقواعده وأصوله، فالتقدم التقني السريع والمستمر لجوانب العمل كافة يستوجب متابعة متصلة من القيادات الإدارية، بهدف الإفادة من الأساليب والطرق والأدوات الحديثة لتطوير العمل وزيادة فعاليته.

ولا يخفى دور التقنية الحديثة في مساعدة القيادات الإدارية في سرعة الحصول على المعلومات الدقيقة في الوقت المناسب لاستخدامها في العمليات الإدارية المختلفة من تخطيط وتنظيم وتوظيف ورقابة وتوجيه واتخاذ قرارات، وزيادة الفرص المتاحة للقيادات الإدارية في ممارسة أعمال التخطيط بدلاً من ممارسة أعمال روتينية متكررة، وتمكينهم من التعامل مع حجم كبير من البيانات والمعلومات في وقت أقل، ولذلك يجب على القيادات الإدارية الحديثة تكييف نفسها وقدراتها وفق متطلبات التقنية الحديثة، وذلك من خلال الدراسة

في المعاهد المتخصصة، ومراكز التدريب، لاكتساب خبرات التعامل.

معوقات تنمية القدرات الإدارية

١- المعوقات الإنسانية: تتعدد المعوقات الإنسانية التي يحتمل أن تحد من تنمية القدرات الإدارية، فنجد أنَّ أوّل معوق نابع من الشخص نفسه عندما لا يرغب في تطوير نفسه أو تعديل اتجاهه أو توسيع مداركه للتكيف مع المواقف الجديدة، فكثير من القيادات الإدارية غير مبال بذلك أو أنه يتخذ موقفاً محدداً نتيجة عدم وجود الحافز المناسب لديه للتغيير.

٢- المعوقات الفنية: إن افتقار الأجهزة الحكومية إلى التقنية الحديثة التي تتناسب مع ظروفها وأعمالها والطرق والأساليب التي يمارس بها العمل، أو القصور في أساليب تصميم وتنفيذ برامج تنمية القيادات الإدارية، أو النقص في الأجهزة التي تساعد على سرعة إنجاز العمل ودقته، أو وجود أجهزة قديمة أو غير ملائمة.

٣- المعوقات الإدارية: وتعتبر المركزية من أهم المعوقات التي تواجه تنمية القدرات الإدارية، حيث لا تتاح للقيادات الإدارية الدنيا حرية اتخاذ القرارات أو المشاركة في التخطيط وبالتالي عدم إعطائهم فرصة لإنجاح العمل الذي هم يمارسونه وهم أكثر التصاقاً ببيئة العمل وظروفه من غيرهم، كما أن عدم تحديد الاحتياجات بدقة من القيادات الإدارية وزيادتهم عن الحدّ المطلوب يؤديان إلى إحباط الكثير منهم نتيجة أنه يشعر أن طاقاته معطلة أو أنه ليس له فرصة بالنمو وكذلك يماثله النقص في المؤهلين.

كما أن قصور نظام الحوافز أو عدم العمل بها يؤدي إلى عدم الإقبال على العمل برغبة واجتهاد وعدم محاولة تطوير القدرات والإمكانيات، كما أن عدم وضوح الهيكل التنظيمي وسوء الاختصاصات وازدواجيته أحياناً.. كل ذلك يؤدي إلى تعدد الأخطاء وما يترتب عليه من الشعور بالإحباط والملل والجمود في اللوائح وعدم مرونتها أو ضعف نظم المعلومات، وضعف نظم التقييم والمتابعة وتدخل العوامل الشخصية في عملية التقييم.

مقومات وسبل تنمية القدرات الإدارية

أولاً- التنمية في مكان العمل:

يمكن تنمية قدرات القيادات الإدارية في المكان الذي تعمل فيه، وهذه التنمية يمكن أن تأخذ أشكال عدة، منها:

١- التنمية عن طريق الرئيس المباشر: ويعتمد هذا على قيام الرئيس المباشر بتدريب مرؤوسيه، ويمكن هذا من اكتساب الخبرة العلمية والتعرف على مشكلات العمل كما تحدث، ويساعد على تهيئة القيادات المراد تنميتها لممارسة العمل بكفاءة تحت إشراف وتوجيه مباشر من رئيسه المباشر.

٢- إسناد مهام خاصة (التكليف المؤقت): يقوم المرؤوس المراد تنميته بعمل رئيسه لفترة مؤقتة، وغالباً ما تكون فترات الإجازات القصيرة أو قد يكون خلال التعيين على وظيفة مساعد للرئيس، ويسند له بعض المهام التي يمارسها الرئيس، ولكن يجب ألا تنحصر هذه المهام في الأشياء العادية فتفقد عملية التنمية هدفها وقد يخاف الرئيس على منصبه من المساعد، ومن هنا يجب أن يوضح للرؤوساء أن أفضل طريقة لتقدمهم وترقيتهم هي من خلال تهيئة صف ثان من القيادات الإدارية قادرة على أن تحل محلهم.

٣- التنقل بين الوظائف (التناوب الوظيفي): ويختلف مفهوم التنقيل عن مفهوم النقل، لأن النقل لا يحدث إلا مرة أو مرتين في الحياة الوظيفية وقد يتخذ شكل الإجراء العقابي، أما التنقيل فقد يحدث لعدة مرات ويكون الهدف الأساسي منه تنمية الموظف وتطويره.

٤- الاشتراك في أعمال اللجان: وهذا الأسلوب يمكّن القيادات الإدارية من اكتساب المعرفة عن طريق الاحتكاك بالآخرين، والإحاطة بكيفية مواجهة المشاكل المختلفة خاصة عند تنوع خبرات وتخصصات أعضاء اللجان، وقد ثبت نجاح هذا الأسلوب في كثير من البلدان لإسهامه في تدريب أعضاء اللجان وتسليحهم بالقدرات والمهارات الإدارية التي تمكنهم من النهوض بالأعباء والمسؤوليات الإدارية المستقبلية، ويعتبر وسيلة ذات فاعلية في تنمية المهارات الإدارية وناجحاً للصف الثاني من القيادات الإدارية التنفيذية.

٥- **وظائف قيادية مساعدة:** يوضع لمديري الإدارات مساعدو مديرين، ولرؤساء الأقسام الكبيرة مساعدو رؤساء أقسام، وهذا الأسلوب يقلل من عبء التفاصيل اليومية للعمل على المدير، بحيث توكل للمساعد بعض المهام القيادية التي يتدرب من خلالها على العمل القيادي، ويجب أن يفوض المدير بعض صلاحياته لمساعده، واحتمال فشل المساعد وارد عندما تكون واجباته غير محددة وعلاقاته مع الآخرين غير محددة، كما أن ترك المساعد في مكانه لمدة طويلة من دون ترقيه يجعله لا يأمل في التقدم.

ثانياً- التنمية خارج مكان العمل:

يوجد العديد من الأساليب التي يمكن استخدامها في تنمية قدرات القيادات الإدارية التنفيذية خارج مكان عملهم، وذلك عن طريق المراكز والمعاهد والمؤسسات المعنية ببرامج التنمية الإدارية، التي تتميز بأنها توفر خبرة كفاءة في تصميم البرامج قد لا تتوافر في مكان العمل، وتوافر المديرين الأكفاء المتخصصين، وتجمع خبرات أفراد من مؤسسات مختلفة في نفس البرامج، الأمر الذي يتيح لكل دارس فرصة التعرف على مشاكل وخبرات المنظمات الأخرى، وتتميز بأن عمليات التنمية بعيدة عن جو ومناخ العمل، مما يتيح للدارسين الفرصة للاستيعاب والتعمق، ومن الأساليب الأكثر استخداماً:

١- **أسلوب المحاضرات:** ويعتبر أسلوباً فعالاً في تحقيق التنمية الإدارية.

٢- **تمثيل الأدوار:** حيث يوضع للمتدربين واقعة إدارية، ثم يقوم المتدربون بأدوار محددة في إطار هذه الواقعة.

٣- **النقاش المخطط (مؤتمرات، ندوات):**

- **الندوات:** وتتم عن طريق اشتراك العديد من الأشخاص ذوي التخصص والخبرة في مناقشة موضوع معين من خلال توجيه المسؤولين عن الندوة بهدف الوصول إلى موقف معين.

- **المؤتمرات:** وتهدف إلى تهيئة القيادات الإدارية لإعادة تقييم دورهم وأساليب العمل السائدة بالمجتمع الإداري في ضوء أحداث التغيير.

٤- **دراسة الحالة:** تعرف بأنها مختصر

لحوادث جارية في المجتمع الإداري حيث تعكس مواقف اتخاذ القرار أو تنفيذه أو تصف الأسلوب الذي تعالج به المشكلات الإدارية.

٥- **المباريات الإدارية**: وينقسم المدربون فيها إلى فريقين وتعطى معلومات تتعلق بعمل معين، وعلى كل فريق أن يرسم برامجه وخططه وأهدافه وكيفية تنفيذ هذا العمل، وتنقسم المباراة إلى جولات عدة وبعد كل جولة تبلغ كل مجموعة بنتائج القرارات التي اتخذتها.

٦- **أسلوب التطبيق العلمي**: يقوم المدرب بأداء عمل ما، مع شرح مراحله نظرياً وعملياً أمام مجموعة من الأفراد المتدربين بلا مشاركة منهم في أداء العمل، ولكن لا يعطى لهم مجال كاف للمناقشة والاستفسار، ويتميز هذا الأسلوب بسهولته وقلة تكلفته واستيعاب الكثير من المتدربين، إضافة إلى أنه يساعد على تثبت المعلومات لدى المتدربين، وعادة ما يساعد على تنمية المهارات الفنية.

مرور ٢٠٠ سنة على ميلاد تشارلز ديكنز

هبة الله الغلاييني ✿

لعلَّ أكثر ما يلفت الانتباه في كتب تشارلز ديكنز، مثل، دافيد كوبرفيلد، وأوليفرتويست، والآمال الكبيرة، هو الصلة الوثيقة بين حياته من جهة، وحياة أبطال رواياته، دافيد في رواية «دافيد كوبرفيلد» وبيب في رواية «الآمال الكبيرة»، وأوليفر في رواية «أوليفر تويست» من جهة أخرى، فهل نستطيع خرق الحجب الكثيفة للتوصل إلى المشاكل الرئيسية التي استقرت في نفسية تشارلز ديكنز والتي



استطاع أن يجسدها في شخصيات رواياته؟! هذه المشاكل التي أضفى عليها من ذاته ومن واقع حياته المرير، ما بَعُدَ بها عن عالم الخيال وأدنى ما بينها وبين الواقع، فنبضت تحت أزميله، وارتعشت للمس مشاعره، فتفجرت

✿ كاتبة ومترجمة.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الحياة فيها دماً وعرقاً، وجهداً ودموعاً، كان لديكنز منها النصيب الأوفى.

نشأته وطفولته:

ولد ديكنز بالقرب من «بورتسموث» سنة ١٨١٢م، ابناً لأب اتسم بالطيش وعدم التبصّر، لكنه بشوش لطيف المعشر، وأم غبيّة، يتسم سلوكها في بعض الأحيان بالدناءة «السيدة نيكلبي». عمل جده وجدته لأمه في خدمة المنازل، وربما كانت جدته تلك هي النموذج الذي استوحى منه تصويره للسيدة «رونسويل» في «البيت الكئيب» واتُّهم عم له بالاختلاس وكان عليه تبعاً لذلك أن يغادر الوطن نهائياً، وأثناء طفولته التي اتسمت بالهدوء النسبي، قرأ ديكنز كثيراً مثلما كان بطله «ديفيد كوبرفيلد» يفعل في «حجرة صغيرة مباركة» رودريك راندوم، بيرجرين بيكل، همفري كلينكر، توم جونز، قسيس ويكفيلد، دون كيشوت، جيل بلاس، وروبنسون كروزو، واضطر فيما بعد بسبب عوز الأسرة أن يبيع هذه الكتب لتاجر كتب سكير في شارع هايستيد. ولكن قراءته «لسمولتيت» و«فيلرنج» و«جولد سميث» و«سيرفانتس» وغيرهم كانت خبرة أساسية لازمه تأثيرها الذي انعكس بالضرورة على رواياته فيما بعد.

انتقلت الأسرة من بورتسموث إلى لندن ومنها إلى تشاتهام، وفي تشاتهام قضى ديكنز بعض الأيام السعيدة، حين قرأ الروايات وتلقى تعليمه الأول على يد السيد «ويليام جايلز»، ولو أنه قُدّر للأب أن يكون أكثر رزانة لربما استطاعت الأسرة أن تعيش حياة البرجوازية الصغيرة في حينها، ولكن الرزانة لم تكن إحدى صفات السيد ديكنز الأب، فبعد أن نقل مرة أخرى إلى لندن، حيث كان يشغل وظيفة صغيرة في إدارة معاشات البحرية، استأجر منزلاً في شارع «بيهام» بمدينة «كامدن»، وتورّط مرتين على التوالي في أعمال مشينة تركت بصماتها على شخصية ابنه مدى الحياة.. دفع بابنه إلى العمل ثم دخل هو السجن.

عانى «ديكنز» طويلاً من الحرمان المادي لكن ما جرحه وأغضبه أكثر من أي شيء آخر هو ذلك الإحساس المؤرّق بالعار... والتعرف على تلك الأشكال والأساليب التي تجلب العار وتوحي به مسألة هامة جدّاً لأي فهم لنفسية مجتمع القرن التاسع عشر إذ نجد

الكبرياء وكل ملحقاتها من الثروة والملكية وأنماط السلوك من جهة، والعار وما يرتبط به من حاجة وسريّة من جهة أخرى.

عندما بلغ الصبي العاشرة لزم البيت، حين لم يستطع والده الاستمرار في إرساله إلى المدرسة بسبب فقره وديونه.. ولم يكن هذا كل ما خبأه فحين كان والده نزيل السجن بسبب ديونه، ألقيت على عاتق الصبي الصغير مهمة إعالة الأسرة، وكان أوّل عمل حصل عليه في مكتب محام، يؤدي فيه مهام تنظيف المكان، وحمل الأوراق والمصنفات إلى المحكمة والعودة بها، ما لبث بعدها أن رقي إلى رتبة كاتب، فاستطاع أن يستغل بعضاً من وقت فراغه في تعلم الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة، على أمل الحصول على عمل أفضل.

بدأ ديكنز بمعالجة الكتابة في سن مبكرة، حينما كان يعمل في مكتب المحامي، وقد بدأها بمقالات صغيرة حاول فيها وصف الحياة في لندن، كما عرفها.

وقد ساعده أحد الناشرين في جمعها في كتاب كان الخطوة الأولى في معارج الأدب ودنيا الفكر، وقد شجعه ذلك على كتابة مسلسلات كانت تنشرها له صحيفة أسبوعية تحت عنوان: «صحائف بيكويك» التي أضحت فيما بعد كتاباً كان حجر الأساس في شهرة ديكنز الأدبية، ما لبث بعدها أن تدرج في معارجها حتى بلغ القمة، ودخل ديكنز عالم الأدب من أوسع أبوابه، وراحت رواياته تنشر واحدة إثر الأخرى: «حانوت الطرق القديمة»، «دوريت الصغيرة»، «نيكولاس نيكل باي»، «قصة مدينتين»، «صحائف بيكويك»، «دافيد كوبرفيلد»، «أوليفر تويست»، «الآمال البعيدة» وغيرها.

ومما لا شك فيه أن طفولة ديكنز وأوائل صباه قد أمداه بذخيرة لا تنفد من الذكريات التي خلفتها تجارب شتى، بعضها كان مبهجاً ساراً، والبعض الآخر كان قاسياً مؤلماً.. حافلاً أحياناً، كئيباً قاتماً أحياناً أخرى.

لقد فجّرت التجارب في نفسه طاقات هائلة من الحنان والعطف لكل ما يحمل معنى الأسى والحزن والحرمان، وعلى الأخص ما اتصل فيها بأطفال وجدوا في مثل ظروفه البائسة، وقد أسهمت المعرفة التامة بأطفال أزقة لندن القذرة الفقيرة القديمة، وعمله في مكتب عام، في توسيع معرفته وتعميقها لكل

ما تضمنته البيئة من مشاكل العصر في شتى نواحيها واختلافها، في مظاهرها الخارجية التي تبدو للعيان، وفي دخائلها وما خفي منها واستتر وراء الأسمال البالية، والأثواب الممزقة، وقد بانت عبر ثغراتها لحوم إنسانية تشتكي القرّ في الشتاء، وتتلوّى تحت لفح اللظى في الصيف.. المجرمون في السجون وداخل المكتب.. المتسكعون في انتظار فرصة لربح، أو سرقة، أو إهدار دم، أو إزهاق روح، حول المكتب وخارجه. لقد أتيح لديكنز أن يحتك بجميع طبقات الشعب الإنكليزي خلال عمله في مكتب المحامي، وخاصة الفقراء والمعوزين منهم، الذين كثيراً ما كان يمضي الساعات متأملاً ملامحهم المشوهة، وابتساماتهم الصفراء، تسيل على أطراف شفاههم وكأنها تكشيرة الموت.. شفاه جافة تسلقت إليها لفافات تبغ تلقفتها الأيدي البائسة وقد هدّها الحرمان، وأضناها الجوع، تحاول إسكات صراخه بدخان أسود، يحمل العلة إلى الصدر، والفناء لبقايا هيكل متداع، وبين مكتب المحامي وأبواب المحاكم، قطع ديكنز دروب المعرفة، وتخطى الملامح الممسوخة المشوهة، والابتسامات الصفراء الباهتة، والهياكل الناحلة الخاوية، ليصل إلى الأعماق، أعماق الإنسانية في هيكل الإنسان الذي لا تستر عيوبه وسوءاته ستور المدنيّة وزيف ديباجها وألوانها.

حياته العاطفية:

في ما يتعلق بحياة ديكنز الخاصة والعاطفية هناك على الأقل ست نساء لابدّ من وضعهن في الاعتبار: ماريا بيدنيل حبه الأول، كاترين هوجارت زوجته، والتي لا مفر لنا من إدانتها تماماً، وشقيقتها ماري وجورجينا، وأنجيلا بورديت كوت التي شاركته سرّاً في العمل الخيري، وألين تيرنان حبيبته الصغيرة التي خطب ودّها وغرّر بها وهو في أواسط العمر. وكان ملحوظاً في البدء كيف أن ديكنز قد شارك الكثير من روائيي القرن صمتهم إزاء وصف بعض المسائل الجنسية وطالما وضع هذا الصمت في تناقض مع تقاليد القرنين الثامن عشر والعشرين بخصوص الكتابة عن الجنس، وليدلل هذا التناقض على تلك القناعات المتزمتة للقرن التاسع عشر، ومع ذلك فهناك بعض الدلالات التي يمكن التعرف عليها من خلال علاقة ديكنز الشخصية بهاته النساء

وانعكاس ذلك على كتابته، وهناك اتفاق عام بين النقاد على أن شخصيات أبطال وبطلات ديكنز هي من بين شخصياته المتخيلة، أقلها إثارة، ومع ذلك فإن الأشياء الغامضة أو العاطفية -الفظة أحياناً- في تصويره للقاء الجنسي، وأشكال الغزل التقليدية التي يتبادلها الرجال والنساء في عالمه، والعداوة الزوجية التي تغرق بالمرارة الكثيرين من الأزواج والزوجات الذين مضى على زواجهم وقت طويل، ومن أكثر الأشياء إحباطاً في عالمه تلك السخرية المريرة من العوانس، ويمكننا أن نرجع كل ذلك في جانب منه إلى مغامراته العاطفية.

وقد ألهمته «ماريا بيدنيل» عاطفة لدور إسبينلو في «دافيد كوبرفيلد» أو قساوة في تصويره لفلورافنشنج في «الصغيرة دوريت» وكان ديكنز قد التقى بها للمرة الأولى وهو في السابعة عشرة من عمره وكانت أصغر ثلاث بنات جميلات لأب يعمل مديراً لبنك، وعاش في شارع لومبارد، في البدء لقي ديكنز تشجيعاً من أبيها، كان أيضاً تشجيعاً غير متعمد لاهتمامه بها، وكثيراً ما دعي للغداء، وولع بالفتاة لمدة أربعة أعوام عاصفة بالعواطف، كانت خلالها تصدّه من حين لآخر صداً قاطعاً، ووضعت بيديها نهاية مهينة معذبة لقصة حب سارت في إطار المواصفات المعاصرة ملتزمة بالمحظورات وبما هو لائق، ويبدو أنها تركت أثراً لم يفارقه أبداً، مشابهاً لذلك الذي خلفته ورشة الصباغة أو سجن الدائنين، وكانت سبباً في هزيمة عاطفية داخلية، قرّر بعدها ألا يعرّض مشاعره أبداً لعقوبة مشابهة «تركت لديّ انطباعاً عميقاً حتى إنني أرجع إليك تلك العادة التي لازمتني في قهر النفس، والتي أعرف أنها ليست جزءاً من طبيعتي الأصلية ولكنها تجعلني شحيحاً في إظهار عواطفي حتى بالنسبة لأطفالي إلا إذا كانوا صغاراً جداً»، ويتساءل المرء إذا ما كانت بدانة ماريا وغلظتها وسخطها الذي لم ينطفئ كلية أبداً، هي ما دفعت ديكنز إلى هذا النوع من الانتقام الذي مارسه فيما بعد. فبعد عشرين عاماً من انتهاء قصة الحب كتبت ماريا لديكنز رسالة وكانت حينئذ السيدة وتنر، وأماً لطفلين، وكان هو أباً لتسعة، عرضت عليه أن يلتقيا مرة أخرى واستيقظت مشاعره بعنف، مستعيدة نشوة

الحب الشاب، وفي تلك اللحظة الرائعة أصيب بخيبة أمل قاسية، كانت مفرطة البدانة يطفح غباؤها شراً، وكأنما تحمل صورة فلورافنشنج كما قدّمها بعد ذلك وهي تمارس نوعاً من التعاويذ الشيطانية، ومع ذلك فإن الإحباط الجنسي الأول الذي لقيه وما سببه من تعقيدات في حياته قد أثّر بشكل ملحوظ على روايته هذه، وسرعان ما شدّت اهتمامه فتاة أخرى، كان قد قابل كاترين هوجارت وهو في الثالثة والعشرين، وفي إبريل سنة ١٨٣٦م تزوجها، كانت لها شقيقتان ماري وجورجينا، ارتبطتا كلتاهما ارتباطاً غريباً بهذا الزواج، ونتيجة لذلك انتشرت ظنون وشائعات حول نوع من الحب الشهواني الملتاع بينه وبينهما، عاشت ماري مع الزوجين الشابين منذ البداية الأولى للزواج، وماتت فجأة في ريعان الشباب بين ذراعي «ديكنز» تماماً مثلما ماتت «نيل ترينيت» والتحقت جورجينا بالأسرة بعد ذلك بقليل.

وما يثير الاستغراب حقاً أنها بقيت هناك حتى بعد أن حرمت كاترين من صفتها كزوجة، كانت كاترين الابنة الكبرى لجورج هوجارت محرّر «الإيفنج كرونيكل» الذي عمل معه ديكنز، وكانت خصبة دائمة الإنجاب بإصرار، حملت له عشرة أطفال وانتهى الزواج نهاية درامية أحدثت دوياً عاماً كبيراً، فبعد عشرين عاماً من زواجهما، كتب «ويلكي كولنز»، ميلو دراما أطلق عليها اسم «البحر المتجمد» وأنتجها ديكنز مع مجموعة من الهواة، ومات صديقه «دوجلا جيرولد» فأعاد ديكنز العرض سنة ١٨٥٧م ليفتح صندوقاً لمعاونة أسرة «جيرولد» المعوزة، واستعان حينئذ بممثلة محترفة هي السيدة «تيرنان» وابنتيها الشابتين، كانت ألين في الثامنة عشرة وفتن بها ديكنز، فأنهى زواجه مع كيت بسرعة، وكانت علاقتهما قد تفاقمت على أية حال، ليس فقط بسبب تكرار مرات الحمل والولادة وإنما أيضاً بسبب نمو التنافر بينهما.

ولا تشكل هذه الأضرار -التي تملأ حياته- كل مسيرة ديكنز، كانت هناك المشاحنات العنيفة مع الناشرين، ولكنه منذ نشر بيكويك حتى النهاية حظي دائماً بتقدم مالي درّ عليه الربح المتزايد، ومع ذلك فهو لم ينسَ أبداً معوزي لندن وكادحيها، وعلى

مدى عشرين عاماً كاملة عمل في السرّ أكثر مما في العلن بالتعاون مع وريثه ثريّة هي الآنسة «بورديت كوتز» في محاولات لإصلاح بعض الخراب الاجتماعي، وكانت علاقة أفلاطونية رومانسية، يشاركان فيها في تقديم الخير للإنسانية، كان ديكنز يبدو حاضر البديهة، مرحاً واجتماعياً، تحمّل أعباء الشهرة في سن الرابعة والعشرين، رحل كثيراً إلى أمريكا والقارة الأوروبية وحاز شهرة عالمية، ولا بدَّ أن في هذه الفترة من حياته أياماً سعيدة ومراحل موفقة، ورغم ذلك نجد أن كل كتاباته التي وصلت إلى خمس عشرة رواية ابتداءً من بيكويك سنة ١٨٣٧م حتى «أدوين درود» سنة ١٨٧٠م لم تخل أبداً من الاضطرابات الشخصية والضغوط العاطفية التي وقعت عليه ولم يبتعد ظلّها أبداً، وبقيت ظلال القساوة الاجتماعية مصدراً دائماً لقنوط لا يزول، وعلينا أن نتذكر هذه الكآبة بصفة خاصة في تقييمنا لقدرات ديكنز «الكوميدية».

الكوميديا المتربعة على العرش من بيكويك إلى بيكسنيف:

قبل أن يأتي ديكنز وعصره كان كل من «تشوسر» و«شكسبير» و«سويفت» و«فيلدنج» و«سموليت» قد كتبوا الكوميديا عن قصد، ولم تكن محصلة إنتاجهم مجرد نكتة كامنة أو مثيرة فقد أظهروا الأشياء المتضادة والمتناسقة حيث يمكننا أن نضحك في المواقف المحزنة، في مسكن «فاجان» الموبوء، أو حالة العذاب عند «كويلب» وتعود فكاهيتها جميعاً – ويا للمفارقة – إلى التوغل في الحيرة الإنسانية، وتعتمد إلى حد كبير على الموقف النسبي للكاتب سواء كان ساخراً أو متعاطفاً، ويستطيع بعض الكتّاب الكشف عن العبثية الكامنة في أي وضع يتناولونه، وذلك شرط أساسي في الوصف الكوميدي الكامل، ومع ذلك، فإننا نصادف تنوعاً كبيراً في كل ما من شأنه أن يثير الابتهاج – وقع كل من «إبزولون» في «حكاية الطحان» والسيد بيكويك، في إحدى غرف «الحصان الأبيض الكبير في إبتسوتيش» وقع كلاهما في مأزق في غرفة النوم، وكلا المأزقين ينبعان من السخف ومن ثم المهانة التي يؤدي إليها موقف غير مألوف. ولأسباب تتعلق بالذوق المعاصر، لم يكن باستطاعة ديكنز أن يكتب عن قبلة «إبزولون» الأشقر، ولم يكن تشوسر

مطالباً بالاهتمام بتلك المحنة التي وقع فيها «بيكويك» والناتجة عن كتب القرن التاسع عشر والمحرمات التي فرضها، ومع ذلك فإن هذين المشهدين القصيرين، قد أمتعا، وما زالا يمتّعان أجيالاً متعاقبة من البشر، أما كيف تحقق ذلك فهي قضية لابدَّ أن يدرسها علم النفس الاجتماعي والبحث الأدبي، ولكن يبقى هناك عنصر أساسي كامن في اللعب على الخوف العام من أن لا يبدو الإنسان منتمياً إلى القاعدة ومتسقاً مع ما هو مألوف ومتوقع ومتعارف عليه، فكل من العبثية والسخف أو استثارة السخرية من العالم والأشياء هي أنواع من غرابة الأطوار أو الخروج عن المألوف وربما كان الكاريكاتور والفارس كذلك أيضاً، ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو ما نشير إليه اصطلاحاً بالحس الهزلي أو الكوميدي، وما يصعب تماماً تحليله، ولكن يمكننا أن نقول أنه ذلك الشيء الذي يؤدي بنا إلى نوع من العبث المرح ويدل عليه، ويشي بالمقدرة الإنسانية على أن لا يأخذ المرء نفسه أو رفاقه في كثير من الأحيان بجديّة صارمة، وأن يتعرف على نفسه كجزء من سخافة شاملة، وتتأصل فيه تلك الحساسية الخاصة إزاء المهزلة العامة أو الكوميديا الخالدة والشاملة الكامنة في كل شيء من حولنا وفي العالم ذاته، انصبّ تركيز ديكنز في رواياته الست الأولى أساساً على الجانب الهزلي والعبثي في الحياة الإنسانية – حتى حين كان صارماً وتسجيلياً بوعي كامل فإلى أي حد يمكننا أن نعد هذه الروايات جميعاً جزءاً من «حيلة» أدبية أو استخدام مخطط «للكاريكاتور» أو «الفارس»– تلك مسائل تحتمل المناقشة، فنحن نستطيع أن نجد في أمثال بيكويك وجنجل، وبزفيوز، وتراس توبمان، ودودسون، أناساً يقطعون الأرض الآن في أشكال معاصرة، ونستطيع أن نقول بمعنى آخر أن قدرات «ديكنز» الكوميدية تكمن أساساً في اكتشاف وتقصي السخافات، وعرضها والاستمتاع بها، وهي سخافات ثابتة وعامة في عالمه لدرجة أن المبالغة في تصوير الشكل الخارجي أو السلوك العام لا تأتي إلا كعوامل مساعدة تعمل على إبراز الموقف الكوميدي أو الهزلي الكامل.

كان ديكنز يكتب لهدف أساسي وهو

توفير المتعة وذلك في أفضل معنى للكلمة، وكتب دونما خجل لأوسع جمهور ممكن، وهكذا فعل شكسبير.

أقرّ ديكنز بمنهج ونصائح «فورستر» كأسلوب لاستقراء الرأي العام الفيكتوري، وعمل بنصيحة «فورستر» فيما يخص الحبكة والشخصية حين انخفضت مبيعات الأعداد الشهرية، أو حين أدرك أنها يمكن أن تنخفض ورغم أننا لا نستطيع أن نقلل من أهمية التقطيع المتعمد لنياط آلات القلوب، أو الاستدرار المتعمد والمحسوب للدموع القومية كما في حالات سمايك وأوليفر، ونانسي والسيدة رودج وأشباههم العاطفيين فلا بدَّ أن نقرَّ أن أكثر العوامل حسماً وأهمية في الروايات الست الأولى والتي كسبت لها شعبية وجماهيرية واسعة، كمن في قوة الكوميديا والقدرة على عرضها.

وغاضت العبقرية، وخبا نورها فجأة في عام ١٨٧٠م، بعيد ساعات قليلة من مرض مفاجئ.

وهكذا انطوت صفحة من أنصع الصفحات العبقرية تحدّت الظروف وقسوة الحياة، وتخطّت الفقر والفاقة، وداست الشوك في طريقها إلى القمة.. أجل إنه تشارلز ديكنز، الذي ترعرع في أقذر أزقة لندن وأكثرها فقراً، فكان الناقد الاجتماعي الذي أسهم في معالجة مشاكل مجتمعه التي عاشها، والتي تركت على صفحات قلبه، وفي نفسه آثاراً لم يمحها الزمن وعطاؤه.

المراجع

١- «الرحلة العاطفية»: قصة حياة تشارلز ديكنز، لـ «كنجر ميل لن».
٢- «تشارلز ديكنز»: دراسة نقدية وحياتية، لـ: «جاك لندساي».
٣- «دافيد كوبرفيلد» لـ «تشارلز ديكنز» الفصل الثامن والثلاثون.
٤- «الفيكتوريون الآخرون» لـ «ستيفن ماركوز».
٥- «تشارلز ديكنز» مقدمة نقدية لـ «ك. ج. فيلدنج».
٦- «أوراق بيكويك» لـ «تشارلز ديكنز».
٧- «العاطفية الزائدة في الرواية» لـ «أ. ج. كوكشت».

جماليات العيون ودلالاتها.. في قصائد الشاعر علي الزيبق

عبد القادر حمّود *



ولد الشاعر علي الزيبق في مدينة حلب عام ١٩٢٨م، وتوفي فيها يوم الخميس في ٢٤ تموز ٢٠٠٨م، وبين هذين التاريخين عرفته الأوساط الأدبية شاعراً مجلياً، وقد شهدت له بذلك قامات سامقة في الأدب، بدءاً بالشاعر العراقي معروف الرصافي الذي أثنى على شاعريته في وقت مبكر منذ عام ١٩٤٥م، وغير ذلك فثمة شهادات عديدة، لعلّ أبرزها ما كتبه الدكتور سامي الدهان في مقدمة المجموعة الشعرية الثانية للشاعر الزيبق (النبعة اليتيمة) الصادرة في عام ١٩٥٩م، وكذلك ما

* شاعر وكاتب من سورية.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

كتبه الشاعر اللبناني سعيد عقل في مقدمة المجموعة الثالثة (شلحة ناي) الصادرة في عام ١٩٧٠م، وجدير بالذكر أن للشاعر مجموعة شعرية أخرى تحمل عنوان (ساميا) وهي باكورة أعماله وقد صدرت في حلب عام ١٩٥٢م، وللعلم أن للشاعر نزار قباني مجموعة شعرية بالعنوان ذاته (ساميا) وقد صدرت أوّل مرة في عام ١٩٥٠م في بيروت عن دار العلم للملايين.

هذا، وقد عمل الشاعر الزيبق موظّفاً في (دار الكتب الوطنية بحلب)، ثمَّ شغل منصبَ مدير هذه الدار، وبعد ذلك نُقل إلى (معهد الفنون التطبيقية)، في منتصف الثمانينات، وشغل منصب مدير المعهد، إلى أن تقاعد عن العمل الوظيفي سنة ١٩٩١م.

وغير ذلك، فإن المتتبع للحركة الأدبية سواء عبر المنابر أو الصحف والمجلات، وخاصة مجلة (الأديب) البيروتية، يعرف أن الشاعر علي الزيبق يشكّل قامة أدبية ذات أثر في المشهد الأدبي بشكل عام، وفي المشهد الشعري بشكل خاص، ولو أردنا التحديد، لقلنا في فنّ الغزل دون سواه من فنون الشعر المختلفة. فقد قدَّم عبْرَ تجربته الشعرية قصائد متميزة في فنّ الغزل يفوح منها عبير الوجد وتنساب سواقي الرقة والوداعة.

وكان للعيون ومدلولاتها المختلفة حيزاً بارزاً لافتاً للانتباه في تجربة هذا الشاعر الغَزل، فهي منطلق الشاعر، وميناؤه، ومنها تبدأ دورة الحلم، وإليها تنتهي، وبالتالي فمن وقع لقاء عيني الحبيبة بعينيه تنمو أزاهير الخيال وتتفتح براعم القصيدة، يقول في قصيدة (شاعرة):

ودعيني من وقع عينيك في
عينيَّ يكسو خياله إزميلي!

ويقول في (الهوى الضائع) بلهجة المستغرب:

حلو، يا حلو، ما لعينيَّ في عيـ
ـنيكَ لا تنشدان نبعاً وكرْما؟

ولأن العينين فيما يتصوره الشاعر أداة الإبحار إلى ما وراء العوالم المجسدة، وهما الناقلة الأسطورية إلى العوالم المجردة، بما تحتمله تلك العوالم من مفردات وتعابير وصور، هذا جعله يقتنص أبدع لحظاته من العينين اللتين تراءى له خلالهما الأمل الذي يمضي به إلى أنقى وأرقى لحظاته، يقول في قصيدة (غنيتُ):

يا حلوة الحلوات، فضّلتُ من

عينيكِ هذا الأمل المخملي

غنّيتُ ما كانَ.. وما كانَ، يا

حبيبتي، يعودُ للأجمل

وفي قصيدة (الحبيب) أيضاً تتوارد تلك اللحظات التي يعوّل الشاعر عليها، والتي ما كانت لولا العيون التي يهيم بها وبلونها الساحر، فيقول:

وكلما فضّلت من لون عيـ

ـنيك ثيابَ الحلم المخمليّ

وكلما شردتُ في غابةٍ

على جناحِ صوتك البلبليّ

أتيتني تبغين ما لا يو

دّه الهوى.. ولا الجمال السنيّ؟

وإن هذا الانفتاح على المطلق الذي يجعل مرتكزه ونقطة انطلاقه من لحظة، ربما هي الأكثر أهمية في سيرة العشق، إنها لحظة التقاء العيون بالعيون، والشاعر لا يتوقف عند محطة العشق فحسب بل يجعل من هذه اللحظة منطلقاً إلى أقصى غايات الوجود، فهي بداية لعوالم سنية تتماوج فيها الأمنيات، فإن قال في قصيدة (سفر):

عينـاك غيمتـان

تمطران فوق ربوةٍ

فهذا المطر سيصبح جداول خصب وعطاء في قصيدة له بعنوان (لقاء)، فهو القائل:

مطرُ الحبِّ واخصابي بجفنيك النبيذيين يا جدول حسّي

وخلال اللحظة الماطرة، تلك اللحظة ذات البعد الإيحائي، والمرتقى الدلالي، تأتي صورة ممطرة أخرى، تمتد من عيني الأنثى وتطول لتنتهي عند نجمة تتخفى في حجاب من مطر، يقول الشاعر علي الزيبق في قصيدة (تعالي):

وفي ناظريك طريقٌ بعيدٌ

إلى نجمةٍ حُجِبَتْ بالمطر

هذا، ولقد ارتبط الحديث عن العيون بالمطر، وقد لا يكون البيت الشهير في الشعر العربي هو أولها، ذلك البيت المنسوب لعدد لا بأس به من الشعراء، إنما أغلب الروايات تذهب إلى نسبته لأبي الفرج الوأواء الدمشقي (ت: ٣٥٨ هـ، ٩٩٥م) والذي قال فيه:

وَأمطَرَت لُؤلُؤاً مِن نَرجِسٍ وَسَقَت

وَرداً وَعَضَّت عَلَى العُنّابِ بِالبَرَدِ

وفي العودة إلى العيون في غزليات الشاعر الزبيق، تطالعنا تلك الصورة القديمة المتجددة للعيون كرمز للسفر، وبالأدق أداة رحيل عبر الزمان والمكان، وهذا ما جعل الشاعر يقول في قصيدة عنوانها (قرّبي):

ما لعينيك ترحلان إلى كون

بعيدٍ ملوّن بالضباب؟

أيُّ وهمٍ أعطاك قيثاره، أعـ

طاك أسرار قلبه الوهّابْ؟

آه يا منيتي، وأنت التي

علّمتني أن أسير خلف السراب

حاملاً في يديَّ أشلاء قلبي

وحطام المنى في أهدابي

وثمة بعدٍ تجديدي، مفعم بالتخييل والدخول إلى عوالم مجرّدة تبرز خلالها صورة مركّبة تُعنى في ظاهرها بالجسد المتمثل بمفردتين هما: الشَّعر والعينان، وهذا الظاهر وبقليل من التأمل ينفتح على عوالم سامية مغرقة في العمق، فالشاعر الذي يلمُّ أغنيته من شَعر تلك الأنثى، يتابع رحيله ليلمَّ من عينيها ذلك المعنى الرائع المتمثل بالعطر كمفردة دالة على الرائحة الطيبة، وأي عطر، إنه عطر الغد، والغد مفردة مفتوحة على الآتي من الزمن، ولعل أجمل الأشياء ما لم يأتِ بعد، وما يدعو إلى الوقوف أمام هذه اللمحة الشعرية ذلك الزخم الصوري والتخييلي، إضافة إلى اجتماع عدة حواس في حيز واحد بدءاً بحاسة اللمس التي تحيل إليها مفردة ألمُّ، إلى حاسة السمع المتمثل بالأغنية التي تلج الذائقة عبر الأذن أولاً، ومن ثم تحضر حاسة الشم المتمثلة بمفردة العطر، وهذه الحاسة لا تأتي من غير تمهيد ربما كان لحاسة البصر علاقة به خلال عملية (ألمُّ من عينيك)، هذا إلى جانب حاسة أخرى من خارج دائرة الحواس الخمس، تتمثل باستشراف المستقبل، أو ما يقال عنها الحاسة السادسة، وهذا ما تحيل إليه مفردة الغد في آخر البيت، يقول الشاعر في قصيدته (الهمسة المغنية):

ألمُّ من شعرك أغنيتي

ألمُّ من عينيك عطرَ الغد

ويظهر التركيب الإضافي (عطر الغد) ثانية في قصيدة (حجر النهدين)، وهذا الظهور الآخر ليس بريئاً من العلاقة

بالعيون التي يفهم الشاعر فيها لون الشذا، وهذا يحيل إلى أمرين، أولهما يتعلق بإصرار الشاعر على حضور الوعي كتأكيد على معرفته بما يدور حوله، وكترسيخ لحذاقته وحنكته في مثل هذه المواقف، وثاني الأمرين يشير إلى أنّ هذا الحضور العقلي لا يبتعد عن ثورة الإحساس الدافقة لديه والمتمثلة باستحضار اللون الذي هو من المفردات البصرية كمضاف يقود إلى مضاف إليه هو الشذا وهذا الأخير من المفردات التي لها علاقة بحاسة الشمّ، وهذه البراعة التي تجمع هذه المفردات في حيّز شعري متقن جديرة بالوقوف عندها وتأملها بالشكل المناسب، يقول الشاعر:

أفهمُ ما خبّأتِ لي من غدٍ
معطّرٍ، أفهمُ تلكَ الأمورْ
أفهمُ في عينيكِ لونَ الشذا
والوهمِ، أفهمُ الرداءَ القصيرْ

وتبقى العيون حاملات عطر، أو ينابيع تفور بهذا العطر، وذلك في قصيدة تحمل عنوان (أنتِ)، هذا العطر الذي سكبته عيناها مما جعل الشاعر يغمض عينيه خوفاً على حلمه الآسر، يقول الشاعر:

في جدّةِ الظمأ العميقِ وأنتِ لي
تَعْرَيْنَ في ليلٍ من التذكارِ
عيناكِ عطْرتا وجودي كلّه
ويداكِ أسفاري إلى آذارِ
أنتِ التي كلُّ النساءِ، حببتُها
ونثرتُ فوقَ جبينها أشعاري
ياليتني أغمضتُ عيني لحظةً!
لا لا تطرْ يا حلمُ، فكَّ إساري

ومع تلك العيون وخلال العبق المنداح والذي يمضي بالشاعر إلى حلمه بالغد الجميل، تأتي قصيدته التي تحمل عنوان (حنين) ليقف الشاعر أمام أنثاه متسائلاً وهو ينظر إلى عينيها موغلاً في آفاق العذوبة والنغم، فيقول:

عذّبتِ كم يمامةً
في عشّها، لم تندمي
لتملئي عينيكِ من
هديلها المتيّمِ
يا حلوتي، أيّ غدٍ
خبّأتِهِ؟ تكلّمي

وفي قصيدة بعنوان (إغراء): يستمر الشاعر على الزيبق مع مفردة العيون بصفتها مصدر عطر فوّاح، وتأتي الصورة

بلبوسها المتجدد واليانـع عبر جعل الأشياء شركاء حقيقيين في اللحظة الشعرية ولحظة التجلي الخلاّقة، يقول الشاعر:

يا ستّ، هذا العطر عطرُ محبّةٍ

ما ترتجين، وعبْرَ هُدْبكِ أبحرُ؟

ولا بأس، فتلك العيون التي رأى الشاعر مـن خلالها غده المعطر، وهذا معنى يحمل الكثير من جرعـات التفـاؤل إضافة لكون تلك العيـون بعض مفاتيح الحلـم والأمل، فهي أيضـاً فضاءات الشاعر التي يطلّ من خلالها على العالم المحيـط به، أو أنه يتجه عبرهما إلى دواخلـه وجوانيته، أو أي مكان يجد فيه بعضـ طمأنينة النفس، فهو الذي أضاع بعضه، أضاع شيئاً ما، حرفاً، وأين كان هذا الضياع إنه في عينيها، يقول الشاعر في قصيدة (ضيعتُ حرفاً):

أيا حلوتي، وبعينيك ضيّعتُ

حــرفـاً... فـبـالله ردّيـه لي!

وتتسع دنيا الشاعر وتحلو عبر مفردات مثـيرة من جسد الأنثى، إنمـا هذا الاتساع وتلك الحلاوة تصبـح حيرة لفكره، حيرة لا تأخذ إلى قلـق أو اضطراب كما هو مدلول الكلمة التقليدي، إنمـا تأخذ إلى مزيد من المعطيات الجميلة التي تأخذ لبّه لتعروه تلك الهزة التـي عرفها أبو صخـر الهذلي (ت: ٨٠هـ، ٧٠٠م) قبل قرون حين قال:

وإنّي لَتَعْروني لذِكراكِ هزّةٌ

كما انْتَفَضَ العُصفورُ بَلّلهُ القَطْر

يقول علـي الزيبق في قصيـدة بعنوان (لي): ص١٢٢

عِبْرَ عينيكِ، عبر نهديك، دنيا

حـلـوة حـلـوة.. تحـيّرُ فكري

وتلك الحـيرة على شواطئ تلـك المرأة مـا تلبث أن تصبح ضياعاً كاملاً في بحرها الخضـم المتمثل بالعينين كمـا كانتا بعض شواطـئ العبور إلى الدنيا الواسعة من قبل، فهل يملك الغارق بعد ذلك إلا أن يسأل عن طريقـه، يقول الشاعر الزيبـق متسائلاً في قصيدته (بحار العقيق):

أيـا حـلـوتـي، وأنـا لم أزلْ

أضيع بعينيك.. أين الطريقْ؟

وتقود هذه الحـيرة وذاك الضياع الذي ينبعث عـن ثورة عشقيـة فجرتها مفردات جسد الأنثى وبخاصة عينيها، إلى بحث عن خلاصـ، وملجأ يضع فيـه الشاعر أحماله

ويرخي بعض أعباء ذاته العاشقة، إنما لا مناص من العودة إلى العينين بصفتهما الميناء والبرّ الآمن والربيع الجميل، ومرة أخرى تظهر تلك البراعة الخلاقة في صنع وتكوين العبارة الشعرية، فقد استطاع الشاعر جمع ثلاث صفات لعيني أنثاه في بيت واحد، واستطاعت كل صفة الانفتاح على آفاق ومساحات ممتدّة، فالمرفأ ليس حيزاً مكانياً فحسب، ولا البرية بما تملكه من انفتاح على مفردة الحرية تقتصر على هذا المعنى وحسب، وليس الربيع النضير كناية عن لون العينين أو شبابهما وحيويتهما، إنّما ثمة احتمالات تمتدُّ إلى المطلق ولا تقف في حدود الدوائر المرسومة، يقول الشاعر في قصيدة (تلوين):

بعينيكِ مرفأ قلبي، بعينيك

بريّتي وربيعي النضير

وفي لحظة كشف باهرة وانفتاح على اللامتناهي تأتي لوحة البحر كمعادل موضوعي للمدى الممتدّ والموغل في المطلق، والشاعر يدخل عمق هذه اللوحة عبر عينيها اللتين تطلقانه في المدى الحافل بالأسرار، وكما البحّار الذي يهتدي بالنجوم هو الشاعر يمضي في رحلته البعيدة في عيني أنثاه مهتدياً هو الآخر ومشدوداً إلى نجمته، يقول الشاعر في قصيدة (قناديل الشتاء):

ألمحُ شبّاكاً على البحر لم

يُرسَمْ ببالٍ، لم يُنَلْ باليدِ

ألمح عينيكِ، وإني أسيح

في المدى الملوّن الأبعدِ

أسيح مشدوداً إلى نجمة

على حدودِ يومنا والغدِ

ومن خلال العيون التي تنفتح كنوافذ على المدى، يرى الشاعر ذاته وهواجسه ويعي حقيقة نفسه، فهل من طمأنينة أكثر من أن تنظر إلى الكون عبر نافذة معبد، يقول الشاعر في قصيدة (أخت الزهرات):

وخطوك نقرةُ عودٍ حنون

وعيناكِ نافذتا معبدِ

والمعنى السابق يترسخ ويصبح أشدّ وضوحاً عندما يجد الشاعر في عيني تلك المرأة جناحين يحملانه إلى السماء حيث الطهر الذي يبحث عنه، يقول في قصيدة بعنوان (لي):

ليَ في ناظريك أجنحة تر

قى بروحي إلى سماء الطُّهر

فـأي مدى أضفاه الشاعـر على العيون عبر غزله الرقيق هذا، فهي المرفأ والناقلة، وهي المكان والزمــان، ومنها بداية الرحيل وإليهـا يـؤوب السفر، أليس مـن حقه بعد ذلك أن يهمس ولو مرة واحدة معترفاً بمدى السحـر الـذي تمارسه عيناهـا، ليقول في قصيدة (إلى سمراء):

فلِمَ الهجرُ أيا ساحرة العينين قولي، وهل الهجرُ يطولْ؟

ولأن الأخضر بفضائه الربيعي الساحر مـا زال يعتمل في صـدر الشاعر، فالعينان تظلان مرآتـه التي يرى من خلالها بساتين الطبيعة وزهورها، تلـك الرؤية التي يتمنى من خلالهـا إزالة عوائـق النفس والجسد ليتخلص من لحظات لا يودُّها ولا يريد لها أن تستمر، يقول الشاعر الزيبق في قصيدة (لا تسأليني):

ألا تـنـظـريـن؟ بساتينها

بعينيك، والماء ملء النهودْ!

لماذا العتاب؟ لماذا العتاب؟

إليَّ إليَّ نـفـكُّ الـقـيـودْ!

وفيها يقول أيضاً:

ونـام الـبـنـفـسـج ليلاتـه

على ناظريك بليلٍ بَرودْ

ويمضي الشاعـر في إيغاله عبر العيون ليقرأ أو يسمع فيها أغرودة حبّه بما يعتريها ومـا ينتابها خـلال تقلّب اللحظـات، فهو يتساءل في قصيدة (عتاب) قائلاً:

ما بعينيكِ؟ أنتِ أغـرودةُ

الحبِّ المدمّى، رفيقة الأهواءِ

وبعد ذلـك السـؤال، يحضـر السؤال الآخـر في قصيدة (إلى أيـن؟) ليخلص إلى رؤيـة تتلخص بالقدرة الفائقة التي تمتلكها هاتان العينان، والتي قد تبلغ حدّ الإعجاز، فيقول:

ومن ناهديك، ومن ناظريك

قد اقتطع الجنُّ أجملَ مرمرْ

وتتنامـى في قصائـد الشاعـر صورة العيـون الفاعلة التي تمتلك زمـام المبادرة فهـي التي تمنح إذنـاً للحياة كي تمضي في شرايين الشاعر عـبر همستها البديعة، فهو القائل في قصيدة (إلى شاعرة):

أيّ وعدٍ يضلّ متْحفَ ظنّ

مستريحٍ على دروبِ ذهولي!

همستهُ عيناكِ..فاعذوذبت دنيا

من الصحو في حنين حقولي

وفي قصيدة (رسالة) تبقى العيون آمرة، رغم استخدام الفعل الناقص (كان) الدال على لحظة ماضية، إنما الأسف والندم المتمثل بقوله (وا ضيعة) يجعلنا نقرّ بأن تلك العيون تملك زمام الأمر وتحتفظ بحقها في التأثير وقت تشاء، يقول الشاعر:

وا ضيعة الوعد الذي كان بعينينا ابتهال!!

وهذا الأمر يجعل الشاعر في مضيق غامض أمام عينين على الأرجح زرقاوين وهذا ثاني ظهور للون في قصائد الشاعر بعد اللون الأخضر الذي تعامل معه بكل أريحية ومودة، إنما الأمر يختلف الآن فمفردة جليد التي ترد في البيت مرتين تقلب المفاهيم على رأس الشاعر ليقف شبه مرتعد أمام عينيها اللتين يصفهما في قصيدته (عودة) بقوله:

أجليدٌ أزرق شفّافة صخ

راته، عيناك.. يا حُلمَ الجليدْ؟

وغير ذلك، فالعيون ما تلبث أن تظهر بثوب مغاير، فهي منفعلة غير فاعلة، وعاجزة لا تمتلك زمام المبادرة، وهذا التناقض يغني المشهد الذي تحتكر بطولته العيون فهي ذات صفات ومواصفات متباينة وواسعة التنوع، وهذا يمنح الشاعر فرصة ليجد لذاته وأناه موضعاً ينفذ من خلاله إلى تلك العيون، يقول الشاعر الزيبق في قصيدة له بعنوان (في الطريق):

أصنعُ من عينيكِ خمّارة

صغيرة في قلبيَ الأطهرِ

ويقول في قصيدته (يحلو لك الرقص):

دوّرتُ نهديكِ، وعطّرتُ

جفنيكِ، وغنيتكِ كي تحلمي

وهذا البيت الأخير من حيث دلالته وحرفيته، لا يخرجنا عن دائرة قصائد الشاعر نزار قباني (ت: ١٩٩٨م)، الذي يقول في إحداها:

وأنا الذي أنقذتُ نهدكِ من تسكّعِه

لأجعلَهُ أميرا

وأدرتُهُ.. لولا يدايَ.. أكان نهدكِ مُستديرا؟

وكما امتلكت العيون كل هذا الرحيل، سواء الموشّى بأزاهير الطمأنينة أم بأبواق الصخب، يتوقف الشاعر عند العيون الصامتة، الساكنة، الهادئة، تلك التي تملك سحرها الخاص، شغبها الخاص، الذي لا يجد الشاعر أمامه إلا أن يقول في قصيدة (لا أحبّ المرأة العارية):

لوّنتِ عينيَّ بهذا الغموض

الحلو يا صديقتي الغاليه

ذلك الغموض الذي تذوق الشاعر طعمه

الحلو، وعاش في مدارات بهائه، يرى أنه أكبر من أن يغتصب، فلتستمر تلك المرأة بصمتها، ولتحتفظ بما تخفيه عيناها:

ماذا تودين؟ بعينيك أخبارٌ
بعينيك دُنى خافيه
لا لا تبوحي.. فأنا لا أحبُّ
لا أحبُّ المرأة العارية

وهذا المعنى الأخير الذي دأب الشاعر وسعى للاحتفاظ به بصفته كنزه الغالي الذي يترك لديه رغبة حيّة في الاكتشاف، هو ذاته الذي جعله يعبر عن توقه لإبقاء هذا المجهول مجهولاً، وذلك في قصيدة (لا تتكلمي): ص١١٠، من خلال غزل غير مباشر بحالات مجردة حلمية ورومانسية، لا يريد في نهايتها لخياله أن يخترق على مفردات كلامها الذي يتراءى له خلف نظراتها الفاتنة، يقول الشاعر:

وما بعينيك؟ ويا فتنتي
عني اكتمي، عني اكتميه الخبرْ
لا تتكلّمي.. فإنّ العبير
غامضاً يثير أحلى الفِكَرْ
دعي خيالي سارحاً في المدى
الملوَّن المغرِّد المُبتكر
ليلتنا هذي، وهل بَعْدها
هل بعدها من أمل يُنتَظَرْ؟
وما بعينيك؟ أنا شاعرٌ
ولا أحبُّ أن أطيلَ النظر

وأخيراً، فالشاعر علي الزيبق الذي قاده الغزل إلى عيني أنثاه، وأدناه منهما الشوق، لم يتوقف في مساحة العيون كما عرفها من سبقه من الشعراء، فلقد وجد متسعاً من الزمان والمكان فيهما، فكانتا مبتداه ومنتهاه، سمع نغمهما، ولمس حريرهما، وتنشق طيبهما، وغاب فيهما عن الوجود ليوغل في عوالم الحلم والأمل، وليتلمس خلال ذلك غده الآتي، وعرج على مساحة الصمت الباهرة ليحطّ رحاله فيها تاركاً لخياله سانحة من المضي في بحثه عن مفاتيح لمغاليق تلك الأنثى التي اختصرت أبعاداً شتى في عينيها اللتين طالما سحرتا الشاعر العربي منذ فجر الحركة الشعرية إلى يومنا هذا.

المصادر والمراجع

١- علي الزيبق، النبعة اليتيمة شعر، مطبعة الأصيل، حلب ١٩٥٩م.
٢- علي الزيبق، شلحة ناي، شعر، مطابع جورج أبو عكر، المكتب التجاري، بيروت ١٩٧٠م.
٣- نزار قباني، أحلى قصائدي شعر، منشورات نزار قباني، ط١٦: بيروت ١٩٩٢م، ص٩٤.

رسائل في الخط العربي
-التوحيدي أنموذجاً-

عيد الدرويش ✿



عندما نمتح من معين الماضي، وما يسمى بمجمله التراث، يشدنا لذلك أمران الأول: هو معرفة أسلافنا وما تركوا لنا من إرث كبير في مجالات متعددة ومتنوعة، وهذا التراث يعتبر أساساً ومكوناً لتطورنا.

أما الأمر الثاني: نقتفي من خلاله سبل هدايتنا، كما نستدل على ضرورة ذلك الفكر، وفي الوقت ذاته يعطينا صورة عن تفكير تلك المجتمعات في سالف الزمان، ومنه يتحدد ذلك التطور الذي لا غنى عنه لكل شعب يريد أن يفتح به أبواب المستقبل، فلا حاضر لشعب من دون الارتباط بالماضي وتراثه.

ولقد بقي الأثر الأهم فيما تركه الأسلاف هو الكتابة التي دونت كل أفعال

✿ باحث وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الماضي وآثار الشعوب، ففي الكتابة والقلم تتوضح مفردات الحضارات.

قال ابن التوأم (خط القلم يقرأ في كل مكان، وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان، ولا يعمُّ الناس بالبيان، ولولا الكتابة لاختلفت أخبار الماضين، وانقطعت أنباء الغابرين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضي والغابر بعدك، فصار نفعه أعم، والدواوين إليه أفقر، والملك المقيم بواسطة بلاده، لا يدرك مصالح أطرافه، وسد ثغوره وتقويم مملكته، إلا بالكتاب، ولولا الكتاب لما استقر التدبير، ولا استقامت الأمور).[1]

وقال علي بن عبيدة: القلم أصم ولكنه يسمع النجوى، وأبكم ولكنه يفصح عن النجوى، وهو أعيا من باقل ولكنه أفصح، وأبلغ من سحبان وائل، يترجم عن الشاهد ويخبر عن الغائب.

وقال جبل بن يزيد: القلم لسان البصير يناجيه بما استتر من الأسماع، ويناغيه بما استتار من الطباع، ويحدثه بما حدث وإن كان في البقاع.

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان(القلم شجر ثمرته اللفظ والفكر، وبحر لؤلؤه الحكمة والبلاغة، ومنهل فيه ري العقول الظامئة، والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة)[2].

وقال ابن المقفع:القلم بريد العلم يخبر بالخير، ويجلي مستور النظر، ويشحذ كليل الفكر، ويجتني من مشقة ثمرة الغِيَر والعِبَر.

وقال بشر بن المعتمر: القلب معدن، والعقل جوهر واللسان مستنبط، والقلم صائغ، والخط صيغة.

وقال سهل بن هارون: القلم أنف الضمير، إذا رعف أعلن أسراره وأبان آثاره وأشاع أخباره.

أما تيتوس بوركهارت أشار إلى الأهمية الفنية للخط العربي فأعتبره (أيقونة العرب والمسلمين)[3] وهناك صياغة بلاغية لذلك الإعرابي، واصفاً الدواة والقلم والكتاب (الدواة منهل، والقلم وارد، والكتاب عَطنٌ)[4].

كما لم يكن بعيداً عن متناول خلفاء بني أمية فقال المأمون: الخط روضة العلم، وقلب الفهم، وفن الحكمة، وديباجة البيان، وقال إبراهيم بن جبلة مربّي عبد الحميد الكاتب، وأنا أخط خطاً ردیئاً، فقال: أتحب

أن يجود خطك قلت:نعم، قال: قلمك أطل جلفته، وأعد قطته، ففعلت فجاد خطي، ونظر جعفر بن يحيى إلى خط حسن فقال: لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم)[٥].

وقال الحكيم الرباني (قيام الحكمة بالقلم، وأشرف الصنائع وأدقها، وألزمها وأحقها، صناعة الكتابة بالقلم، لأن مدار الضبط والربط في كل الأمور عليها، ولولا هذه الصناعة الحكمية لتعطلت الأعمال والأفعال كلها، حكمة بالغة، فهي أقوم الأفعال والأعمال في هذه الهيئة الاجتماعية، فسبحان المبدع البديع لا رب غيره)[٦].

وتنوعت اللغات كما تنوعت الخطوط وأدواتها وأشكالها ومفاهيمها ودلالاتها وفنونها، وإن كل المعطيات التراثية تشير إلى أن الخط العربي، قد شغل حيزاً كبيراً في مفردات ذلك التراث، وتناوله الكثيرون من متذوقي الفنون في العالم، وازداد إعجابهم به يوماً بعد يوم، ولم يستطيعوا مجاراته مهما أوتوا من قوة، وبعد أن أصبح الخط العربي من أرقى الفنون وأصفاها، مما حدا بالفنان العالمي بيكاسو إلى القول: «إن أقصى نقطة أردت الوصول إليها في فن التصوير، وجدت الخط الإسلامي قد سبقني إليها منذ أمد بعيد».

وقد كثرت الآراء في هذا المجال من حكماء وفلاسفة ومحدثين ونقاد، والخوض في غمار هذا الفن الإسلامي العريق، والبحث في تاريخ الكتابة العربية وتطورها، وقد قيل: (إن أول من اخترعه وألف حروفه ستة أشخاص من طسم كانوا نزلاء عند عدنان بن أدد وكانت أسماؤهم، أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، فوضعوا الكتابة على أسمائهم ألحقوها بها وسموها بالروادف وهي الثاء والخاء والذال والظاء والعين والضاد)[٧].

كما يروي غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» (للخط العربي شأن كبير في الزخرفة فهو انسجام عجيب مع النقوش العربية، ولم نجد في الزخرفة حتى القرن التاسع الميلادي غير الخط الكوفي ومشتقاته كالقيرواني والكوفي القائم الزوايا، وأكثر هذه الكتابات استعمالاً هو السطر الأول من القرآن الكريم، وهو «بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كل بلد خفقت فوقه راية الرسول (صلى الله عليه وسلم) تحول بسرعة، فازدهرت فيه العلوم

والفنون والآداب والصناعة والزراعة أيما ازدهار)[٨].

وبعض الآراء ترى أن يكون مصدر الخط العربي، هو الخط الكوفي، ومنه استنبطت وتفرعت بقية أنواع الخط العربي (والخط العربي هو المعروف الآن بالكوفي منه استنبطت الأقلام التي هي الآن، وقال بعض العلماء، الخط كالروح في الجسد، وإذا كان الإنسان جسماً حسن الهيئة، يكون في العيون أعظم، وأفخم في النفوس، ومحبة في القلوب)[٩].

- ومهما يكن من أمر ويقر به الكثير من الكتّاب والباحثين من أمم وشعوب مختلفة للإدلاء بآرائهم عن الفنون وعلم الجمال، ويبقى الخط العربي صيغة متفردة في سفر الفنون، ومنهم أرنولد توينبي حيث يقول: (لقد انطلق الخط العربي الذي كتب به القرآن غازياً ومعلماً مع الجيوش الفاتحة إلى الممالك المجاورة والبعيدة وأينما حل أباد خطوط الأمم المغلوبة)[١٠].

ويضيف الفيلسوف روجيه غارودي (إن الفن الإسلامي كالعلم الإسلامي والحياة الاجتماعية والفلسفية الإسلامية التي لا يمكن فهمها إلا من خلال مبدئها الأساسي وهو العقيدة الإسلامية، ويقول روم لاندو في كتابه «الإسلام والعرب» حُرم على المسلمين الاهتمام بالفن التشبيهي ومن خلال هذا السعي أحدثوا فناً يستطيع أن يدعي بصرف النظر عن محاسنه أو نقائصه الأخرى أنه واحد من أصفى الفنون التي نعرفها)[١١].

ويرى مصطفى السباعي الحسيني في رسالته اليقين (لقد برع أهل هذه الصناعة قديماً وحديثاً، حيث وضعوا لكل نوع من هذه الصناعة القديمة قاعدة، وربطوا بها محاسن الكتابة، وعينوا لكل حرف من حروف الكتابة الموصولة والمفردة، ميزاناً يعلم به الحسَنُ من القبيح، فحيث اختل وزن الحرف ظهر قبحه، فجزاهم الله أحسن الجزاء)[١٢].

والكتابة لازمت كل الشعوب القديمة وقد تباينت أشكالها وألوانها وصيغها وأدواتها، أما في العصر الإسلامي، فقد بدأت رحلة الخط العربي منذ كتابة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وخرجت الكتابة العربية مع الفتوحات الإسلامية، أينما وصلوا وحيثما حلّوا، ومن خلال تجارتهم مع شعوب البلدان المجاورة لهم، فانتشرت فيما بينهم حتى سميت الخطوط

بتسميات الأمكنة والأقاليم والبلدان مثل المكي والمدني والمغربي والكوفي والبصري والواسطي والحيري والمصري والأنباري والقيرواني والقرطبي والشامي، فضلاً عن أنه كانت هناك جاليات دينية تهتم بكتابة الأثر الديني، وتداول تلك الكتب مما دعا أولئك الكتّاب ممن كتبوا في هذا الشأن لتدوين العديد من الكتب والرسائل في الخط والكتابة، ومنها ميزان الخط لابن مقلة ورسالة القلم للجاحظ، وكتاب الإكليل للهمذاني، وأدب الكتابة للصولي، ورسالة في علم الكتابة لأبي حيان التوحيدي، والقصيدة الرائية وفيها قواعد الخط لأبي الحسن علي، وحكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق لمرتضى الحسيني، وكتاب طبقات الخطاطين للسيوطي وجامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي الأبصار والألباب لمحمد حسن الطيبي والعمدة في الخط العربي للشيخ عبد الله السهيني، وتحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب لابن الصايغ، وغيرهم......

– والخط لم ينل عند أمة من الأمم، ومهما كانت تبلغ شأواً من الحضارة ما ناله الخط لدى المسلمين حيث تفننوا في أنواعه وأشكاله ووصفه وتعبيره، واعتبر وسيلة من وسائل المعرفة، كما اعتبر من أهم الفنون التي ظهرت على وجه الأرض، بما يضفي المهابة والجلالة، ففي ذلك الوصف للخط العربي كلما كان الخط مفتوح العيون، أملس المتون كثير الائتلاف قليل الاختلاف، هشت إليه النفوس واشتهته الأرواح، حتى الإنسان ليقرأه، ولو كان فيه كلام رديء، يقول أراغون (لا يبقى على الفنان إلا أن يتنحى بألوانه أمام الكتابة، تزحف من اليمين إلى اليسار على جباه النوافذ، أو على تواريق العماد، حيث يخط القلم على البياض حرفاً فاحماً أسود شبيهاً بكوكبة فرسان في عباب الصحراء، وثاب الرشاقة كسيوف مسلولة كل حرف).(١٣)

وعن أصول الكتابة سأل الصولي بعض الكتّاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة؟ فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، واستقامت سطوره، وضاهى صعوده حدوره، وتفتحت عيونه، ولم تشتبه راؤه ونونه، وأشرق قرطاسه وأظلمت أنفاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع إلى العيون تصوره، وإلى القلوب تثمره، وقدرت فصوله، وأدمجت أصوله، وتناسب

دقيقه وجليله، وتساوت أطنابه، واستدارت أهدابه، وصغرت نواجذه وانفتحت محاجره، وخرج عن نمط الوراقين، وبعد عن تصنيع المحررين، وخيل إليك أنه متحرك وهو ساكن الأطناب).(١٤)

وتطرقت الناقدة الألمانية سيغريد كالا في هذا المجال (لعلني لا أغالي كثيراً، فمن جميع ما شاهدته لم أجد نتاجاً يفصح عن مصدره العربي وينطق به، إلا ذلك الإنتاج الذي يتصل باللغة، أي الذي يتخذ من فن الخط العربي، والحروف العربية مادة له).(١٥)

ويتطرق أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة استانبول، المستشرق ريتر (إن الكتابة العربية أسهل كتابات الدنيا وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل، وتوضيح الواضح).(١٦)

ويقول الرسام الإيطالي الشهير أندريو لوتي (إن الخط العربي كسيمفونية متناسقة الأنغام تتجدد كلما نظرت إليها).(١٧)

وعن كيفية البري والكتابة وجماليات الخط قد وضعت معايير ومقاييس محددة له شريطة أن يكون في أصلب حالة (البري يشتمل على أربعة معان، فتح وشق ونحت وقط، أما الفتح فتكون في القلب الصلب أكثر تقعيراً وفي الرخو أقل وفي المعتدل بينهما، وأما النحت فنوعان تحت حواشيه، ونحت في بطنه، ونحت حواشيه «فيجب أن يكون متساويا من جهة الشقين» ولا يحيف على أحد الشقين فيضعف سنه، وتكون شحمة القلم في بطنه متساويا، وأن يكون الشق متوسطاً لجلفة القلم).(١٨)

- رسالة عبد الحميد الكاتب في الكتابة:

وعبد الحميد بن يحيى، كاتب مروان بن محمد الأموي، لما فيه من حكم:

«أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرّفهم في صُنوف الصناعات وضُروب المُحاولات إلى أسباب مَعاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجَعلكم مَعشر الكتّاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة مَحاسنها، وتستقيم أمورها، وبنُصحائكم يصلح الله للخلق سُلطانهم،

وتعمُـــر بلدانهم. لا يستغني المُلك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكـم. فموقعكم من الملوك موقع أسْماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. فأمتعَكُم الله بما خصّكـم من فضل صِناعتكم، ولا نزَعَ عنكم ما أضْفاه من النعمة عليكم».

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيها الكتاب، إذا كنتـم على ما يأتـــي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الـــذي يثق به في مهمات أموره أن يكـــون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضـــع الحُكم، مُقدمـــاً في موضع الإقدام، محجماً في موضـــع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بمـــا يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارئ في أماكنها، قد نظَرَ في كل فـــن من فنون العلـــم فأحْكمَه، وإن لم يُحكِمـــه أخذ منه بمقـــدار ما يكتفي به، يَعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته.

«فتنافسوا، يا مَعشر الكتّاب، في صُنوف الآداب، وتفقّهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عـــزّ وجل والفرائض ثـــم العَربية فإنها ثِقافُ ألسنتكم، ثم أجيدوا الخَط، فإنه حُلية كتبكـــم، وارووا الأشعـــار، واعرفوا غريبها، ومعانيهـــا وأيام العرب والعجـــم وأحاديثها وسيرها، فـــإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هِمَمُكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قِوامُ كتّـــاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المَطامع سَنيّها ودَنيها، وسَفسَاف الأمور ومَحاقرها، فإنهـــا مذلةٌ للرقـــاب، مَفسدةٌ للكتّـــاب، ونزهـــوا صِناعتكم عـــن الدناءة، واربـــأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابّـــوا في الله عـــز وجـــل في صناعتكم وتواصوْا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضْل والعدل والنُبل من سَلفكم».

«وإذا وليَ الرجُـــل منكم أو صُيّر إليه من أمـــر خلق الله وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعتـــه وليكن على الضعيف رفيقـــاً، وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال الله وأحبهـــم إليه أرفقهـــم بعياله ثم ليكن

بالعدل حاكماً، وللأشراف مكرماً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً، وللرعية متألفاً، وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً، وإذا صَحِبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه فإذا عرف حُسنها وقبحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطفِ حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوباً اتقاها من بين يديها، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها، فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم». والكاتب بفضل أدبه وشَريف صَنعته ولطيفَ حيلته ومُعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يصيّرها إليه صاحبها الراكب عليها.

«ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر، واعملوا ما أمكنكم فيه من الرواية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبْوَة والاستثقال والجَفوة، ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله، ولا يُجاوِزَن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خَدَمَة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تُحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عَفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متالفَ السّرف وسوءَ عاقبة الترف فإنهما يُعقبان الفقر ويُذلان الرقاب ويفضحان أهلهما، ولاسيّما الكتابُ وأرباب الآداب وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته، فليقصِدُ الرجل منكم

في مجلسه قصد الكافي من منطقه، وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف».

«ولا يقل أحد منكم إنه أبْصرُ بالأمور وأحْمَل لعبء التدبير من مُرافقه في صناعته ومُصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رَمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأى أنّ أصْحابه أعقل منه وأحْمَدَ في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه، ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته». وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل مَنْ تُلزِمُه النصيحة يَلزَمُه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتتمته به تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده.

التوحيدي ورسالة الخط العربي:

- يعتبر التوحيدي من الشخصيات الفكرية التي عاشت في العصر العباسي، وتتردد الروايات حول أصله، وكذلك نسبته التي أخذت جدالاً كبيراً، فمنهم من يرى أنه سمي بالتوحيدي نسبة إلى مهنة والده الذي كان يبيع نوعاً من التمر يسمى التوحيد، مستندين إلى قول المتنبي:

يترشّفن منْ فمي رشفات
هنّ فيه أحلى من التوحيد

وفريق آخر يرى أن ما كان يرمي إليه المتنبي التوحيد هو قول لا إله إلا الله، ومنهم من يقول إنه من الذين اتجهوا إلى عقيدة أهل العدل والتوحيد، الذين عرفوا بالمعتزلة، ولكننا في موضوع آخر نرى إن التوحيدي يهاجم المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة، مهاجمة عنيفة، وقال عنهم لم أرَ متكلماً مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه

خوفا، أو أقلع عن كبيرة رغبة، يتناظرون مستهزئين، ويتحاسدون متعصبين، ويتلاقون متخادعين، ويصنفون متحاملين، جدّ الله عروقهم، واستأصل شأفتهم، وأراح العباد والبلاد منهم، ولم يكن هناك تاريخ محدد لولادته، ولا عن نشأته، ولا عن أصله، ولم تعرف نصف حياته الأولى، فقد نال من الشهرة، ولم يصل المؤرخون إلى دقيق تاريخها، وما وصلنا هو متضارب، ومع هذا فالمؤرخون يحددون بشكل تقريبي لما جاء في كتابه المقابسات مع تدوين كتابتها، فيقول في رسالته إلى القاضي أبي سهل، وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أوغدا، فإني في عشر التسعين، وهل بعد الكبرة والعجز، أمل في حياة لذيذة، وقد كتب هذه الرسالة سنة ٤٠٠هـ ١٠٠٩م.

كما يشير في كتابه المقابسات عن ذاته، وقد كتبه سنة ٣٦٠هـ٩٧١م وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة (سنة) وقد أضاع أكثرها، وقصر في باقيها، لتتقاطع كل المعلومات في ولادته(٣١٢هـ- ٩٢٤م) ولكن مكان ولادته تضاربت الأقوال، فقيل إنه ولد في نيسابور أو في شيراز في بلاد فارس، وقيل في واسط في جنوب العراق، وقيل في بغداد في باب السلام، وهذا ما يرجحه الكثيرون لما اشتهر عن أبيه من أنه قد امتهن بيع التمر فيها لم ينج التوحيدي من محاولات المغرضين الذين أرادوا النيل من أصله وطمس معالم انتسابه للعروبة شأنه شأن معظم نوابغ الفكر العربي الذين كثرت حولهم الأباطيل أما ياقوت المهدي يقول: (التوحيدي شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي).

كان يحفظ القرآن والشعر، ويتعلم الخط والحساب، وقد تعددت معارفه لتعدد أساتذته، وتنوع اختصاصاتهم، فشملت إلى مختلف معارف عصره من علوم اللغة، كالنحو والبيان والبلاغة، وصولاً إلى المباحث وعلم الكلام.

بعض الباحثين يرى بأنه شخصية غامضة ومليئة بالعقد، والمتناقضات الغريبة إلى جانب بؤسه، وقدرته الغنية على الإضحاك، من خلال النكت، وبصيغ لاذعة وأجوبة مضحكة، كما حباه الله أسلوباً أدبياً فريداً، ومتميزاً بين أدباء العربية، وعرف بمناظراته مع العلماء والباحثين والفلاسفة على اختلاف اختصاصاتهم، ومهما كان الحديث عن التوحيدي يظل الكثير من

المعلومات غائبة عن الذاكرة، وخاصة خلال الخمسين عاماً الأولى، وقيل عنه (أول عربي يضع علم الجمال العربي) وكان فناناً مبدعاً حقيقياً، مارس أكثر من عمل فني، فكان فناناً أصيلاً لا يعجز الاضطلاع بأكثر الحقائق الفلسفية دقة، فناناً يؤمن بأن فنه قادر على أن يمسح كل شيء بصبغته، ورف رفيف الجمال على الحقائق الجافية والأفكار المعقدة.

يعد التوحيدي أوّل من كتب في فن الخط العربي مبيناً قواعده وشروطه وأنواعه منها رسالته في الخط العربي، فهي رسالة فريدة من نوعها في اللغة العربية، ويؤكدها بروكلمان، وتوجد نسخة منها في فيينا.

ويروي التوحيدي في رسالته للكتابة العربية والخط (كنت أطال الله بقاءك وأدام الله سرورك يوماً من الأيام عند بعض الرؤساء، وجرى كلام طيب في نعت الخط، وشرح أقسامه، وتفصيل فنونه، ووصف مذاهب أصحابه من أهل العراق وغيرهم، وكان هذا الرئيس ذا خط معجز المحرر عندنا ببغداد، وكان مبرزاً في صناعته وارثاً من أبيه وعمه والعراق إذا وشج على شيء من الفضائل والرذائل أتى بالضرائب، وأوفى بالعجائب، ووصلت ذلك بما كنت سمعته من الأفاضل وأصحاب الأقلام البارعة، وأرباب الخطوط اليافعة مما التقطته أيدي الأقلام من ترتيب الحروف على أحسن نظام من رقة اللطافة، ودقة الظرافة ممن تقدموا، وكانت العبرة في زمانهم بتعيين قواعد الخط الكوفي بأنواعه ١٢ قاعدة).

ومن أنواع الخط العربي (الإسماعيلي، المكي، والمدني، والأندلسي، والشامي، والعراقي، والعباسي، والبغدادي، والمشعب، والريحاني، والمجرد، والمصري، فهذه الخطوط العربية التي كان منها ما هو مستعمل قديماً، ومنها قريبة الحدوث، وأما الطرائق المستنبطة، فهي مروية عن الصحابة حتى اتصلت بابن مقلة، وياقوت المستعصمي وغيرهم، وهم تفننوا فيها بحسب اجتهادهم)[١٩].

تشير الدراسات إلى أن التوحيدي هو أول عربي قد وضع أسس علم الجمال وفلسفته، من خلال تجربته الثرة والغنية لما أحاط بعلوم كثيرة ومعرفة غزيرة جعلت منه نابغة عصره، ومحققاً في الكلام، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، وعمدة لبني ساسان، وإمام البلغاء، سخيف اللسان قليل الرضا

عند الإساءة إليه، والذم شأنه، والثلب دكانه، لم يهدأ له بال، عاش قلقاً، وهذا غيض من فيض من مكونات شخصيته.

فالجمال عند التوحيدي يستمد من جمال الله عز وجل فهو الجمال المطلق، وهو واهب الجمال، وهو سبب كل جمال وحسن، فالله هو مصدر الموجودات، ومصدر كل جمال ومنه تستمد النفس البشرية جمالها، وهو جمال ثابت غير متغير ويتوصل إليه بالعقل المجرد المستنير بالعلة الأولى.

وبهذه النظرة نجد أن التوحيدي يرفض نظرية الفن للفن، وفي مواضع كثيرة نجد التوحيدي يتجاوز ذلك بأن يقول بأن العمل الفني هو فوق العلم، وأكثر من هذا ليؤكد على أن العلم يحتاج إلى فن (وأما قولك الصناعتين هزل والأخرى جد، فبئس ما سولت لك نفسك عن البلاغة، هي الجد وهي الجامعة لثمرات العقل، لأنها تحق الحق وتبطل الباطل، على ما يجب أن يكون الأمر عليه).

ويتطرق التوحيدي إلى المسألة الفنية من حيث الوظيفة فيقول (يرتبط الجمال بالخير والمنفعة الوظيفية، ومن ثم الجمال الفني لديه بأن الإنسان يحاول محاكاة الطبيعة في الأعمال الفنية، ويعتبر من منظري علم الجمال، ومن المؤسسين لنظرية المحاكاة، وربما قد تأثر بأرسطو.

فالتوحيدي لم يعرف له موطن ولادة، فيقال أنه نيسابوري، وقيل شيرازي، وفي موضع آخر أنه واسطي.

إن اشتغال التوحيدي في علوم كثيرة، خلقت منه عبقرية ونبوغاً فريداً، فقد عاش في عصر فيه الثورات لا تهدأ، وفتن لا تنام واضطراب دائم، وتعددت الأحقاد وتنوعت، ولكنه كان عصر النضوج الفكري والثقافي والعلمي، كما عرف عنه في بداية حياته أنه كان نساخاً ووراقاً، فقد استفاد من مهنته هذه أعظم استفادة، فقد جوَّد في يده الفنانة الكثير من المخطوطات، والتي لا حصر لها، وأيضاً مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة كانت بخطه الجميل، ويتفرد التوحيدي في مخطوطته لعلم الخطوط العربية ومزاياها جمعها في رسالة «علم الكتابة العربية» ووضع فيها أسس ومعايير ورسوم وقواعد الخطوط التي استقاها من خلال خبرته الواسعة المعرفة.

وإذا كان هناك الكثير ممن سبقه إلى هذا الجانب، فهو يتفرد عليهم بأنه قد

جمع مادة علمية في أسس علم الجمال، كما يربط التوحيدي فن الخط وطريقته بفن الموسيقى والرسم والرقص وغير ذلك من الفنون، لأنها من منبع واحد، ولكن تعددت في أحاسيس مختلفة، وأبدعت جمالها من خلال تلك الحواس التي ظهرت فيها، فهو يقر بأن الفنون ذات جذر واحد، وإن اختلفت صياغتها سواء كان ذلك في صوغ كلمة، أو صوغ لحن، أو تسطير قلم.

وقد قيل في الخط العربي الكثير من الكلام من المعاني والجمل، التي تعطي صورة جمالية للخط العربي، من الكتّاب وأهل العلم والحكماء، ومنها: القلم لسان البصر ومطية الفكر، وبالقلم تزف بنات القول إلى خدور الكتب، وقال العقابي: ببكاء الأقلام تضحك الصحف، وقال ابن حماد القلم للكاتب كالسيف للشجاع، وقال الضحاك بن عجلان: يامن تعاطى الكتابة أجمع عند ضربك بالقلم، فإنما هو عقلك تظهره، والقلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان «فالكتابة وسيلة للتخاطب بين الناس والقلم وسيلة لحفظ التراث على مر العصور».

خصائص جمال الخط عند التوحيدي:

والكاتب يحتاج إلى سبعة معان الخط المجرد بالتحقيق، والمُحلى بالتحديق، والمجمل بالتحويق، والمزين بالتخريق، والمحسن بالتشقيق، والمجاد بالتدقيق والمميز بالتفريق فهذه أصوله وقواعده المتضمنة لفنونه وفروعه، وكل قلم يظهر له العمل على قدره والورد كفاء صدره إن شاء الله.

أما المجرد بالتحقيق، فإبانة الحروف كلها منثورها ومنظومها، مفصلها وموصولها، بمداتها وقصراتها وتفريجاتها وتعويجاتها، حتى تراها تبتسم عن ثغور مفلجة، أو تضحك عن رياض مدبجة، فهذا ما يعم الحروف كلها عماء.

وأما المراد بالتحديق، فإقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبييض أوساطها محفوظة عليها من تحتها وفوقها وأطرافها أكانت مخلوطة بغيرها، أو بارزة عنها حتى تكون كالأحداق المفتحة.

وأما المراد بالتحويق فإدارة الواوات والفاءات والقافات، وما أشبهها مصدرة وموسطة ومذنبة بما يكسبها حلاوة ويزيدها طلاوة.

وأمــا المــراد بالتخريق فتفتيــح وجوه الهــاء والعين والغــين، ومــا أشبهها كيفما وقعت أفراداً وأزواجاً بما يساوي دلّ الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها.

وأما المراد بالتعريق فإبراز النون والياء، وما أشبهها ممــا يقع في إعجاز الكلمة مثل من وعــن وفي ومتى وإلى وعلــى بما يكون كالمنسوج على منوال واحد.

وأمــا المــراد بالتشقيق فتكنــف الصاد والضاد والــكاف والطاء والضاء، وما أشبه ذلك ممــا يحفظ عليها التناسب والتساوي، فإن الشكل بهما يصح، ومعهما يحلو، والخط في الجملة، كما قيل هندســة روحانية بآلة جسمانية.

وأما المــراد بالتوفيق فحفظ الاستقامة في السطور من أوائلها وأوساطها وأواخرها وأسافلهــا وأعاليهــا بما يفيدهــا وفاقاً لا خلافاً.

وأما المــراد بالتدقيق فتحديــد أذناب الحروف بإرسال اليــد واعتمال: سن القلم وإدارتــه مرة بصــدره ومرة بسنيــه، ومرة باتكاء ومــرة بإرخاء بما يضيف إليها بهجة ونوراً ورونقاً وشذوراً.

أما المــراد بالتفريق فحظ الحروف من مزاحمة بعضهــا لبعض وملابسة أول منها لآخر ليكون كل حرف منها مفارقاً لصاحبه بالبدن مجامعاً بالشكل الأحسن، فهذه جملة كافيــة متى كان طبع الكاتــب مؤاتياً وفعله مواطئاً وقريحته عذبة وطينته وطئة.

وسمعــت الأعسر الخطــاط أبا الحسن يقول: الخط أربعة أقسام فالأول هو المحقق بالقلم الغليظ والوســط والدقيق محرفاً أو مقومــاً ثم الشبيه فيهما قــال: فاجتهد ألا يكــون الغليظ من الأقلام جافياً ولا الوسط منها منافياً، ولا الدقيق منها ضعيفاً.

- من مبــادئ الخط: وقال المدرس بباب الطاق يومــاً لابن الخلال الــوراق: يا هذا إذا حرفت القلم فلا تثقل عليه يدك، وإذا قومتها فــلا تخففها عنه، وعيب خطك مع حلاوته أن شحمة قلمك زائدة على الحاجة، ولك فيه خطرفةٌ تدل على قلة المبالاة، فلا تفعل فــإن سطراً من التحسين أنفع لك من عشر ورقات في التشمير، وسَمِعتهُ يقول يوماً أيضاً: الخط بالحبر في الجملة مفسدة.

وسمعت ابن سورين الكاتب يقول: «الناس يظنون أن المشق مجود للخط، فلم أجد هذا الحكم منتظماً بالصــواب، ولا مطمئناً إلى الحق، ولا ملقى بالقبول، لأن الإدمان للمشق

موالاة الحركة بالحركة مع تفاوت النسب، وذلك مجلبة للشعث، لأنه يصدر عن كلالة اليد، وربما أورث القلم طغياناً، أو أحدث للأداة عصياناً.

ويقول الخليفة عمر بن الخطاب: شر الكلام الهذرمة، وشر الكتابة المشق.

وسمعت علي بن جعفر الكاتب الطائع، وكان حَسَنَ الخط يغلب عليه التدوير يقول: لاشيء أنفع للخطاط من أن لا يباشر شيئاً بيده في رفع ووضع، خاصة إذا كان الشيء ثقيلاً، فإن الحركات إذا تمثلت بالحروف، والحروف إذا اندفعت بالحركات كانت الصورة الخطية، والحروف الشكلية محفوظة الأعيان بامتلائها بها محروسة الأبدان بانتسابها إليها.

قال: ولقد رفعت يدي بسوطي إلى الدابة مراراً في بعض الأيام وقنعتها به فتغير خطها مدة.

فحكيت ذلك لأبي سليمان فقال لله دره لكأنما اشتق هذا الوصف من الموسيقار لأنه يزن الحركات المختلفة في الموسيقى، فتارة يخلط الثقيلة بالخفيفة، وتارة يجرد الخفيفة من الثقيلة، وتارة إحداهما على صاحبتها بزيادة نقرة أو نقصان نقرة، ويمر في أثناء الصناعة بألطف ما يجد من الحس في الحس، واللطيف الحس متصل بالنفس اللطيفة، كما أن كثيف النفس متصل بكثيف الحس، وكان كلامها أبلغ من هذا، ولكن له موضع هو أولى به.

وسمعت أبا إسحاق الصَّابي يقول ما حررت كتاباً قط عقيب التسويد، إلا ورأيت التنافر في خطي والتطاير من قلمي والتثاقل في يدي فأما إذا جممت بعده جمةً أو نمت بعده نومة فأنا على صواب ما أريد منه جريء ومن الخطا بريء، وسمعت ابن الزهري يقول: من حقق الحروف المفصلة تحقيقاً ثم وصل الاثنين بثالث ثم وصل الثالث بالرابع على هذا إلى آخر متصل بالكلمة، كقولهم فسيكفيكهم ويستنصرون، والاستعلام، والاستفهام، والاستقامة، والاستنامة وخجخج وجحجبا والاستنجاح، والجحاجحة، والصيادنة والصياقلة والصقالبة، والغطارفة، والطراخنة، البطارقة ووقف على المتماثلين مثل حططت وخططت وقططت، ونصص وحصص، وقصص واستنصح واستصحب وتكوكب واستنجح واستصلح واستقبح، واستشرح، وما أشبه هذا فإنه كثير رجوت له أن يبلغ من رسم الخط الذروة العالية.

قال الزهري: وملاك الأمر في الخط تقويم إعجاز الفطور، وتسوية هوادي الحروف التنسيق وقلة العجلة، وإظهار القدرة في عرض الاسترسال، وإرسال اليد في طي الاقتدار، وسمعت العسجدي يقول: للخط ديباجة متساوية، وأما وشيه فشكّله، وأما التماعه فمشاكلة بياضه لسواده بالتقدير، وأما حلاوته فافتراقه في اجتماعه، وسمعت المرزباني الكاتب البليغ يقول: الخط هندسة صعبة، وصناعة شاقة، لأنه إن كان حلواً كان ضعيفاً، وإن كان متيناً كان معسولاً، وإن كان جليلاً كان جافياً، وإن كان دقيقاً كان منتشراً، وإن كان مدوراً كان غليظاً، فليس يصح له شكل جامع لصفاته في الكبر والصغر إلا في الشاذ المستدر.

وسمعت ابن المشرف البغدادي يقول رأيت خط أحمد بن أبي خالد كاتب المأمون وكان ملك الروم يخرجه في يوم عيده في جملة زينته ويعرضه على العيون، فقال: وكانت ألفاته ولاماته على غاية الانتصاب والتقويم، ولم أجد في جميع حروف خطه عيباً إلا في الواوات الموصولة والياءات المفصولة قال: ورأيت خط إبراهيم بن العباس، وكان ضعيفاً جداً، ولكنه كان شديد الحلاوة قهاراً للعيون، قال: ورأيت خط ذي الرياستين وكان نهايةً، لكنه كان لا يكتب بالقلم الأوسط ولا الدقيق قال وليس لأهل المشرق ولا لأهل المغرب خط موصوف قال لنا أبو عبد الله بن الزنجي الكاتب ورأيته بأذربيجان يكتب لإبراهيم بن المرزبان السَّلار يقول أصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه أصحابنا بالعراق فقلت ما تقول في خط ابن مقلة قال ذاك بني فيه أفراغ الخط في يده كما أوحي إلى النحل في تسديس بُيُوته.

ورفع معبد بن فلان رقعة إلى عبد الله بن طاهر بخط قبيح، فوقع فيه أردنا قبول عذرك، فاقطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك، ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه، ويوضح الحجة، ويمكنه من درك البغية.

وتخاير غلامان في خطهما إلى سهل بن هارون فقال: لأحدهما أما أنت فخطك تبر مسبوك، وقال للآخر أما أنت فخطك وشيٌ محوك، تكافأتما إلى نهاية، وتوافيتما على غاية.

وقال إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه: ليكن قلمك صلباً بين الدِّقة والغلظ، ولا

تـبره عند عقدة، فإن فيه تعقيد الأمور، ولا تكتب بقلم ملتو، ولا ذي شق غير مستو، فإن أعوزك (افتقـرت إلى) الفارسي والبحري، واضطـررت إلى النّبطيّـة، فاختـر منها ما يضـرب إلى السمرة، واجعـل سكينك أحَدَّ مـن المُوسى، ولا تَبْر به غـير القلم، وتعهده بالإصـلاح، وليكن مقطـك أصلب الخشب لتخـرج القطة مستويـة، وأبـر قلمك إلى الاستواء لإشباع الحروف، وإذا أجللت فإلى التحريف، وأجوَدُ الخط أبينهُ وأجودُ القراءةِ أبينها.

قال سعيد بن حميد الكاتب الذي يقول «مـن أدب الكاتب أن يأخـذ القلم في أصلح أجزائـه، وأبعد ما يمكـن في موضع المداد فيه، ويعطيه من أرض القرطاس حظه، ولا يكتـب بالطرف الناقص مـن سنه، ويضعه على عيار قسطـه ويصوره بأحسن مقاديره حتـى لا يقع التمنـي لما دونــه، ولا يخطر بالبـال شأو مـا فوقه، ويعدلـه في شطره، ويشبهه مما يأتي من شكله، ويقرن الحرف بالحـرف، على قياس مـا مضى شرطه في تقريب مساحته، وبعـد مسافته، ولا يقطع الكلمة بحرف يفرده في غير سطره، ويسوي أضلاع خطـوط كتابته، ولا يحليه بما ليس مـن زيّه، ولا يمنعه ما هو له بحقه فتختلف حليته، وتفسد قسمتهُ».

نصيحة سليم الحـرّاني (عطروا دفاتر آدابكم بسواد الحـبر)[٢٠]، كما نظر العتابي إلى وراق يخـط فلم يرتضـ خطه فقال له (أغتفرْ رداءةَ خطك بسواد حبرك، فإن شدة القبح أولى بشدة السواد)[٢١].

وقال إبراهيم بن العباس الصولي (القلم ينطـق عن الساكـت، ويخبر عـن الباهت، ويترجـم عن القلوب، ويطلـع على الغيوب، ويشافـه على بعد الـدار، وتنائي المزار، لا تنقطع أخباره، ولا تدرس آثاره، ناطق ساكت، مقيـم مسافر، شاهد غائب، ناء حاضر، إذا استنهض بادر، وإن وعى أحضر، كتوم السِّرِّ مأمون الشّرّ)[٢٢].

وقال عبـد الحميـد: الأرضـ الملساء وحشةٌ، والروضة الزهراء بهجةٌ، فإذا نورت فقد انتهى حسنها، وكذلك الخط بلا نقط، ولا إعجام كالأرض الملساء، والمنقوط المعجم كالروضة المنورة.

وقال عبيد بن أبي رافع (كنت أكتب لعلي ابن أبي طالب كـرم الله وجهه فقال لي: يا

عبيد الله، ألق دواتك، وأطل سن قلمك، وفرّج بين سطورك، وقرمط حروفك، والزم الاستواء)[٣٣].

وقال إبراهيم بن العباس (من وهب له العقل في نفسه، والبلاغة في لسانه، والخط في يده، والسمت في هيئته، والحلاوة في شمائله، فقد نظمت المحاسن له نظماً، ونثرت عليه الفضائل نثراً، وبقي له عليه الشكر وأنّى له ذلك)[٣٤].

وقال عبيد الله بن الحسن العنبري(ما قرأت كتاباً بليغاً، إلا وأعشب فؤادي سروراً، ولا رأيت خطاً حسناً إلا وامتلأت عيني قروراً)[٣٥].

ونظر المتوكل إلى خط أحمد بن الخطيب فرآه رديئاً فقال: ما أقدر الله ما شاء: لقد جمع هذا الرجل فرق الخزي في جلدته، خبث الطبع، وسفه اللسان، وفساد العقيدة، وسوء المعاملة، وقبح الوجه، ورداءة الخط، إني أظن أن جليسه معه في بلوى، ومخوف عليه العدوى.

ورأيت أبا الوفاء المهندس يقول لابن سعدان: والله أيها الوزير إن خطك في الغاية، وإن بلاغتك في النهاية، فما الذي يدعو على الاستعانة بالصابي أبي إسحاق في مكاتبة ابن عباد؟

فقال: إن ابن عباد كثير التتبع للعيب، شديد الشماتة بالعاثر، وأنا أكره أن يرميني فيصمي ولا يشوي، ولأن أحصن عقلي وعرضي بترك اعتمال خطي ولفظي، أحبُّ إليّ من أن أصبر ملسوعاً بإبرته مكسوعاً بحضرته.

- وصفوة القول بأن الخط العربي قد شغل حيزاً كبيراً في مجال الفنون العالمية، لما فيه من تفرد وسحر في الشكل، وما يتضمنه من تراكيب قد تناولها الكثير من النقاد والكتاب لينهلوا من معينه الثر، ولم ينضب لغنى موروثه أولاً ولقدسية حروفه ثانياً، وتجليات معانيه، وموسيقى تكويناته، ومضامينه المتعددة، ومن هذا تعددت الدراسات والآراء والرسائل التي تعمل جاهدة على الإحاطة بكل أسراره، ولكنها كلما زادت هذه الدراسات نكتشف العجز في الإحاطة بكل تلك الأسرار، والسحر العجيب الذي يتضح يوماً بعد يوم، كما يتنامى الشكل الفني للخط العربي في تراكيب جديدة ومستولدة من ذلك الإرث العظيم لهذا التراث الكبير والغني بكل أشكاله وألوانه.

الهوامش

١- من رسائل أبي حيان التوحيدي-ص:٣٠٦.
٢- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٠٩.
٣- التلامس الحضاري- ص: ٢١٩.
٤- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٠٦.
٥- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٠٦.
٦- رسالة اليقين- ص: ١٠٩.
٧- تحفة أولي الألباب- ص: ٣٢.
٨- التلامس الحضاري- ص:٢٢٠.
٩- تحفة أولي الألباب- ص:٣٣.
١٠- التلامس الحضاري- ص:٢١٩.
١١- التلامس الحضاري- ص:٢٢٠
١٢- رسالة اليقين- ص:١٠٩.
١٣- التلامس الحضاري- ص:٢٢٢.
١٤- تحفة أولي الألباب- ص:٣٦-٣٧.
١٥- التلامس الحضاري- ص:٢١٩.
١٦- التلامس الحضاري- ص:٢١٩.
١٧- التلامس الحضاري- ص:٢٢٠.
١٨- تحفة أولي الألباب- ص:٥٩.
١٩- التوحيدي- ص:٢٩٠.
٢٠- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣١٩.
٢١- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣١٩.
٢٢- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٢٠.
٢٣- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٢٢.
٢٤- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٢٣.
٢٥- من رسائل أبي حيان التوحيدي- ص:٣٢٤.

المصادر والمراجع

١- من رسائل أبي حيان التوحيدي- اختيار ودراسة: د. عزت السيد أحمد- وزارة الثقافة- ٢٠٠١م.
٢- تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب- تأليف عبد الرحمن يوسف الصايغ- تحقيق: هلال ناجي- دار بو سلامة للطباعة- تونس.
٣- الخط العربي آية من الجمال وإعجاز في البيان- مجلة عرين- العدد ٢٥ تشرين الثاني- ٢٠٠١م.
٤- رسالة اليقين في معرفة بعض أنواع الخطوط- تأليف: مصطفى السباعي الحسيني- مجلة الذخائر- العدد/ ٩/ عام ٢٠٠١م.
٥- التلامس الحضاري- عالم المعرفة- تأليف: إيناس حسني- العدد ٣٦٦- آب- ٢٠٠٩م.
٦- مقدمة ابن خلدون- دار العودة- بيروت- ١٩٩٦م.
٧- تاريخ الخط العربي بين الحاضر والماضي- تأليف حسان صبحي مراد- الدار الجماهيرية للنشر والإعلان- الطبعة الأولى- ليبيا- ٢٠٠٣م.

الكونيات والأرقام الكونية

م. فايز فوق العادة ✪

تتخلل القوانين الفيزيائية الكونية مجموعة من الأرقام التي تُعتبر ذات أهمية خاصة في حياة الكون.. نتطرق فيما يلي إلى أكثر هذه الأرقام شهرة.

تقوم القوة الكهرمغنطيسية بِشدّ الذرات إلى بعضها، بينما تجمع قوة الجذب الثقالي مختلف الأجسام الكونية بما يفضي إلى تشكل الحشود النجمية والمجرات. يُعزى الامتداد الهائل للكون إلى الرقم الذي يقيس نسبة قوة الجذب الثقالي إلى القوة الكهرمغنطيسية. يساوي هذا الرقم ١٠-٣٩ أي ٣٨ صفراً بعد الفاصلة العشرية يليها الواحد الصحيح. لو كان الرقم المذكور أكبر بقليل أي على سبيل المثال وليس الحصر ثلاثين صفراً بعد الفاصلة العشرية يليها الواحد الصحيح. إذن، لكان الكون صغيراً ذا عمرٍ بالغ القصر ولما قُدّر للكائنات الحية فيه أن تتجاوز في تطورها سوية الحشرات الضئيلة ذلك أن العمر بالغ القصر لكونٍ كهذا لم يكن ليكفي أن تصل الكائنات فيه عبر تطورها إلى سوية من الذكاء تسمح بالارتحال عبر الكون.

تندمج نوى الهيدروجين في باطن كل نجم لتكوين نوى الهليوم. إن الكتلة الكلية لنوى الهليوم الناجمة عن الاندماج أقل من كتلة نوى الهيدروجين الداخلة في التفاعل النووي الاندماجي. يتحول الفارق إلى طاقة يُطلقها النجم وفق معادلة آينشتاين التي تنص على أن الطاقة الناجمة عن الاندماج تساوي جداء الكتلة المندمجة بمربع سرعة الضوء. يقيس الرقم الكوني الثاني مردودية الاندماج ويساوي ٠,٠٠٧ يحدد هذا الرقم

✪ رئيس الجمعية الكونية السورية.

درجة التحام النوى ببعضها كما يؤرخ للسجل الطويل لتصنيع الذرات. لو كان الرقم مساوياً ٠,٠٠٦ أو ٠,٠٠٨ لما تواجدنا في الكون كي نتحدث عن هذا الأمر.

يتمدد الكون بفعل الانفجار البدئي الذي حدث منذ آلاف الملايين من السنوات. على الرغم من ذلك تتجاذب الأجسام الكونية فيما بينها بفعل قوة الجذب الثقالي.

نتساءل هنا: هل تكفي قوى التجاذب الثقالي المتبادلة بين الأجسام الكونية لكبح تمدد الكون؟

لو كانت الكثافة الفعلية للمادة في الكون مساوية أو أكبر من كثافة يدعوها العلماء الكثافة الحدية، إذن لاستطاعت قوى التجاذب الثقالي أن توقف تمدد الكون ولحولته إلى التقلص.

الرقم الكوني الثالث هو نسبة الكثافة الفعلية للمادة في الكون إلى الكثافة الحدية. يقيس هذا الرقم كمية المادة في الكون بما في ذلك المجرات والغاز المتخلخل والمادة العاتمة كما ويطلعنا على الأهمية النسبية لقوة الجذب الثقالي ولطاقة التمدد في الكون.

لو كانت هذه النسبة أعلى بكثير من قيمة معينة معتبرة، لانهار الكون على بعضه منذ أمد بعيد. على العكس لو كانت النسبة المذكورة أدنى بشكل ملحوظ من القيمة المعتبرة، لما نشأت النجوم والمجرات.

أما الرقم الرابع فقد طرح في العام ١٩٩٨م. تحدث العلماء إذ ذاك عن قوة كونية مضادة لقوة الجذب الثقالي تتحكم وتضبط تمدد الكون الذي نعيش فيه. لا تتظاهر هذه القوة بأي أثر ملحوظ في المقاييس التي تقل عن ألف مليون سنة ضوئية. السنة الضوئية وحدة لقياس المسافات الكونية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة زمنية كاملة مرتحلاً بسرعته المعهودة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، تكافئ السنة الضوئية حوالي عشرة مليون مليون كيلو متر. تزداد سيطرة هذه القوة على الكون ويتعمق فعلها كلما أظلم الكون وانخفضت كثافته. تتراجع إذ ذاك قوة الجذب الثقالي والقوى الكونية الأخرى لتغدو القوة المذكورة الوحيدة التي تملك تواجداً في الكون. إن الرقم الدال على القوة ضئيل جداً ويعرف باسم ثابت آينشتاين.

كان آينشتاين قد وضعه ثم ألغاه في مطلع القرن العشرين. على الرغم من ذلك تسعى القوة إلى احتلال مركز الصدارة في مستقبل كوني ليس ببعيد. لو كانت قيمة الرقم الرابع أعلى بقليل في الفترة الراهنة من حياة الكون لفشلت النجوم والمجرات

في التشكل والتجمع ولتوقف التطور الكوني على كل صعيد حتى قبل أن يبدأ.

ننتقل إلى الرقم الخامس. لقد طُبعت جذور الهيئات الكونية في صيغة قوالب مميزة، بما في ذلك النجوم والمجرات والحشود المجرية على الخارطة المبكرة للانفجار البدئي. يتوقف تصنيع البنى الكونية على هذا الرقم والذي يرمز إليه بالحرف Q ويمثل نسبة طاقتين أساسيتين ويكافئ واحد بالمئة ألف. لو كان Q أدنى من هذه القيمة لغدا الكون دون بنى وتشكيلات ولكانت عطالته كبيرة جداً. على العكس لو أصبح Q أكبر من القيمة المشار إليها بكثير لأصبح الكون مسرحاً لأحداث عنيفة ولما تواجدت الكواكب والنجوم فيه ولسيطرت على الكون الثقوب السوداء العملاقة.

عُرف الرقم الكوني السادس والهام منذ عدة قرون. إن وجهة النظر الخاصة بهذا الرقم قد تغيرت في عصرنا ولا شك. هذا الرقم يدل على عدد الأبعاد المكانية في عالمنا ويُرمز له بالحرف D حيث D=٣. لم يكن ليُقدّر للحياة أن تظهر أو تنتشر لو كان عدد الأبعاد المكانية اثنين أو أربعة. نعرف اليوم أن الزمن هو البعد الرابع ويتسم بميزة تجعله متفرداً بالمقارنة مع الأبعاد الأخرى. إنه يملك اتجاهاً واحداً يدفع على الدوام إلى التقدم نحو المستقبل من دون أية عودة للماضي. تفيدنا نظرية النسبية بأن الفضاء ينحني بالقرب من الثقوب السوداء بما يُجبر الضوء على حركة دائرية بينما يتوقف الزمن عن الجريان تماماً.

قد تكون هناك علاقة بين الأرقام المشار إليها، لكننا لا نملك حتى اللحظة وسيلة تمكننا من استنتاج أحد الأرقام بدلالة الأرقام الأخرى. هذا إلى أننا لا ندري إن كانت هناك علاقة تربط بينها. ما الذي يعنيه أن يطرأ تغيير طفيف على أيٍّ من هذه الأرقام أو على بعضها ولربما على كلٍّ منها وفق مبدأ الانتقاء الكوني تنتفي بنى وتنشأ بنى أخرى مغايرة أو يختفي كل شيء. لا يبقى وفقاً لمبدأ الانتقاء الكوني إلّا الأكثر اتساقاً. ينطوي هذا المبدأ على إمكانية تحقق لا نهاية من أكوان متباينة، تبرز في كل كون أرقام وتندثر أرقام أخرى محققة تعددية لا حصر لها.. تتخلق الحياة في كل الأكوان إذ لا معنى لكون بلا حياة: فالكون يهب الحياة للوعي، بدوره يفضي الوعي على الكون القيمة والمغزى. وفق مبدأ الريبة في الميكانيك الكوانتي، لا يمكن للأرقام أن تثبت عند قيم محددة. نتساءل في النهاية فيما إذا كانت البنى والتشكيلات

والأكوان تابعة للأرقام، أم أن الأرقام تنبثق عنــد ولادة أحد الأكــوان؟ إذا طبقنا مبدأ الريبة في سيــاق الطاقات والأزمنة وأخذنا بعــين الاعتبار الفــترات الزمنيــة الكونية، نخلص إلى استنتاج مفاده أن الطاقة تتدفق لتشكيل كون، بينما تصــف الأرقام الكونية الأحوال التــي ستكون عليها تفاصيل الكون فيما بعد.

المراجع

1- Darling, David: the Extraterrestrial Encyclopedia (2000), Three river press: New York.

2- Orrell, David: The Future of Everything (2007), Thunder's Mouth press.

3- Barrow, John: The constants of Nature (2002), Pantheon Books.

4- Tyson, Neil: Death By Black Hole (2007), W.W.Norton &co.

منطلقات البحث العلمي بين المنهج والمنطق

محمد علي درويش ✪

من المعلوم أن مصطلحي المنطق والمنهج كانا يدلان على مفهوم واحد، وهو العمليات العقلية التي يتوسل بها الإنسان للوصول إلى الحقيقة، ولكنه مع التطور الكبير والاهتمام العلمي بالمنهج في عصر النهضة وما بعده، أصبح المنهج جزءاً من المنطق مثلما كان المنطق جزءاً من الفلسفة أو مقدمة أو آلة لها. وهناك من يقول بأن منطق أرسطو لم يكن صورياً محضاً، بل كان فيه جانب نظري، وهو الذي يدرس المبادئ العامة للتفكير، والذي سمّي بـ«المنطق الصوري»، وجانب عملي يجسد هذه المبادئ في ميادين المعرفة، ولكن شرح أرسطو وتلاميذه بعده لم يعنوا إلا بالجانب الأوّل،

واحتاجت مسيرة الفلسفة والعلم إلى مرحلة طويلة من الجهد حتى تمّ الفصل بين الجانبين مرة أخرى، وصار المنطق يعنى بفن التفكير بمعنى عام، والمنهج يعنى بالطرق التي يتوصل بها إلى الحقائق في ميدان العلوم والحياة العملية.

ولعلنا حين نستقرئ التعاريف، أو جزءاً منها (لكل من المنطق والمنهج) نستطيع أن نقترب من طابعهما وعلاقة كل منهما بالآخر، فلقد قيل في تعريف المنطق بأنه «علم قوانين الفكر»، وأما تعريف المنهج فله تعريفات كثيرة نختار منها أنه «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون

✪ أديب وناقد.

بهـا جاهلين، وإما من أجـل البرهنة عليها للآخرين حين نكون لهـا عارفين». ويتضح من هذيـن التعريفـين، ومن غيرهمـا، أن المنهج يقترب إلى الجانب العلمي، لأنه يدرس موضوعـاً معينـاً أو علماً معينـاً، مستعيناً بمبـادئ المنطـق، وإن كان هـو الآخـر له مبادئ نظرية لهـا تطبيقاً في ميدان معين، فهناك حقيقة معينة إذن يبحث عنها المنهج وليسـت حقيقة مطلقة كما هـو الشأن في المنطـق، وسيكون الأمر معنـا أكثر وضوحاً حين نتعرف على مصطلح آخر هو «البحث العلمي»، ومدى صلته بالمنهج.

البحث العلمي والمنهج

مهما قيل عـن عملية المنهج وتخصصه وقربه من حقيقة معينـة، وبحثه في العلوم التطبيقية أو الإنسانية، فإن الجانب النظري يبقى ماثلاً فيـه، فمازلنا نبحث عن مبادئ للوصول إلى حقيقة معينة، مثلما كنّا نتحدث عن مبادئ فن التفكير بشكل عام مع المنطق، وإننـا سنجد أن الميـدان العلمي التطبيقي الخالـص لـكل مفاهيـم المنطـق والمنهج، وكذلـك في المجـال الذي نسميـه «البحث العلمي». فإذا قيل بأن علاقة المنهج بالمنطق هـي علاقة الأب بالابن، فإن علاقة البحث بالمنهج لا تقل عن هذه الدرجة من العلاقة، وهذا الـذي انتهينا إليه فيما يتعلق بالصلة بين المنهـج والبحث العلمـي بشكل خاص، هو ما انتهى إليـه الباحثون في هذا المجال يقـول الدكتور نجيب الحصـادي: (المنهج، بغض النظر ما إذا كان علمياً أو غير علمي، مجرد فكـرة تتـم صياغتهـا في جملة من القواعـد العامة التـي يتوجب تطبيقها من قبل ممارسي النشاط المعني. البحث العلمي ليس فكرة، بل تحقيق عيني وممارسة عملية لفكـرة المنهج العلمي، إنـه استقصاء منظم يتخـذ من قواعد المنهـج العلمي، في مجال تخصصـي بعينه، وسيلـة لتحقيق مقاصد بعينها من شأن تحقيقـه تقريب أو تصعيد احتمال إنجاز النشاط العلمي لمآربه).

إن شأن علم المنهـج كشأن المرشد الذي يخبر قومه عن الاتجـاه الصحيح لمسيرهم، أهو نحو المشـرق أم المغرب، ولهم بعد ذلك أن يختـاروا وسائل الوصـول إلى مبتغاهم، أي بمعنـى أن البحث العلمي تتعدد أساليبه بتعدد موضوعاته ومادتـه. وإذا كنّا عرّفنا المنهج واتضحـت أمامنا ملامحه، فإنه مما

يزيد مصطلح البحث العلمي وضوحاً أن نذكر جانباً من تعريفات الباحثين له. ومن هذه التعريفات تعريف «فان دالين»، وهو «المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل إلى حلول للمشكلات التي تؤرق الإنسان وتحيره». وتعريف «وتني»، وهو «البحث استقصاء دقيق يهدف إلى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها مستقبلاً». ولعل تعريف الدكتور «إبراهيم رفيدة» أكثر هذه التعريفات شمولاً، وهو «العمل العلمي الذي نتتبع في القيام به خطوات المنهج العلمي، ونتهج الطريقة العلمية بالتفكير والتأمل، وبذل أقصى ما نستطيع من القدرة والدقة والأمانة والتقصي لجميع الحقائق والمسائل المتصلة به، للحصول على معلومات جديدة. وربطها بمعلومات سبقت معرفتها، ولتطوير معلومات معروفة من قبل، أو لتصحيحها وتقويمها أو تحقيقها وتوثيقها، ثم صياغتها في أسلوب موثق أو قانون علمي عام». وفي هذا التعريف إشارات شاملة إلى خصائص البحث العلمي وأهدافه، فضلاً عن صفات الباحث الذي يتصدى لعملية البحث ويكابد مصاعبها ويكشف عن أسرارها.

ومما لا شك فيه أن للبحث العلمي أدواتاً من قبل الملاحظة والمقابلات والاستبيانات وتحليل المحتوى، وأساليب القياس والخرائط والوثائق والوسائل الإحصائية، إلى غير ذلك من الوسائل التي تتعدد بتعدد البحوث والمعارف التي تعمل في إطارها. ومن أنواع البحوث ما يطلق عليه «التنقيب عن الحقائق»، ومنها ما هو تفسير نقدي، ومنها ما يشتمل على عنصري التنقيب والتفسير ووضع التعميمات التي تساعد على حل المشكلات». أما أهداف البحث فهي أهداف العلم الذي يسعى إلى التفسير والتنبؤ والضبط، من خلال القوانين العامة التي تساعد على فهم ما يحيط بنا وتفسيره وتوظيفه لخدمة الإنسان وتحقيق مقصده في الحياة، وقديماً حدد علماؤنا مقاصد التأليف والغاية من البحث بأنها اختراع معدوم، أو جمع مفرق أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ. وقالوا بأنه لا ينبغي لعاقل أن يؤلف أو يبحث من دون أن يجعل بين عينيه بعض هذه الأهداف.

وبعد هذا ننتهي إلى التعرف على خصائص البحث العلمي بعد التعرف على ما هو أشمل منه، وهو التفكير العلمي فهو أعم، والبحث العلمي أخص، والتفكير العلمي مبادئ عامة ونظرة إلى العلم ووظيفته وأهدافه وتطوره، والبحث العلمي جانب تطبيقي لتلك المبادئ العامة، ولقد رأينا أن هناك خلطاً لدى بعض الباحثين في الحديث عن هذه المصطلحات، وصحيح أن هناك تداخلاً بين هذه المفاهيم، ولكن هذا لا يعني محاولة التعرف على الخطوط العامة المشتركة والمتميزة.

خصائص التفكير العلمي

١- التراكمية:

وهذا لا يعني أن ما ينجزه العلم اليوم مقطوع الصلة بما أنجزه السابقون، بل هو متصل به ومشيد عليه، على اختلاف في درجة هذا الاتصال، فقد تكون الإضافة ضئيلة في ميدان علمي وقد تكون كبيرة، وفي بعض الأحيان تلغي العلم القديم وتؤسس لمبادئ من العلم الجديد، ولكن هذا لا ينفي مبدأ «التراكمية» الذي يعني وجوب الاعتداد بجهود السابقين والتأسيس عليها، ويمكن القول بشكل عام أن المعارف العلمية يتجاذبها أمران هما الثبات والتغير، الثبات على ما فرض مصداقية ثباته على العلماء في الماضي والحاضر من دون التزام بالقول في أنه سيبقى ثابتاً في المستقبل، والتغير الذي يعتري العلم حيث يضيف اللاحقون للسابقين ما يجب تغييره وفق معاييره الحقيقية.

٢- التنظيم:

لا تكف عقولنا عن التفكير، ولكن ثمة فروق بين تفكيرنا التلقائي وتفكيرنا المنظم الواعي. وإذا كنّا نحرص على تنظيمنا لتفكيرنا وأسلوب ممارستنا العقلية، فإنه ينبغي أن نحرص كذلك على تنظيم العالم الخارجي، ولا نقتصر على تنظيم حياتنا الداخلية فقط. ولم يكن هذا التنظيم أو ما ننوي عمله في مجال العلم غير اصطناع «المنهج» الذي يقودنا خطوة خطوة نحو النتائج الصحيحة. ومن المعلوم أن خطوات المنهج العلمي الذي يقوده التفكير العلمي هي الملاحظة والفرض والتجريب والاستنتاج، على شيء من التفصيل.

٣- البحث عن الأسباب:

حين نريد التعرف على ظاهرة كونية أو

علميـة نتساءل بـ«لمـاذا» للتعرف على سبب حدوثها، وكأن في ذواتنـا ميلاً فطرياً لهذا فضلاً عن أن هناك توجهاً علمياً يدعونا إلى التحكم في الظواهر بمعرفة أسباب نشوئها. على أن هذه القضية ليست سهلة، فهناك ما يصعب علينا فهـم أسبابه لأنه خارج نطاق قدرتنـا، أو لأننا لم نستطـع أن نهتدي إليه بعد. ومهما يكن فـإن هناك خلافاً فلسفياً حول ضـرورة أن يكون لكل سبب مسبب، أو يكون لكل علـة معلول. فقد قال الفيلسوف الإنكليزي «ستيورات ميل» بفكرة التابع، أي أننـا نلاحظ تتابع حادثتين في عدة حالات، فيغلب على ظننا ضرورة أن إحداهما توجد الأخرى، وهذا ما أدى إلى أن ينكر «برتراند رسل» فكـرة السببيـة. إلا أن الفكر عملية قائمـة، وأن العلم يحـاول أن يجد السبب للظواهر، وأن العقل يعتمد على قوانينه في هذا المجال من دون أن يشتط به الحال إلى البحث عن سبب العلـة الأولى، فينتهي إلى الاستحالـة والتسلسل والدور الذي يرفضه المنطق العقلي.

٤- الشمولية:

بمعنـى أن الظاهرة التـي يبحث فيها العلم لا تمثـل حالتها الجزئيـة، ولا تتعلق بإحساس فرد معـين، بل هـي تشمل كل الظواهر المماثلـة، وأن عقل الباحث سوف يقتنـع بالنتائج التي توصلـت إليها المعرفة العلمية لهذه الظاهرة، وهذا يؤدي إلى ظهور نوع من اليقين بشمولية الظاهرة، وهو يقين ليس فردياً أو نفسياً، بـل يقين قائم على براهين وأدلة منطقية.

٥- الدقة والتحديد:

فارق كبير بين لغـة الحياة اليومية التي نصطنعهـا في معاملاتنـا، واللغة التي هي حصيلة التفكير العلمي، فبينما تقوم الأولى علـى الذاتية وعنصر الاحتمال، فإن الثانية تقوم على الدقـة والوضوح والتمييز. وهذا التفكير ينقلنا إلى التعبير عن الأشياء تعبيراً كميـاً وليس كيفيـاً، بمعنى أننـا لا نصف الأشيـاء وصفـاً خارجياً، بـل نحدد درجة كمها، فهناك فرق واضح بين قولنا: الحديد ساخن، وقولنا: أن درجة حرارة الحديد ألف درجـة مئوية. وهذا يعني أن لغة العلم تتجه نحو التجريـد وتستخدم الأرقام الرياضية، أو الرمـوز والأشكال التي تصاغ بها قوانين العلم.

إن هـذه المفاهيم قد تجـد صعوبة في عزلها عن خصائـص البحث العلمي، لأنها تمثـل الأرضية التـي ينطلق منهـا البحث العلمي.

خصائص البحث العلمي

١- ينطلق البحـث العلمي من مسلمات وافتراضات تقوم عليهـا الطريقة العلمية، من مثل مسلمة الأنواع الطبيعية، أو الثبات والحتمية، مع فارق واضح في هذه المسلمات بـين البحث في العلـوم الطبيعيـة والعلوم السلوكية والإنسانية، ولكن هذا لا يمنع من وجود نظريـات عامة راسخـة نوظفها في تفسير الواقعة المـراد تفسيرها، وننتهي بها إلى التفسير السليم الصحيح.

٢- الملاحظة والتجربة: هما مبدأ البحث العلمي، فالباحـث يختبر فروضه ونظرياته ميدانياً وعملياً متدرجـاً من المحسوس إلى المعنى، أو مـن الأشياء إلى المجردات، وذلك حين ينتهي إلى صياغة قانونه الذي تمخض عـن التجريب المكـرر الذي يمـر بتحليل الظواهر الجزئية والانتهاء إلى طابعها الكلي، كما سنلاحظ في عمليـة التحليل والتركيب العلميين. وقديماً كان الجاحظ يقول: «أكثر البصـراء للأعاجيب أكثرهم تجارب». وكان الأطباء العرب لا يقيمون وزناً للذي لا يعنى بالتجارب في دوائه أو علاجه.

٣- إمـكان الاختبار: ومعناه أن التجربة العلميـة ليست قضية فرديـة أو شخصية، بل هـي قضية يمكـن التحقق منهـا، وأن هنـاك طريقة لاختبار صدقها، وحين تكون صادقة فهي صادقة في الظروف والمناسبات جميعها، وهذا ما يسمى بثبات الصدق. إن أي عالم يتوصل إلى حقيقة علمية يمكننا أن نلقـي عليه السؤال التالي: كيف توصلت إلى هذه الحقيقة؟.. ولا يمكن إلا أن يبين السبل العلمية التي أوصلته إلى الحقيقة، وبإمكاننا التحقق من صحة دعواه.

٤- ومن الخير للبحث العلمي ألا يعتمد في خطواتـه واستنتاجاته على منهج واحد، بل يوظـف الاستقـراء في موضع، ويوظف الاستـدلال في موضع آخر، وقـد يلجأ إلى المنهـج النقلـي في موضـع ثالـث. فالمادة العلميـة تفرض طريقة خاصة في معالجتها والسير في خطواتهـا، فالمنطق والرياضيات والتجريب كل هذا في خدمـة البحث، وما هذه المناهج إلا وسيلة للوصول إلى الحقائق. وقديماً التفت علماؤنا إلى القول (إن العيون

لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع للذهن)، وهذا يعني عدم الاعتماد على الحواس وحدها، ولابدَّ من تدخل العقل للحكم والاستدلال.

المراجع

١- أصول البحث العلمي ومناهجه، د.أحمد بدر، وكالة المطبوعات، الكويت، العدد٧، ص٤٣.
٢- التفكير العلمي، د.فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد الثالث، ص٢٧.
٣- المنطق الصوري أسسه ومباحثه، د.علي عبد المعطي محمد، ود محمد قاسم، دار المعرفة الجامعية.
٤- مقدمة لدراسة مناهج البحث العلمي، د.إبراهيم رفيدة، مجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، العدد٦، ص٢٠.

الإعلام المرئي والثقافة

رحاب محمد ❁

منذ بداية ستينيات القرن الماضي، وبعد نضج صناعة التلفزيون على مستوى العالم وانتشار أجهزة الاستقبال التلفزيوني في المنازل في جميع أنحاء العالم تقريباً، وحتى قبل تعميم الصورة الملونة، أصبح التلفزيون الأداة الإعلامية الأولى من حيث عدد المتابعين وتنوع مشاربهم وفئاتهم. وكما كان التلفزيون وسيلة الإعلان التجاري الأكثر فاعلية في العالم، فقد أصبح وسيلة الدعاية السياسية والثقافية والاقتصادية الأولى في يد الحكومات والمؤسسات والشركات الاقتصادية، بسبب تمتعه بعدد من المزايا التي لم تتوافر قبله لأي وسيلة إعلامية أخرى، وخاصة في مجال نقل الأخبار والأحداث العالمية الهامة. ومن أهم هذه العوامل مايلي:

١- **المصداقية والمقدرة على الإقناع:** في التلفزيون يرى الجمهور رأي العين ويسمعون بأنفسهم الأحداث المنقولة مما يترك تأثيراً إقناعياً قوياً، فهو لم يعد يجعلهم من المتابعين للحدث بل من شهوده وحضوره، وبما أن الإنسان لا يشكك في الشيء الذي يراه بعينه ويسمعه بأذنه فإنه عادة يأخذ ما يراه في التلفزيون من أحداث وأخبار كحقيقة لا تقبل النقاش أو الطعن، على الرغم من أن تلك الحقائق والأحداث يمكن معالجتها بحيث تترك آثاراً متفاوتة ومتغايرة من خلال اكتمال العرض وأسلوبه ودرجة التركيز على عناصره والتحكم فيما يعرض وما يحجب عن المشاهدين.

❁ ناقدة وأديبة سورية.

٢- السرعة في نقل الأخبار والأحداث: منذ مطلع الستينات أصبح التلفزيون أشمل وسيلة سريعة لنقل الأخبار إذ إنه كان يتساوى مع الراديو في قطع البرامج وإذاعة الأخبار الهامة، لكنه يتفوق عليه بإمكانية عرض الصورة لاحقاً وخلال ساعات، أما اليوم فإنه ينقل الأخبار والأحداث الهامة مباشرة في لحظة وقوعها، ولذلك فإن الناس في جميع أنحاء العالم، منذ أكثر من أربعين عاماً، كانت تتجمع مساء حول أجهزة التلفزيون لمشاهدة نشرات الأخبار ومشاهدة تفاصيل ما سمعوا عنه من خلال الراديو أو قرؤوه في الصحف، وهذا في حد ذاته جعل لجهاز التلفزيون القول الفصل والكلمة الأخيرة بين ما يصدقه الناس ويقتنعون به لأنهم شاهدوه بأعينهم وبين ما يتشككون في تصديقه لأنهم لم يروه.

٣- مجانية الخدمة: قبل ظهور التلفزيون كان الناس إذا سمعوا عن حدث ما في الراديو يضطرون إلى شراء الصحف وربما المجلات المصورة للاطلاع على التفاصيل ورؤية الصور، أما في عهد التلفزيون فقد كانت هذه الأشياء تصلهم مجاناً وبلا عناء وتعرض عليهم بالشكل الذي يشبع فضولهم بلا مقابل مادي سوى الاشتراك الرسمي الذي كانت بعض الحكومات تفرضه على كل جهاز تلفزيون تقتنيه الأسرة، وكان التلفزيون يقدم مقتطفات مما تنشره الصحف والمجلات فيغني المشاهدين عن شرائها لقراءتها، كما كان يستضيف كبار المعلقين في المحطات الإذاعية في البرامج الحوارية.

٤- تغير أنماط الترفيه والتسلية الجماعية: منذ بداية الثلاثينيات من القرن العشرين المنصرم تعوّد الناس على قضاء الأمسيات مجتمعين حول جهاز الراديو بدلاً من الذهاب إلى المقهى أو النادي، ثم لم تلبث هذه العادة أن تأصلت بعد ظهور أجهزة «الفوتغراف» وسماع الموسيقى من الأسطوانات المسجلة في المنزل بوجود الأصدقاء بدلاً من الذهاب إلى المسرح أو « الأوبرا ». وهكذا جاء التلفزيون في الوقت الذي ألف فيه الناس أساليب الترفيه والتسلية المنزلية وأصبحوا يتشوقون لرؤية الأفلام السينمائية أيضاً في منازلهم، خصوصاً أولئك الذين لا يقدرون على تأمين مصاريف الذهاب إلى صالات العرض السينمائي، ولذلك لم تواجه أجهزة التلفزيون أي مشقة في التأقلم مع هذا الجو الترفيهي

المنزلي الجديد.

٥- سعة الانتشار: لا يزال التلفزيون حتى الآن محافظاً على المركز الأول بين وسائل الإعلام الأخرى في الانتشار بين الناس وهو يتفوق على الصحف والراديو في عدد المتابعين، ولذلك نجد أنه أيضاً حتى الآن يعد الأداة الرئيسية في حملات الإعلان التجاري، ويعود ذلك إلى سهولة الإلتقاط منزلياً وإمكانية المشاهدة براحة تامة وبالكيفية المفضلة للمشاهد، وكذلك مقدرة التلفزيون على مخاطبة الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والإعلامية.. حتى الأمية التي تحول دون انتشار الصحف لم تعد عقبة في طريق متابعة التلفزيون، فالناس يشاهدون التلفزيون بأعينهم ويكونون قناعاتهم بعواطفهم وهذا لا يحتاج إلى إتقان القراءة والكتابة، وهذه الميزة بالذات جعلت الهوة بين أعداد المتعلمين وغير المتعلمين الذين يتابعون الأحداث العالمية تنكمش إذ لم تعد متابعة الأحداث العالمية تحتاج إلى مستوى علمي أو إدراك خاص فهي في متناول الجميع وكل يفسرها حسب مستواه ونضجه.

٦- القدرة على التحديث والمتابعة:

انفرد التلفزيون بين وسائل الإعلام الأخرى في المجال الإخباري بالمقدرة على المتابعة وتحديث المعلومات والصور من مواقع الأحداث أولاً بأول، بينما كان الراديو عاجزاً عن نقل الصورة، وتحديث معلومات وصور الصحف يحتاج إلى إصدار الملاحق والطبعات الإضافية وهو ما يستغرق وقتاً ومالاً وجهداً اختصره التلفزيون في البداية إلى دقائق ثم أصبح الآن فورياً لا تأخير فيه، ولذلك فإن التلفزيون هو الأداة الإعلامية الأكثر مشاهدة خلال الأزمات السياسية والصراعات العسكرية والأحداث العالمية الهامة لأنه الأسرع في النقل والمقدرة على تحديث البيانات.

٧- تعدد مصادر التغذية التلفزيونية:

في بدايات عهد التلفزيون كانت المحطات المحلية في العواصم العالمية الكبرى تتنافس في اجتذاب المشاهدين من خلال تقديم برامج مشوقة وتغطيات إخبارية ورياضية تعتمد على ميول القائمين عليها سياسياً وعقائدياً، وهذه الخدمات التلفزيونية تكون مصبوغة بتلك الاتجاهات، ومن هنا كان المشاهد التلفزيوني قادراً على رؤية الحدث الواحد ومتابعة تفسيراته من خلال وجهات

نظر متعددة تحرره من الوقوع تحت سيطرة كاتب أو معلق معين، أما اليوم فإن البث التلفزيوني الفضائي ضاعف من قوة هذا العامل بالذات أضعافاً مضاعفة.

٨- **التأثير الإدماني للتلفزيون:** تميز التلفزيون عن غيره من وسائل الإعلام بمقدرته على إحداث تأثير إدماني على متابعيه، إذ أصبح جزءاً من حياة المشاهد يفتقده إذا لم يكن موجوداً، بل إن كثيراً من المشاهدين يتركونه يعمل حتى وإن لم يكونوا يتابعون ما يعرض، فقط لأن إيقافه يجعلهم يحسون بهدوء غير مرغوب، وتشغيله يذهب الوحشة من الغرفة أو المنزل، كما اتضح أن عدد ساعات المشاهدة تتزايد تدريجياً ثم تصل إلى مستوى معين لا تقل عنه بعد ذلك.

٩- **تنوع المادة المعروضة:** امتاز التلفزيون عن غيره من وسائل الإعلام بتنوع المادة المعروضة وشمولية إرضاء أذواق الجمهور المتلقي، فإضافة إلى البرامج المخصصة للطفل والمرأة والمراهقين فإنه الوحيد بين وسائل الإعلام القادر على نقل المشاهد من السينما إلى المسرح وإلى الملاعب الرياضية وأعماق البحار والمناطق الجغرافية النائية وساحات المعارك والحروب. ومن خلال التلفزيون شاهد مئات الملايين مناظر سياحية وأحداثاً تاريخية وأقاليم جغرافية وفصائل من الحيوانات لم تكن رؤيتها متيسرة إلا لأعداد قليلة جداً ومحدودة للغاية من البشر، بل أصبح الإنسان يستطيع من خلال التلفزيون خلال عام واحد مشاهدة ما شاهده أسلافه من البشر في مئات السنين.

والتلفزيون، باعتباره من أهم وسائل الاتصال المتطورة في عصرنا، فقد قدم إمكانيات عظيمة إلى مجالات الإعلام والثقافة والتعليم، وإذا اعتبرنا أن متوسط عدد الساعات التي يقضيها الفرد العادي أمام الشاشات الصغيرة تتراوح بين ثلاث وست ساعات يومياً أدركنا مدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه هذه الوسيلة في حياة الملايين من الأفراد الذين تصلهم البرامج وهم في منازلهم، وقد أجمعت البحوث والدراسات العلمية التي أجريت على الإذاعة المرئية (التلفزيون) مدى تأثيرها القوي واجتذابها للمشاهدين والدارسين على حد سواء، إذ يعتبرها بعض المربين أقوى أدوات التعليم والثقافة، ذلك أن التلفزيون، كوسيلة اتصال، تنفرد بالميزات التقنية التالية:

١- إمكانية نقل الماضي البعيد بأحداثه التاريخية، كذلك الحاضر بواقعه.

٢- الفورية، حيث يمكن نقل الأحداث الهامة وقت وقوعها.

٣- عن طريق عناصر الإثارة الثلاثة: الصورة والحركة والصوت، يمكن التأثير في اتجاهات الأفراد وأفكارهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم.

٤- توسيع ثقافة الفرد وعدم اقتصارها على ثقافته المحلية، بل اطلاعه على ثقافات المجتمعات الأخرى وما يحدث من تطورات علمية وتكنولوجية في العالم.

ومن ناحية أخرى يثير بعض المربين والمفكرين الجدل حول أثر التلفزيون على الأطفال بشكل خاص، حيث نجد أن اتجاههم نحو استخدام التلفزيون يتأرجح بين طرفي نقيض: التأييد والمعارضة، فيرى الجانب المؤيد بل يتحمس لضرورة الاستفادة من هذه الوسيلة ليس فقط في توسيع ثقافة الطفل بل في استخدامها كوسيلة تعليم بالمدارس، وفي بعض البلدان المتقدمة يتبع حالياً أسلوب لتوسيع الاستفادة من برامج التلفزيون (البث الفضائي)، باستخدام أقمار صناعية خاصة تقوم ببث شرائط تعليمية وتثقيفية بحيث تغطي مساحة دائرية يصل قطرها إلى ٥٠٠ كيلو متر.

هذا بينما نجد على الطرف الآخر الجانب المعارض الذي يرى أن استخدام التلفزيون في التعليم والتثقيف يمثل تحولاً عن مواجهة المشكلات الحقيقية في التعليم والتثقيف التقليدي، ولكن هؤلاء في الواقع يمثلون قلة من المربين والمفكرين الذين لم يتضح لديهم دور التلفزيون في نشر التعليم والثقافة، ففي الوقت الذي يرى فيه هؤلاء النقاد أن مشاهدة الأطفال لبرامج التلفزيون المختلفة لها أثر ضار على الأطفال في الحد من ساعات الدراسة والاطلاع، يجمع معظم المربين على أن مشاهدة الأطفال لهذه البرامج تربط حياتهم بشخصيات متعددة، كما تزودهم بأحداث وموضوعات لا يمكن أن يصلوا إليها بسهولة عن طريق وسيلة أخرى، والأطفال في الواقع يجدون في بعض البرامج الآن ما قد يغنيهم عن الرحلات المدرسية إذ تنقل إليهم البرامج الأماكن التي يصعب عليهم الوصول إليها، وكذلك تربطهم بعض البرامج ببيئتهم ومجتمعهم الذي يجب أن يتعرفوا عليه، وقد أثبتت الدراسات والأبحاث التي أجريت بهذا

الخصوص أن التلفزيون قد زاد من رغبة الأطفال في القراءة، كما عمل على توسيع ثقافتهم ومداركهم ومحصولهم العلمي واللغوي.

نستخلص من هذا أنه ليست هناك نواحي قصور في الإذاعة المرئية في حد ذاتها كوسيلة من وسائل نشر الثقافة، وإنما يتوقف مدى أثرها على الموجهين لهذه الوسيلة وعلى حسن استغلالها لنشر الثقافة التي يجب أن تستهدف خلق الفرد المستنير.

ولكي ندرك أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به الإذاعة المرئية كوسيلة من وسائل نشر الثقافة، لابد لنا أن نحدد مفهوم الثقافة: لا يقصد بالثقافة مجرد الجانب المهذب فقط من إنتاج الفرد الفكري والروحي والمادي، بل الثقافة بمفهومها الواسع التي تشمل اللغة وأساليب التفكير والعادات والتقاليد والقيم وسبل العيش والتفاهم التي يعيش في كنفها أفراد المجتمع، كذلك تشمل الثقافة كل ألوان المعرفة والفنون وكل الأدوات والأفكار والأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة في المجتمع. والثقافة بهذا المفهوم الواسع إذ تشير إلى أسلوب الناس في الحياة في مجتمع ما في فترة معينة. إن ثقافة الشعب، فضلاً عن كونها ضرورة قومية لا تقل أهمية عن التربية والتعليم، يجب ألا تقتصر على الدور الذي تقوم به دور العلم من جامعات ومعاهد ومدارس وحدها إذا أردنا خلق المواطن المستنير الذي يحس بمسؤولياته الاجتماعية والمهنية والثقافية. ولما كانت وسائل الاتصال ومن بينها التلفزيون، من العوامل المؤثرة في حياة الملايين، لذلك أصبح من الضروري لكل مجتمع متطور أن يهتم بهذه الوسيلة، إلى جانب الأغراض الترفيهية، لتمكين المواطنين من التعرف على جوانب حياتهم الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والتلفزيون كوسيلة من وسائل الاتصال الشعبية تختلف وظيفته باختلاف الأوضاع السياسية في المجتمعات، ففي بعض الدول المتقدمة كالولايات المتحدة نجد أن برامج التلفزيون تغلب عليها النواحي الترفيهية، حيث تسيطر على برامجها المؤسسات التجارية وشركات الإعلان التي يهمها في الدرجة الأولى تحقيق الكسب المادي عن طريق الاستجابة لرغبات الناس، فبينما نجد أن ما يقرب من ٧٥ ٪ من وقت البث

التلفزيوني يخصص للبرامج الترفيهية، نجد أن أقل من ٢٠ ٪ من وقت البث يخصص للبرامج الثقافية، وكذلك لا تتعدى البرامج التوجيهية الـ٥ ٪ من هذا الوقت، ومن هذا يتضح أن الوقت المخصص للبرامج الثقافية والتوجيهية، وهي البرامج التي تساعد الفرد على النضوج، لا يتعدى ربع وقت البرنامج العام، أما في بعض البلدان النامية والمجتمعات الناهضة، حيث تكون وسائل الاتصال والإعلام تحت إشراف الدولة، فإن الموقف يختلف حيث يجب أن تستغل الإذاعة المرئية لصالح الناس، مستهدفة رفع مستواهم الفكري والثقافي وتوعيتهم اجتماعياً وسياسياً.

وإذا ألقينا نظرة على السياسة المتبعة في استخدام الإذاعة المرئية في الدول النامية، نجد أنها تتلخص في خدمة الإعلام والأخبار والترفيه والتثقيف بصفة عامة، فقد أسهم التلفزيون مع غيره من وسائل الاتصال المختلفة في مجال الإعلام عن طريق التوعية بالمبادئ الاجتماعية والسياسية، مما أدى إلى إحداث درجات من التغيير في اتجاهات الناس وأنماط سلوكهم وإلى إكسابهم معارف جديدة، وقد أكدت جميع الأبحاث والمؤتمرات التي ناقشت أهمية استخدام الإذاعة المرئية في هذا المجال، ونادت بوجوب وضع سياسة خاصة لاستخدام التلفزيون في هذه الدول تختلف في أهدافها وأساليبها عن الدول المتقدمة، بحيث يولي المسؤولون عن تخطيط برامج التلفزيون أهمية خاصة للبرامج الثقافية والتعليمية، على أن تليها في الأهمية البرامج الترفيهية.

إن تزويد المواطنين بالمعارف والمهارات والاتجاهات السلمية والقيم الروحية والاجتماعية يجب ألّا يقتصر على الدور الذي تقوم به مؤسسات التربية والتعليم وحدها، بل يمكن تحقيق هذه الأهداف عن طريق التثقيف العام بوساطة وسائل الإعلام المختلفة، والتلفزيون بجانب وسائط الثقافة الأخرى، يمكن أن يلعب دوراً هاماً في بناء مجتمعنا للحاق بركب الدول المتقدمة. والمواطن بحاجة إلى تنمية معارفه وخبراته ومهاراته كي يوائم بين حاجاته ومطالب المجتمع، وكي يستطيع أن يتكيف مع التطورات والتغيرات التكنولوجية والاجتماعية والسياسية الحاصلة في العالم،

ولذلـك ينبغي على المجتمعـات التي تسعى لملاحقـة هذه التطـورات السريعة في شتى الميادين وضع الخطط التي تستهدف إتاحة فرص استمرار التعليـم والتثقيف لكل فرد يرغب في استكمـال ثقافته بشكل أو بآخر، وإعدادهـم بذلك لتحمـل المسؤوليات التي يتطلبها التطور والنمو من ناحية، وتمكينهم مـن الإبداع والابتـكار من ناحيـة أخرى، والتلفزيون يمكنه أن يدعم الدور الذي تقوم به مؤسسـات ودور التربية والتعليم لتحقيق هذا الهدف.

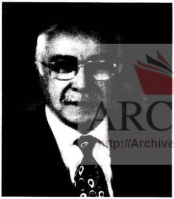
أمين الخياط: الموسيقى كل حياتي

إعداد: عادل أبو شنب ✿

قاد فرقة الفجر الموسيقية لمدة ٤٨ سنة و حتى الآن، لم يبق مطرب أو مطربة من دنيا العرب إلا عزف له ولها، لحن عشرات الأغاني، وغنى من ألحانه صباح فخري وشريفة فاضل ومها صبري وسميرة توفيق ومصطفى نصري والياس كرم ومها الجابري وفاتن حناوي، وعُليّة التونسية وفهد بلان وغيرهم، ولحن موسيقى أعمال درامية ومسرحيات كثيرة، وحصل على جوائز وميداليات وشهادات تقدير من سورية والكويت والأردن وسلطنة عمان وليبيا والمغرب والإمارات ومصر.

✿ ✿ ✿

ما زال يعمل رغم بلوغه الخامسة والسبعين، وله يد بإظهار مطربين ومطربات جدد. إنه الموسيقي السوري أمين الخياط،



الذي يسرني أن أحاوره في هذا العدد من «المعرفة».

المصادفة وحدها..

لا بد لي، في البداية، أن أشير إلى أن هذا الحوار قد تمَّ بطريقة المصادفة، فقد كنت أريد محاورة المخرج التلفزيوني أمين البني

✿ أديب وقاص سوري

لإنجازه قسماً من مشروعه الكبير «مذكرات وطن» الذي أنفق لإعداده وإخراجه أكثر من عشرين سنة، لأنه يعتمد على الوثائق التاريخية.

فسعيت إليه، حتى أعطاني أحد المخرجين رقم هاتفه المحمول، فاتصلت:

- أستاذ أمين؟

• نعم.

- أنا فلان، وأريدك لحوار.

استجاب أمين، وتواعدنا، وفي اليوم الثاني جاءني الموسيقي أمين الخياط. لقد أخطأ المخرج فأعطاني رقمه بدلاً من أمين البني، وأنا أخطأت عندما ذكرت اسمه الأول فقط.

كانت مصادفة جميلة لأنني كنت أسعى لحوار مع الموسيقي الكبير أمين الخياط، وقد حملته المصادفة وحدها إلي، ومعه سيرة حياته وصورة له.

خريج المعهد..

سألت خريج المعهد الموسيقي منذ ٥٠ سنة، ربما أكثر:

- في العادة أسأل بداية عن المولد والنشأة والدراسة. هل ممكن أن تذكر لي، بعد هذا الجهد الموسيقي الكبير كم عمرك، مدَّ الله لك فيه؟

أجاب بابتسامة لطيفة:

• عمري ٧٥ سنة، أمضيت أكثر من خمسين سنة منها في خدمة الموسيقى وأقطابها من مطربين ومطربات وعازفين وموهوبين أخذت بيدهم، فأصبحوا مشهورين. أنت كم عمرك؟ اسمح لي أن أسألك هذا السؤال، إنني أعرفك منذ كنت صغيراً في العاشرة.

- كنت تعرفني في تلك السنة القديمة؟

وحكى لي أن أباه المرحوم السيد عبد العزيز الخياط كان موظفاً في الإذاعة، وكان يعمل عند المحامي المرحوم فؤاد الخياط، قريبه، وقد عرفني وقت كنت أعمل عند المحامي عندما كان يأتي مع والده.

وابتسمت كنت أعمل حقاً أثناء العطلة الصيفية عند المحامي فؤاد الخياط.

- قلت له: أنا أكبر منك، لكنني أقل شهرة منك.

• قال: لا تتواضع، عندما هتفت تطلبني، هرعت إليك.

علقت بأن الموضوع الآن ليس سني، بل الحوار معك.

النشأة موسيقية خالصة

• تخرجت من المعهد العربي الموسيقي التابع لوزارة التربية عام ١٩٤٥م بدرجة

امتياز، وتابعت مسيرتي مع الموسيقى منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

أول عمل

- ما هو أول عمل موسيقي اشتغلت فيه؟

• أول عمل وظيفي كان في إذاعة حلب عام ١٩٥٧م بعد تخرجي من المعهد بعدة سنوات.

- ماذا كان عملك في إذاعة حلب؟

• كان العزف على القانون، وكنت متميزاً لكنني نقلت فأصبحت رئيس الفرقة الموسيقية في إذاعة حلب، ومنذ ذلك الوقت بدأت مشواري في التلحين.

- ماذا بعد ذلك؟

• عدت إلى دمشق وعملت في المعهد العربي للموسيقى التابع لوزارة الثقافة السورية وتابعت عملي كملحن في الإذاعة، فلحنت أغنيات كثيرة لمطربي ومطربات ذلك الزمان.

- لم يكن التلفزيون قد ظهر بعد؟

• لم يكن قد ظهر. التلفزيون افتتح في تموز ١٩٦٠م.

عازف في أوروبة

- علمت أنك ذهبت إلى أوروبة وعزفت هناك؟

• أجل في نهاية عام ١٩٥٩م سافرت إلى أوروبة وعملت كعازف في عدد من عواصمها.

- متى عدت من أوروبة؟

• عملت حتى عام ١٩٦٣م ثم عدت إلى دمشق، لأن المجال أصبح مفتوحاً لي.

- لست أفهم ماذا تعني؟

ابتسم وقال:

• عام ١٩٦٣ عدت بعد أن عرفت، بطرق شتى، ما هي قدرات العازفين، فأسست فرقة الفجر الموسيقية التي ضمت خيرة العازفين على الآلات المعروفة وقتئذٍ، واحتفظت لنفسي بالعزف على القانون، إضافة إلى رئاسة الفرقة التي ظلت إلى اليوم، وقد مرَّ على إنشائها ٤٨ سنة.

مرافقة المطربين

- هل كانت فرقة الفجر ترافق المطربين أثناء أدائهم؟

• كانت ترافقهم، مطربين ومطربات، وأستطيع أن أقول لك إن جميع مطربي العالم العربي عزفت لهم فرقتي.

- والمصريون أيضاً؟

• الجميع، المصريون والسوريون والخليجيون، وكل من غنى في سورية أو خارج سورية.

- هل كانت الفرقة تذهب إلى خارج سورية لتعزف في المحيط العربي؟

• أؤكد لك أن فرقة الفجر زارت مرات عديدة جميع العواصم العربية، وعزفت فيها أمام كبار المطربين.

احتكار

وسألت بخبث:

- هل احتكرت فرقة الفجر الموسيقية العزف للمطربين والمطربات؟

• الله يسامحك. أنت لا تعرف أن فرقة الفجر أظهرت ستة رؤساء فرق موسيقية، ومنهم من لمعت أسماؤهم في رئاسة الفرقة بعد ذلك.

- وفي التلحين؟

• في التلحين أيضاً.

الموسيقى التصويرية

- ومضيت في الأسئلة المتعلقة بعمله كملحن وكواضع موسيقى تصويرية. فسألته عمّا إذا كان قد أسهم في وضع موسيقى تصويرية لأعمال درامية، فقال:

• وضعت موسيقى تصويرية لعدد من الأعمال الدرامية.

- مثل ماذا؟

• لن أذكر، عد إلى المسلسلات التي أنتجت في ذلك الوقت تر اسمي.

لا للموسيقى الغربية

وقال عن مسألة هامة في موضوع المسلسلات:

• اتفقت، وقتئذ، مع عدد من المخرجين الدراميين أن نستغني عن الموسيقى الغربية في الأعمال الدرامية السورية خاصة.

- بهدف ماذا؟

• بهدف ترسيخ الأعمال الموسيقية المرافقة لمشاهد الدراما السورية خاصة الموسيقى المحلية

المطربون والمطربات

- من هم المطربون والمطربات الذين لحنت لهم؟

• لحنت لصباح فخري وشريفة فاضل ومها صبري وسميرة توفيق ومصطفى نصري والياس كرم ومها الجابري وفاتن حناوي وعُليّة التونسية وفهد بلان وغيرهم.

لحن للمسرح

- طيب. هل لحنت للمسرح؟

• لحنت للمسرح أيضاً.

- هل تذكر بعض الأعمال المسرحية التي لحنت لها؟

• أذكر منها مسرحية «العنب الحامض» والمسرحية المحلية «طرة ولا نقش؟»

ألحان مطربي زمان

وتذكر فجأة أنه لحن شيئاً لم يفعله أحد من قبل.

- ما هو؟

• لحنت أغنيات من المفروض أن مطربي الزمان القديم قد غنوها.

- مثل من؟

• مثل زرياب والموصلي والمهدي.

الميداليات والشهادات

كان يحمل CD يتضمن حوالي ٤٠ صورة من نشاطاته الموسيقية وقد شاهدته، وشاهدت الجوائز والميداليات والشهادات الكثيرة التي صورها أيضاً.

- من أعطاك هذه الجوائز والميداليات والشهادات؟

• أخذتها من مختلف البلاد العربية.

- عددها لي؟

• حصلت على الشهادات والميداليات والجوائز من بلدي سورية، ومن المملكة الأردنية الهاشمية، ودولة الكويت، وسلطنة عمان، والجماهيرية الليبية، والمملكة المغربية، ومصر، والإمارات العربية المتحدة. وهذه هي صورها في الـ CD .

المناصب الحالية

بعد أن احتسيت القهوة سألته:

- ما هو موقعك الآن في المرفق الموسيقي؟

• تقصد ماذا أفعل؟

- نعم. هذا ما أقصد.

• فرقة الفجر ما تزال تعمل حتى الآن بعد مرور حوالي نصف قرن على إنشائها، وأنا أسافر مع الفرقة إلى عواصم عربية لحضور مهرجانات غنائية وموسيقية والعزف فيها.

- هل أنت في مناصب إدارية؟

• أجل. بعد أن شغلت منصب رئيس دائرة الموسيقى في الإذاعة والتلفزيون، ومنصب نقيب الفنانين لمدة أربع دورات، ومنصب مستشار هيئة الإذاعة والتلفزيون، ومدير مهرجان الأغنية السورية، وأمين سر لجنة صناعة السينما والتلفزيون حتى الآن، وأستدعى لأكون عضواً أو رئيس لجان تحكيم في الوطن العربي هذا ما كنت وما أعمل فيه.

احتضان المواهب

- هل تحتضن الآن مواهب شابة جديدة؟

• أحتضن فنانين من اللاذقية هما هالة القصير وكنانة القصير، والاثنان صاحبتا

صوتين جميلين جداً، وسأنشرهما عما قريب.

أما الشاب الذي أحتضن موهبته الرائعة فهو خلدون حناوي، وقد قدمته كمطرب في المغرب العربي فنال المرتبة الأولى مع تقدير كبير، لأنه غنى قصيدة «دمشق» التي ألفها الشاعر صالح هواري.

إن من مهامي البحث عن المواهب الغنائية وتلقينها الدروس الأولى في الموسيقى ثم أطلقها. هذه مهمة قديمة.

لقطات من حياة

الموسيقي أمين الخياط

• تزوج المرحومة هالة شوكت مدة، لكنها لم تنجب له.

• تزوج ثانية ورزق بأربعة أبناء فتاتين، وشابين، أصغرهما في الثامنة من عمره.

• يسافر من حين لآخر لرعاية موهوب أو موهوبة في الغناء وآخر سفرة له كانت إلى المغرب.

• كان والده المرحوم عبد العزيز الخياط من العازفين على العود، ولعله أخذ حبه للموسيقى صغيراً من مشاهدة والده يعزف ومن مرافقة والده إلى الإذاعة حيث كان يعمل.

• هو الآن عضو في لجان عدة، منها لجنة اختيار الأغاني الصالحة للبث من التي ترد للإذاعة والتلفزيون.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✪

توقع انقراض ٣٠٠٠ لغة محكية:

تحتفل اليونسكو منذ عام ٢٠٠٠م باليوم العالمي للغة الأم في ٢١ فبراير من كل سنة، وهي مناسبة تطرح فيها بعض الشعوب التي تعاني اضطهاداً للغتها الأم مطالبها في المؤسسات الدولية من خلال رفع الشكاوى والاحتجاجات.

وبمناسبة احتفال العالم بالذكرى السنوية الثالثة عشرة ليوم اللغة الأم قالت إرينا بوكوفا المديرة العامة لليونسكو: إن اللغة تعبر عن أفكارنا و مشاعرنا، وإن الوسيلة الوحيدة لضمان التعليم للجميع والتنمية هي قبول التنوع اللغوي ومكافحة التمييز، لذا يجب البدء في حوار حقيقي في هذا الشأن واحترام جميع اللغات.

وعلى الرغم مما تحظى به اللغة الأم من اهتمام متزايد في الأوساط الدولية ولدى شعوب العالم كافة، فقد توقعت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) انقراض نحو ٣٠٠٠ لغة في العالم بحلول نهاية القرن الحالي.

وقال بيان نشرته المنظمة على موقعها من المحتمل أن تنقرض نصف اللغات المحكية التي يصل مجموعها إلى ما يقارب ٦٠٠٠ لغة في العالم، بحلول نهاية القرن الجاري.

وأشار البيان إلى بعض مشاريع اليونسكو لحماية بعض اللغات المحلية المهددة بالانقراض، والبرامج التي تقوم بها حالياً لمساعدة سكان جزيرة جيجو للحفاظ على لغتهم وبقائها، في جمهورية كوريا، بعدما

✪ أديب وباحث في التراث العربي (سورية).

جرى إدراج لغتهم، في أطلس اللغات المهددة عام ٢٠١٠م، كما تساعد اليونسكو، في جزر سليمان على وضع موسوعة حول البيئة باللغة المحلية، الماروفو، وبالتالي فإنها تساهم في الحفاظ على هذه اللغة الرئيسية التي ينطق بها السكان الأصليون لهذا الأرخبيل، وفي نيكاراغوا، تعمل نظم اليونسكو للمعارف المحلية ومعارف السكان الأصليين (لينكس) مع سكان المايننا الأصليين الذين يعيشون في محمية المحيط الحيوي بوساواس، لتشجيع استخدام لغة، ومعرفة وثقافة المايننا..[1]

رحيل ثروت عكاشة:

فقدت الحركة الثقافية المصرية خاصة والعربية عامة واحداً من أعلامها المميزين، بغياب الأديب ووزير الثقافة المصري ثروت عكاشة الذي وافته المنية عن عمر ناهز ٩١ عاماً.

ولد ثروت عكاشة العام ١٩٢١م وكان ضابطا في الجيش المصري وتسلم بعد تولي الضباط الأحرار الحكم رئاسة تحرير مجلة «التحرير» وتولى بعدها العديد من المناصب في الدولة المصرية بين سفير ووزير ونائب لرئيس مجلس الوزراء.

كما تولى وزارة الثقافة ورئاسة المجلس الأعلى للفنون والآداب، وفي فترة توليه وزارة الثقافة تمّ إنقاذ معبدي أبو سمبل من الغرق تحت مياه بحيرة ناصر التي تكونت خلف السد العالي.

وتولى عكاشة أيضاً منصب نائب اللجنة الدولية لإنقاذ مدينة البندقية وعمل أستاذاً زائراً في كوليج دي فرانس بباريس متخصصا في تاريخ الفن وتولى رئاسة اللجنة الثقافية الاستشارية بمعهد العالم العربي في باريس وكان عضو المجلس التنفيذي لمنظمة اليونيسكو وعضواً عاملاً في المجمع الملكي البريطاني لبحوث الحضارة الإسلامية.

وحصل الراحل على جوائز عديدة بينها وسام الفنون والآداب الفرنسي ووسام جوقة الشرف الفرنسي بدرجة كوماندور والميدالية الفضية لليونيسكو لإنقاذ معبدي أبو سمبل والميدالية الذهبية لليونسكو لجهوده من أجل إنقاذ معبد فيلهن، كما حصل في مصر على جائزة الدولة التقديرية في الفنون وجائزة حسني مبارك في الفنون أيضاً وحاز الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية من الجامعة الأميركية بالقاهرة.

وقام عكاشة بتأليف أكبر موسوعة عربية عن الفنون الأوروبية صدرت ضمن مجلدين،

وله كتاب «مذكراتي في السياسة والثقافة» الذي صدر في ثلاثة مجلدات هي «الفن والحياة» و«إعصار من الشرق» و«القيم الجمالية في العمارة الإسلامية».(٢)

تكريم طه حسين:

أقام المكتب الثقافي المصري بباريس مائدة مستديرة تكريماً لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بمناسبة إصدار كتاب «معك» لزوجة أديب مصر سوزان طه حسين باللغة الفرنسية.

وتناولت «المستديرة» ما تضمنه الكتاب من ذكريات السيدة سوزان طه حسين مع أديب الأدب العربي وكذلك السيرة الذاتية للكاتب الكبير وأهم كتاباته وتأثيره في الأدب المعاصر في العالم أجمع والجوائز المصرية والعالمية التي حصل عليها.

وشارك في المائدة المستديرة أمينة طه حسين حفيدة عميد الأدب العربي والتي تتولى منصب رئيسة مجلس أمناء متحف جيمييه بفرنسا والدكتور علي القاضي المستشار الإعلامي المصري بباريس سابقا وقريب الدكتور طه حسين ونخبة من الأدباء الفرنسيين والمصريين والمهتمين بالأدب المصري.

وافتتحت الدكتورة أمل الصبان مديرة المكتب معرض الصور التي تروي تاريخ طه حسين، وفي السياق ذاته ينظم المركز الثقافي برئاسة الدكتور محمود إسماعيل اعتباراً من أمس الجمعة وحتى الحادي والعشرين من فبراير الجاري احتفالية حول الكاتب الكبير عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، حيث تعقد ندوة الإثنين القادم يشارك فيها الدكتور علي القاضي المستشار الإعلامي الأسبق لمصر في باريس وقريب الدكتور طه حسين.. وكذلك ندوة أخرى بعنوان «طه حسين والكفاح ضد الظلام» مع الدكتور جابر عصفور وزير الثقافة السابق، كما عرض المركز فيلم «دعاء الكروان» للفنانة فاتن حمامة والفنان أحمد مظهر والمأخوذ عن قصة عميد الأدب العربي.(٣)

وفاة الوردي مطرب أفريقيا الأول:

توفي في الخرطوم الفنان السوداني الشهير محمد وردي عن عمر ٧٩ عاماً، وقد بدأ مسيرته الفنية في خمسينيات القرن الماضي وارتبط اسمه بالأناشيد الوطنية التي برز فيها التوجه اليساري الثوري خاصة في بداية حياته، كما غنّى كذلك العديد من الأغنيات العاطفية.

ويعتبر الراحل من كبار الفنانين السودانيين، ومن الروّاد الذين اختطوا لنفسهم نهجاً خاصاً، وحظي بشعبية كبيرة في السودان والدول الأفريقية ولقب بفنان أفريقيا الأول، وتميز أداؤه بإدخاله القالب النوبي والأدوات الموسيقية النوبية في الفن السوداني مثل الطمبور، كما عرف عنه أداء الأغاني باللغتين النوبية والعربية. ويعتبره الكثير من الناس مطرب أفريقيا الأول لشعبيته غير المسبوقة في منطقة القرن الأفريقي.

ولد الفنان محمد عثمان وردي عام ١٩٣٢م في بلدة صواردة، إحدى قرى شمال السودان، وعاش يتيماً بعد وفاة والديه وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وعمل معلما بالمدارس الابتدائية ببعض المناطق شمالي البلاد، قبل أن ينتقل إلى العاصمة الخرطوم عام ١٩٥٨م محترفا للغناء والموسيقى، وقد منحته جامعة الخرطوم الدكتوراه الفخرية في عام ٢٠٠٥م تقديراً لمسيرته الفنية لأكثر من ٦٠ عاما ولما يزيد عن ٣٠٠ أغنية، وباعتباره أسطورة فنية سودانية خالدة وموسوعة موسيقية.(٤)

ترشيح فاضل إسكندر لجائزة نوبل:

رشح اتحاد كتّاب موسكو الكاتب الأبخازي الأصل فاضل إسكندر لنيل جائزة نوبل للآداب للعام ٢٠١٢م، ونقلت «الصحيفة الأدبية» الروسية، أن السكرتير الأول للاتحاد البروفيسور يفغيني سيدوروف أوضح ذلك، قائلاً: «حسب النظام الداخلي لصندوق جائزة نوبل يمكن تقديم الترشيحات عبر الشخصيات التالية: الأكاديمية السويدية والأكاديميات الأخرى، والتجمعات ذات الوظائف والأهداف المماثلة، وأساتذة التاريخ والآداب واللغات والحائزون على جائزة نوبل في مجال الآداب وأخيراً ممثلو الاتحادات النقابية في التخصصات الإبداعية، والتي تمثل الإبداع الأدبي في بلدانها».

وتابع سيدوروف قوله، أنه على هذا الأساس «لدي كامل الحق، وبالاستناد على وحدة الرأي في قيادة اتحاد الكتّاب في موسكو، أن أتقدم بترشيح عضو اتحادنا فاضل إسكندر لجائزة نوبل للآداب، وفق الصيغة التالية: «انطلاقاً من مهرجانية الحرية والعمق الإنساني والفكاهة المطهرة في روايته الملحمية «ساندرو من شيغيم»،

أعتقد أنه هو المرشح الأكثر جدارة لهذه الجائزة».

ويعتقد أن ترشيح فاضل إسكندر من قبل اتحاد كتاب موسكو، جاء على خلفية التباين في وجهات النظر بين المؤسسات الأدبية والصحفية في روسيا، التي تقوم فيها عدد من الاتحادات والروابط التي تمثل الكتاب، ولم يؤيد اتحاد الكتاب الروس هذا الترشيح، كما لم تعلن مؤسسة أدبية أخرى هي الاتحاد الروسي للكتاب تأييدها لهذه الخطوة.

يذكر أن الكاتب والصحفي والشاعر فاضل إسكندر يعد من أبرز كتاب الهزل، المبني على المبالغة الفنية الساخرة على غرار ما سار عليه غوغول وشدرين، مبينا صوره الأدبية وأفكاره على إظهار سلبيات المجتمع ومزج المتناقضات، الخيالي مع الواقعي، والجميل مع الدميم، المأساوي مع الهزلي بصورة ساخرة ومبالغ فيها.

وقد انخرط إسكندر في العمل الصحفي منذ العام ١٩٥٤م، ونشر بواكير شعره في العام ١٩٥٢م، ونشر أولى قصصه «القضية الأولى» في مجلة (الطلائعي) في مطلع الخمسينات، ومن أعماله القصصية الشهيرة «مأثرة هرقل الثلاثون» و«الثمرة المحرمة»، والقصة الهزلية الطويلة «برج الجدي»، والكثير الكثير من الروايات والقصص، ومن أهمها الرواية الملحمية «ساندرو من شيغيم» التي وضع نهايتها في العام ١٩٧٧م، ولم تنشر في الاتحاد السوفييتي إلا في العام ١٩٨٩م، والتي يرشحها اتحاد كتاب موسكو اليوم لنيل جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠١٢م.

وتجدر الإشارة إلى أن فاضل إسكندر المولود في أبخازيا في العام ١٩٢٩م، نال عدة جوائز سوفييتية وروسية وجوائز عالمية في الآداب.[٥]

اكتشاف أوّل عمل فني في تاريخ البشرية:

يقوم علماء بدراسة ست رسومات مختلفة تمثل حيوان الفقمة، عُثر عليها في كهف (نيرجا) بمدينة ملقا الإسبانية، والتي يعود تأريخها إلى ما قبل ٤٢٠٠٠ عام. ومن المحتمل أن تمثل هذه الرسومات الستة القديمة، التي لا يقل عمرها عن ٤٢٠٠٠ عام، أقدم نموذج عن عمل فني أنجزه إنسان (النياندرتال)، الذي انقرض قبل ٢٤٠٠٠ عام، والأول في تأريخ البشرية، استناداً إلى مجموعة مختلفة من الباحثين.

وأوضح خوسيه لويس سانجيدريان،

البروفسور في جامعة قرطبة، والذي يرأس المشروع الخاص برعاية هذا الكهف، أن الدراسة التي خضعت لها البيئة المحيطة بالأماكن التي تمَّ فيها اكتشاف الرسومات الحالية، تعود إلى ما قبل ٤٢٠٠٠ عام، مما يؤكد على أنها تمثل أقدم نموذج فني في تاريخ العالم.

وأشار سانجيدريان إلى أن جميع البيانات العلمية الحالية المتصلة بهذا الاكتشاف الهام تحيل إلى أن هذه الرسومات نفذها إنسان (النياندرتال)، «مما يعني اكتشافاً أكاديمياً في غاية الأهمية»، حيث كان يعزى، حتى اليوم، كل ما يتعلق بالمعنى الجمالي إلى الإنسان العاقل (هومو سابينس)، جد الإنسان الحديث المعاصر، والذي عاش قبل ٤٥٠٠٠ عام.

وعقب تحليل رواسب الكهف، أرسلت إلى ميامي لمعرفة تاريخ بقايا الكربونات التي ظهرت على مبعدة ١٠ سنتمترات من الرسومات، حيث أسفرت بعض الاختبارات عن نتائج تشير إلى أنها تعود إلى ما قبل ٤٢٣٠٠ و٤٣٥٠٠ عام. وترتبط هذه الكربونات بالفترة التي ظهرت فيها هذه الرسومات، مما يعني أنها أقدم من ذلك بكثير، وأن هذا التاريخ، كما يقول البروفسور في جامعة قرطبة «يعود إلى إنسان النياندرتال، مما يفتح أمامنا آفاقاً جديدة. وأن الفحم بجوار هذه الرسومات، لا مثيل له في فن العصر الحجري، وخاصة إذا علمنا أن إنسان النياندرتال كان يأكل حيوان الفقمة».

ويرى كل من رئيس المشروع الخاص برعاية هذا الكهف، ومنسق المشروع أنتونيو غاريدو، الأهمية التي تكمن في دراسة تأريخ بقايا المواد العضوية الموجودة الآن بجوار الرسومات، وإذا ما تزامن التأريخ فيما بينهما، حينها سوف تطرح العديد من الأسئلة. وهنالك أيضاً احتمال أن تكون الرسومات قد أنجزت من قبل (الإنسان العاقل – هومو سابينس)، ولكن حسب سانجيدريان «أن ذلك يعتبر افتراضاً بعيداً جداً، لعدم وجود ما يشير إلى ذلك الفن في شمال أفريقيا».

إن الأهم في هذا الاكتشاف، هو أننا حيال ما قد يشكل أوّل عمل فني في تاريخ الإنسانية، وأنّه ليس من تنفيذ (سابينس)، ويعد، في النهاية، منعطفاً جديداً، وتغييراً جذرياً في مسيرة تأريخ الفن، لأنه حتى

يومنا هذا، كان (تأريخ الفن) يقول بأن «الفن مرتبط بنا، نحن الكائنات العاقلة، لأننا نحن الوحيدين القادرين على أن نفكر».

ويعتقد الباحثون أن هذا الكهف يعد أحد أبرز المواقع في جنوب أوروبة، التي كان يلجأ إليها إنسان النياندرتال، ومفتاح انقراض هذا النوع من الجنس البشري الذي ظهر قبل الإنسان الحديث...[٦]

متحف إسلامي في أستراليا:

قام الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي أكمل الدين إحسان أوغلي بوضع حجر الأساس لأول متحف إسلامي في أستراليا وذلك بحضور عدد كبير من أبناء الجالية المسلمة في أستراليا وممثلين عن الحكومة الأسترالية إضافة إلى مندوبها لدى المنظمة أحمد فاحور.

وحسب بيان المنظمة فإن المتحف يركز على تاريخ المسلمين وإسهاماتهم في بناء هذا البلد إضافة إلى اعتباره عاملاً مساعداً في فهم التنوع الثقافي وتعزيزه في ولاية فيكتوريا بوجه عام ومدينة ميلبورن على وجه الخصوص.

ونقلت المنظمة عن أوغلي قوله في كلمته خلال حفل وضع حجر الأساس: «إن الإسلام أسهم في رفد الصورة الحضارية في أستراليا والحضارات الأخرى من خلال ما قدمه من فنون وثقافات واسعة ومتنوعة منطلقاً من مبادئه المبنية على التسامح والسلام»، مضيفاً أن المتحف سوف يساهم في تعزيز فهم استراليا للإسلام كما سيساعد في بناء جسور التواصل بين استراليا والعالم الإسلامي مشددا على دعم المنظمة لهذه المبادرة المهمة.

يشار إلى أنه من المتوقع أن يفتح المتحف أبوابه أمام الزوّار خلال عامين، وسوف تسهم بمنحه الدعم المالي والثقافي للمتحف الدول والمنظمات المنخرطة في منظمة التعاون الإسلامي.[٧]

دالي برواية سكرتيره الشخصي:

عرض انريكيه ساباتير السكرتير الشخصي للفنان العالمي سلفادور دالي في باريس حوالي مئة رسم ولوحة أكواريل وصوراً قدمها إليه الفنان السوريالي الكاتالوني مع إهداء.

وقال انريكيه ساباتير: إن غايته من إقامة هذا المعرض نفي تهمة البخل، والحرص الشديد على جمع المال، كما يصف بعض المقربين والمعاصرين لدالي بها، مضيفاً أنه

أراد أن يظهر أن السيد دالي كان كريماً جداً، وأنه ليس كما زعم الشاعر السوريالي أندريه بوتون «افيدا دولار»، «ولم يكن بخيلاً بتاتاً كما قالت عنه زوجته غالا التي لم تكن تهتم إلا بالجانب المالي في علاقتها به».

انريكيه ساباتير كاتالوني التقط صورا لدالي في مشغله من دون الاستعانة بفلاش. كذلك التقط صورا لموديلات لرسام، وصور أيضاً زواراً رغبوا بأن تلتقط صور لهم مع الرسام الكبير. ويؤكد ساباتير أن الرسام «كان يطلب منهم المال مقابل هذه الصور ويجعلني أجمع المال من خلال ذلك».

ويضيف «على مدى أربع سنوات قام دالي بتدريبي. كان يدعوني إلى مشغله مثل أي تلميذ ليفسر لي أعماله. وفي العام ١٩٧٢ طلب مني أن أهتم بالشق التجاري بما في ذلك اللوحات الزيتية» مع غالا.

ويروي قائلا «كنت أتناول الغداء والعشاء على مائدة السيد دالي وغالا في كل يوم من أيام السنة. كان من الذواقة إلا أنه لم يكن يفرط بالأكل. ولم يكن يشرب إلا الماء». ويضيف في إسبانيا كان الفنان يبدأ نهاره «بوضع الرسوم التمهيدية وهو لا يزال في سريره. وكان يسأل غالا دائما رأيها. ومن ثم كان ينتقل إلى مشغله. كان شخصا يجهد كثيراً في عمله ويقرأ كثيراً ويعشق العلوم».

ويضيف «بعد الغداء كان يخلد إلى قيلولة ومن ثم يعود إلى مشغله. قرابة الساعة السادسة من بعد الظهر كانت تبدأ الزيارات. عدد كبير من الفنانين الشباب كانوا يأتون ليطلعوه على أعمالهم.

ويتابع قائلاً «في مجالسه الخاصة لم يكن غريب الأطوار.. في الحياة العامة كان يتحول إلى رجل آخر. عندما كان يأتي صحافي كان يتنكر ويرتدي سترة. كان يتكلم بطريقة مختلفة وكان يقوم بمسرحيته الودية بحذاقة دائماً». ويوضح «كنت مكلفا شراء الشمع الخاص بشاربيه، من أجل اللون ورفع جانبيهما. وكان هذا الأمر إلزامياً عندما يخرج للتنزه. وكان يقول إن الهوائيين العجيبين هما اللذين يوفران له المعرفة. لم أكن أصدقه»..(٨)

هل كان شابلن فرنسياً؟

أظهرت ملفات من الأرشيف أن الاستخبارات البريطانية أجرت تحقيقاً حول نجم السينما الصامتة الراحل تشارلي شابلن، ووجدت أن الغموض يلف مكان

ولادتـه، وأشارت إلى احتمـال أن يكون قد ولد في فرنسا.

وكان جهـاز «أم أي 5» البريطاني أجرى تحقيقاً حـول خلفية شابلن بعـد أن غادر الولايـات المتحدة عـام ١٩٥٢م إثر شكوك السلطات الأميركية بتعاطفه مع الشيوعية.

وكان يعتقد أن شابلن ولد في ١٦ نيسان/ أبريـل عام ١٨٨٩م في جنـوب لندن، ولكن الاستخبارات البريطانية لم تتمكن من العثور على وثيقة ولادة باسمـه أو باسمه المستعار «إسرائيل ثورنستاين»، وقالت الاستخبارات «يبـدو أن شابلن إمـا لم يولد في هذه البلاد أو أن اسمـه عند الـولادة كان غير الأسماء المذكورة».

وأضافت «أم أي 5» في تقريرها «بما أنه لم يتم الحصول على أية وثيقة ثبوتية حول أن شابلن ولد في المملكة المتحدة، قد يكون ولد في الواقع في فرنسـا»، من دون التمكن من تأكيد ذلك، وأكدت الاستخبارات البريطانية في حينـه أن شابلن لا يشكل أي خطر أمني، على الرغـم من ذلك فلم تسمـح واشنطن لـه بالعودة إليها بسبـب شكها بتعاطفه مع الشيوعية.

يشـار إلى أن رصيد شـارلي شابلن من الأفلام التي أنتجها وصل إلى / ٨٠/ فيلماً بالأبيض والأسود عالجـت قضايا إنسانية واجتماعية وسياسية ومن أشهرها: الملاكم، المتشـرد، ليلـة في الاستعراضـ، العصور الحديثة، المهاجر، حمى الذهب، الديكتاتور العظيم، أضواء المدينة، حياة كلب، السيرك، وغيرها من الأفلام الأخرى.(٩)

متحف صيني للحفاظ على نسخة قديمة من القرآن:

قررت السلطـات الصينيـة بمحافظة «دونغشيانـغ» في مقاطعـة «قانسو» شمال غربـي الصين، تخصيصـ ٤ ملايين يوان لبنـاء متحف خاص؛ للحفـاظ على نسخة قديمـة ونادرة مـن القرآن الكـريم باللغة العربية يرجع تاريخها إلى ١٠٠٠ عام.

وقال مسؤول في محافظة «دونغشيانغ»: «إن هذه الأموال تخصص لبناء متحف تقدر مساحتـه بحوالي ٨٠٠ متر مربع مع صالات عرض وأنظمة عرض رقمية ونظام للمراقبة، وأجهزة تكنولوجية متقدمـة للحفاظ على نسخة القرآن الكريم القديمة».

وأشـار إلى أنه من المقـرر البدء في بناء المتحـف خلال فـترة قريبة، علـى أن يتم الانتهـاء منـه بنهايـة العام الجـاري، كما

سيتم جمع الأموال لبناء المتحف من قبل الحكومة المحلية الصينية، بمشاركة حكومة منطقة «قانسو» المحلية والحكومة المركزية الصينية، فيما يتم التخطيط أيضًا لترميم المساكن القريبة من المتحف الجديد، والتي تمثل خصائص المواطنين المحليين من المسلمين وأصول عرقية أخرى.

يذكر أن هذه النسخة القديمة من القرآن الكريم، والتي كُتبت باللغة العربية وتتألف من ٥٣٦ صفحة، كان قد تمّ اكتشافها في محافظة «دونغشيانغ» عام ٢٠٠٩م، ثم تمّ تقييمها من قبل خبراء من الصين وبريطانيا واليابان الذين توصلوا إلى أنها كتبت في الفترة ما بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر الميلادي، وعقب الإعلان عن اكتشاف النسخة قررت السلطات الصينية تصنيفها ضمن الممتلكات الثقافية ذات «درجة أ» التي تخضع للحماية الوطنية الصينية، فيما يعتقد أن تكون هذه النسخة واحدة من أقدم نسخ القرآن الكريم الموجودة في الصين.

ومن جانبه، قال ما تشينغ فانغ أحد الأئمة المسلمين في الصين: «إن الصين رفضت مرارًا العروض الخارجية للحصول على الوثيقة، مشيرًا إلى أن محافظة «دونغشيانغ» تمتلك ٤٦ نسخة قديمة من القرآن الكريم».[١٠]

معرض يضم ٦٠ لوحة لبيكاسو:

أقيم في متحف تيت البريطاني معرض بعنوان «بيكاسو والفن البريطاني الحديث» يستطلع إرث بيكاسو وتأثيره في الفن البريطاني الحديث ودوره في القبول الذي ناله الفن الحديث من الجمهور البريطاني المحافظ إلى جانب القصة الآسرة لعلاقة بيكاسو المديدة في بريطانيا وحبه لها.

وقال الناقد الفني ريتشارد دورمنت: إن المعرض أخذ موضوعاً ثانوياً مثل تأثير بيكاسو الذي اقتصر على حفنة من الفنانين البريطانيين وحوّله إلى إدانة للثقافة البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين. وأعاد دورمنت التذكير بأن الجمهور البريطاني حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر كان يخلط بين التجديد في الفنون التشكيلية والبصرية والفوضى السياسية. وفي مطلع القرن العشرين، عندما أقيم معرض في لندن لأعمال مونيه وديغا ومانيه ورينوار بيع منها أقل من عشرة أعمال. ولاقت المصير نفسه معارض لفناني ما بعد الانطباعية أقيمت في ١٩١٠ و١٩١٢م.

ومن المؤشرات الأخرى على اعتلال

الثقافة البريطانية وقتذاك أن شيوخ النقد الفني التقدمي في بريطانيا مثل روجر فراي وكلايف بيل لم يفهموا عمل بيكاسو في أي فترة من فترات حياته الفنية.

وفي حين أن جون غولدنغ وصف التكعيبية بأنها «أعظم ثورة فنية منذ النهضة الإيطالية» فإن متحف تيت لم يقتن لوحته الأولى من لوحات بيكاسو التكعيبية إلا في عام ١٩٤٩م.

وفي مثل هذه الأجواء لم يكن مستغرباً أن تُصاب الثقافة البصرية البريطانية بالركود. ولم يكن بمقدور الجمهور البريطاني أن يتذوق الفن الجديد ويقدره إذا كانت الصالونات والمتاحف العامة نفسها لا تعرضه. والمفارقة أنه عندما أقدم متحف تيت أخيراً على تنظيم معرضه الأول لأعمال بيكاسو في عام ١٩٦٠م استقطب أكثر من ٤٦٠ ألف زائر في غضون شهرين.

وفي هذا السياق ينظر معرض «بيكاسو والفن البريطاني الحديث» إلى طريقة الفنانين البريطانيين في فهم عمل بيكاسو. وما استعاروه منه كان من المحتم أن يتأثر بالأسلوب الذي كان بيكاسو يستخدمه وقت اكتشافهم له فجاءت لوحة دنكان غرانت التي سماها «بيكاسو» تكعيبية فيما جاءت لوحة فرانسيس بيكون سوريالية.

ضم المعرض ما يربو على ١٥٠ عملا بينها أكثر من ٦٠ لوحة لبيكاسو نفسه بضمنها أعمال من أهم المحطات في حياته الفنية مثل «المرأة التي تبكي» التي أنجزها عام ١٩٣٧ و«الراقصات الثلاث» التي أنجزها عام ١٩٢٥. ويتيح المعرض فرصة نادرة لرؤية هذه الأعمال الشهيرة بجانب أعمال سبعة فنانين كانوا أشد الفنانين البريطانيين تأثراً وإعجاباً ببيكاسو وهم دنكان غرانت وويندهام لويس وبين نكلسون وهنري مور وفرانسيس بيكون وغراهام سذرلاند وديفيد هوكني..[11]

الشقيقان تافياني يفوزان بجائزة الدب الذهبي:

حاز الشقيقان الإيطاليان تافياني جائزة الدب الذهبي في الدورة الثانية والستين لمهرجان برلين للسينما عن فيلمها «قيصر يجب أن يموت» وهو اقتباس حر عن مسرحية «يوليوس قيصر» لشكسبير مثل فيه سجناء من سجن للمعتقلين الخطرين في روما.

وتألفت لجنة التحكيم التي ترأسها المخرج البريطاني مايك لي خصوصا من الممثل جايك غيلنهال وشارلوت غينزبور وباربرا سوكوا والمخرجين أصغر فرهادي الحائز جائزة الدب الذهبي العام ٢٠١١م والفرنسي فرنسوا أوزون والهولندي أنطون كوربين.

وأتت فكـرة الفيلم الذي صور بالأبيض والأسـود جزئيا إلى الشقيقـين عندما كانا يحضران عرض «الجحيم» لدانتي في وسط سجن ريبيبيا في روما.

وحـاز جائزة لجنـة التحكيـم الكبرى الفيلم الدرامي المجـري حول مصير غجر الروما «الهـواء فقط» لبينيسـي فليغوف، كما حازت جائـزة الدب الفضـي لأفضل ممثلة، طفلـة الشوارع السابقة في كينشاسا الكونغولية راشيل موانزا «١٤ عاما» لتأديتها دور طفلة-جندية في فيلم «متمردة» للكندي كيم نغوين.

أما الدب الفضي لأفضل ممثل فكان من نصيب الدانمركي ميكيـل بو فولسغارد في «قضية ملكية» لمواطنه نيكولاي أرسيل. وحاز الفيلم أيضاً جائزة أفضل سيناريو..[١٢]

إحالات

١- موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.CO.

٢- موقع ميدل إيست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٣- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG

٤- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

٥- أنباء موسكو /نوفوش AR.RIAN.RU.

٦- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM

٧- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

٨- موقع ألف ياء WWW.ALEFYAA.COM.

٩- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

١٠-موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM.

١١-وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM.

١٢-موقع آكي WWW.ADNKRONOS.COM/AKI/ARABIC

رضا سعيد.. مؤسس الجامعة السورية

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن*

هي قامات شامخة، تأتي وترحل، تترك بصمتها في قول أو كتاب أو اختراع. في بصمة مادية أو معنوية. قامات تنذر نفسها وعقولها وجسدها للآخر. تصل الليل بالنهار، وتمضي حياتها تفكر بروية عمّا يمكن أن يقدم الخير للبشرية. لم أدرك أن شخصية مثل (رضا سعيد) هو مؤسس الجامعة السورية، إلا في فترة متأخرة. ولم أدرك أن حياة هذا الرجل تستحق الوقوف والتأمل والتعبد في محراب أفكارها إلا بعد أن اطلعت على ما كتب حول هذه الشخصية.

الكتاب من تأليف الباحث والصحفي السوري «صباح قباني»، والعنوان جاء تحت مسمى «رضا سعيد.. مؤسس الجامعة السورية.. رجل لكل الأقدار». والدار الناشرة



هي «دار جداول» في لبنان. يقع الكتاب في /٢٧١/ صفحة من القطع فوق الوسط.

سأحاول في هذا التقديم، الوقوف على المفاصل الرئيسة فيه، مبرزاً مضمونه وأهميته، بما يفي ويقدم للقارئ المادة

* باحث سوري.

الأساس التي لا تغني عن قراءة الكتاب في كل الأحوال.

اليقظة..

في مدينة إسطنبول، استقر (رضا سعيد) القادم من سورية لدراسة الطب هناك. ومن حروب البلقان، خرج مثخناً بالجراح، جراح الجنود الذين كان يعالجهم في المشفى الميداني العسكري في الجبهة.. وعلى يد المعلم القديم اليوزباشي (عمر لطفي أفندي) تعلم اللغة الفرنسية، قبل ثلاثين عاماً، في القسم الابتدائي بالمدرسة الرشيدية والعسكرية بدمشق.

تزوج من فتاة فرنسية أثناء إقامته في باريس للدراسة. حصل على شهادته الطبية من المدرسة الطبية العسكرية في أيلول للعام /١٩٠٢م/، وعين طبيباً برتبة يوزباشي في إسطنبول. ثمّ نقل إلى (طرابزون) ليترأس القسم الكيميائي في إدارة الجمارك. وعاد إلى إسطنبول في نيسان /١٩٠٤م/ ليعين طبيباً جراحاً في مستشفى (الكلخانة). واختير العام /١٩٠٧م/ ليكون مدرساً لأمراض العين في تلك المدرسة. ثم أوفد إلى باريس مدة سنتين ليتخصص في الأمراض العينية /١٩٠٩-١٩١١م/، إلى جانب دراسته للطب، أتيح له الاهتمام بالمسرح والحفلات الموسيقية والمعارض الفنية. كما اطلع على التيارات الفكرية السائدة في أوروبة. في /١٥حزيران عام١٩١٣م/ تم اتخاذ القرار بنقله ومجموعة من زملائه إلى المشفى العسكري في دمشق، والذي هو قيد الإنجاز، فكان من عداد من حزم حقائب السفر إلى دمشق.

التكوّن..

في عام /١٩١٨م/ كان رضا سعيد قد بلغ الثانية والأربعين من عمره. وقبل الحديث عن قدومه إلى دمشق، لابدّ لنا من وقفة هامة عند إقامته في باريس، لما لذلك من أهمية في حياته وإنجازاته الفكرية.. وصل رضا سعيد إلى باريس في أيار /١٩٠٩م/ وعُيّن في قسم أمراض العيون في مستشفى (أوتيل ديو).. لقد أثبت منذ البداية أنّه جرّاح ماهر، شارك في عمليات جراحية عدة. واختير كمساعد لرئيس المشفى. وأن يقدم بعض المحاضرات في كلية طب باريس وفي المستشفى الذي كان يعمل به.. إلى جانب عمله الطبي، كان على صلة وثيقة بكل التطورات الفكرية في فرنسا وأوروبة.

حين عاد إلى دمشق للعمل في المستشفى العسكري المركزي، كان سعيداً بذلك. وقد أحسن إعداده وتجهيزه بأفضل الاحتياجات الطبية، وأنيط به رئاسة قسم العيون. وكان المشفى مخصصاً للعسكريين، لكنه قدّم

إفادة كبيرة للمدنيين في سورية. لم يستمر الأمر طويلاً لتغير الأمور مع بداية /آب ١٩١٤م/ ونشوب الحرب العالمية الأولى. وأخذت تخيم على سورية أجواء الحرب. وتمّ نقل رضا سعيد من المشفى العسكري لاستلام رئاسة هيئة أطباء الخط الحديدي الحجازي. سعد بذلك، لأن عمله هذا سيقدم خدمة طبية لطيف واسع من أهالي بلده. ثم اختاره أعضاء مجلس بلدية المدينة، رئيساً للبلدية للإفادة من خبرته التنظيمية في التخفيف من كارثة المجاعة. فشرع في التعاون مع الجمعيات الخيرية والجوامع والكنائس. وأوجد هيئات أهلية في الأحياء، كما أحدث مراكز إعاشة لتنظيم توزيع القمح.. وبعد انتهاء الحرب، وخسارة تركيا الحرب، وخروج فلول الأتراك من سورية، دخل الأمير فيصل إلى سورية بوصفه القائد الجديد للعرب، وكان اللقاء بينه وبين رضا سعيد قبل سفر الأول إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح. وكلفه بإعادة المدرسة الطبية إلى دمشق بعد أن نقلت إلى بيروت.. وكان أوّل ما سميت به المدرسة هي (المدرسة الطبية العربية) أو (المعهد الطبي العربي)، وجعل لغتها العربية.

العطاء..

كُلف رضا سعيد في /١٤تشرين الثاني ١٩١٨م/ بإقامة (المدرسة الطبية العربية) بدمشق. لتحل محل (المكتب الطبي التركي)، وجعل العربية لغة التعليم في المدرسة، بدل التركية، واللغات الأجنبية الأخرى.

كتب رضا سعيد مجموعة من المقالات في جريدة (العاصمة) التي أنشأتها الحكومة العربية ورأس تحريرها الأستاذ شاكر الحنبلي، وذلك في ١٢كانون الثاني ١٩١٩م/.

في عام /١٩٢٠م/ دخل الجنرال /غورو/ دمشق بعد معركة فاصلة في ميسلون بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة. التقى رضا سعيد الجنرال (كاترو) في دمشق، وناقش معه إمكانية الإبقاء على معهدي الطب والحقوق في دمشق، بدل إغلاقهما، وكان له ذلك فيما بعد. فقد وافقت فرنسا على إبقاء المعهدين المذكورين، وفتح المعهدان أمام الطلاب العرب جميعهم للتعلم، كما قام بإنشاء مجلة شهرية لترسيخ اللغة العربية وتعريب المصطلح. وكلف مرشد خاطر الأستاذ في المعهد برئاسة التحرير، وذلك في /كانون الثاني١٩٢٤م/.

إلى جانب ذلك، اهتم رضا سعيد مع رفاقه بالرعاية الصحية ونشر الوعي الصحي بين الأهالي. وبذلك سارع في المشاركة مع صديقه لطفي الحفار بجر مياه

عين الفيجة إلى منازل دمشق، وكان المشروع برمته سورياً.

في /١٥/حزيران/١٩٢٣م/ كلف بتأسيس الجامعة السورية، بعد صدور القرار رقم /١٣٢/ ثمّ جرى انتخابه رئيساً لها ورئيساً لمجلسها، إضافة إلى منصبه عميداً للمعهد الطبي. كما أضاف مدرسة لطب الأسنان وفرعين للقابلات والممرضات. وتمّ استكمال مخبر الأشعة. كما أوفد الأساتذة الأجانب للتدريس في هذه المؤسسات الطبية.

تسنم رضا سعيد وزارة المعارف في عهد الرئيس (صبحي بركات)، ليقوم بمجموعة من الإجراءات في التعليم الثانوي، وقد تمكن من وضع الأساس لنظام البكالوريا السورية.

في /٣٠حزيران ١٩٣٥م/ بعد انتهاء المؤتمر السنوي (الجمعية الطبية المصرية) الذي انعقد في دمشق، قرّر الاعتراف بشهادة المعهد الطبي العربي بدمشق.

في /٢١نيسان/ ١٩٤٠م/ لبى دعوة عميد كلية الطب حسني سبح، وقد بدا الإرهاق على ملامحه، ويبدو أن رحلته الطويلة بدأت تنال من جسده. وعلى الرغم من ذلك بدأ رضا سعيد رحلة العمل ورحلة العلاج معاً، وأمهله القدر بضع سنوات قليلة ليتوفاه الله في /٢٨ تشرين الأول/١٩٤٥م/ ولتتكس أعلام دمشق، حداداً على وفاة مؤسس الجامعة السورية.

رئيس التحرير

محمد الماغوط
أنت سيّد الشعراء

ست سنوات مرّت على رحيل الشاعر والمسرحي والأديب الكبير محمد الماغوط، هذا الرائع الجميل المجدّد، الذي سوف نظل -تباعاً- نغترف من معين كنوزه التي لا تنضب، وموهبته المتفجّرة التي لا يقل عطاؤها.. رحل شامخاً، وتركنا ننتظر في أوطان هي كلها قاعات انتظار، نعيش كالحطب في موقد النار، تائهين في البحث عن الأجوبة من دون حُجب أو أستار، تحيط بنا الفواجع والحسرات.. نحلم بالسماء والنجوم لنعانقها، فلا نجد غير «حزن في ضوء القمر»..

لقد صارت كلماتك بعد الرحيل أقوى.. لقد تركتنا نواجه مجهول الوعد، نتأمل سراب الوهم في غسق الظلام.. رحلت وتركتنا في «الأرجوحة» تائهين، فضاع الأمن والأمان والإيمان.. رحلت عنّا بعد أن تركتنا كلما استيقظنا من نومنا، وجدنا بين ذراعينا بقيّة ثقيلة من ليل.. رحلت عنّا، وتركت قلوباً لا يهبّ فيها نسيم الوجد، ورأياً لا يصلح في الوقوف عند الحد، ونفساً لا تبالي بالهجران والصد..

في ذكرى رحيل محمد الماغوط الذي قال له نزار قباني عندما التقاه في الخمسينيات من القرن الماضي: «أنت سيّد الشعراء، أنت أصدقنا وأبرؤنا جميعاً».. في ذكراه، نقتبس «شذرات» من إبداعاته الوهّاجة، الموزّعة بين الألم والأمل، في مواجهة ما يحدث بصلابة، عسانا نعرف أين تذهب آهاتنا وصلواتنا.. عسانا نسترد شجاعتنا وبأسنا، في زمن يهرب مثل الماء، وأصبحت فيه ذاكرتنا ضعيفة، وأعصابنا كالمسامير..

بعد رحيلك يا أبا شام، كُتب عنك وعن شعرك ومسرحك عددٌ كبيرٌ من المقالات والدراسات والخواطر التي رصدت حالات الوجد والحزن والفرح والأرصفة والطرقات والموانئ والأشجار والعيون المهمّشة، والقمر المنهك القوى، وعناصر الصدق والدهشة والفرادة في اللغة والصورة والإبداع في كل ما تركته لنا مما قرأناه بالأمس وسنظل نقرأه في المستقبل.. سوف نفعل ذلك لأنك شاعر السليقة، وشاعر الحدس، ولأنك أنزلت اللغة من برجها العاجي، وجعلتها لغة يومية من دون أن تفقدها بريقها وسحرها الجميل.. سوف نفعل ذلك لأنك شاعر الفرح والأمل والرجاء والجمال الممزوج باللوعة والقضايا الإنسانية الكبيرة والصغيرة، وشاعر الصعلكة والألم واليأس والحلم..

في ذكرى الرحيل، نقول لشاعرنا الكبير: إنك مازلت الربيع المقبل، وقصيدة غرام، وحب المطر، وأنين الأمواج البعيدة.. مازلت جميلاً كوردة حمراء على رابية، مازلت نظيفاً كالقطن.. لمّاعاً كورق الآس.. مازلت ترنو إلينا بقوة وعظمة وحيوية مع كل قصيدة نقرؤها لك، ومع كل كلمة خطتها يداك، ستظل حيّاً تراقب النبوءة التي أطلقتها في الخمسينيات من القرن الماضي.. ستظل الأب الروحي لأكثر من جيل من شعراء قصيدة النثر.. ستظل الشاعر الفذ، الذي لم يقصد بشعره أن يكون شاعراً بقدر ما قصد أن يقدّم نفسه، وبأن يقدم العالم كما يراه..

تاريخ الشعر العربي، يؤكد قوة الاتباع فيه، ومحمد الماغوط أكّد قوة الإبداع فينا..

لقد حرر الشعر من أسلافه، وترك كل فرد فيه يذهب إلى فردوسه.. لقد داعب الزبد الأبيض بعقاله، وأبحر إلى مكان ما، تحت مطر حزين، وأسرع كموجة وحيدة مطاردة في البحر، وقال:

سأقف على موجة عالية
كما يقف القائد على شرفته
وأصرخ:
إنني وحيد يا إلهي.